القسم الثاني
مُدارَساتٌ في القرآن الكريم

تمهيد

الحمد لله الذي نزَّل الفرقانَ على عبده ليكون للعالمين نذيراً، وأرسل رسوله - صلى الله عليه وسلم – بالْهُدَى كافةً للناس بشيراً ونذيراً، وجعله في سماء البشرية كوكباً دُرِّيًّا وسراجاً منيراً.

أما بعد؛

فهذا هو القسم الثاني من كتاب "مجالس القرآن"، وهو القسم العملي لمشروعنا الدعوي. إنه محاولةٌ لِتَلَقِّي ما أذِنَ اللهُ فيه من رسالات القرآن، وما يسَّره من هُدَاهَا. وذلك من خلال تدارس آياتِه كلمةً كلمةً. وهو نموذج تطبيقي لما يمكن أن يكون أرضية للمتدارسين لكتاب الله تعالى بمجالس القرآن. أنجزنا منه ما يسر الله من مجالس سورة الفاتحة، وسورة الفرقان، وسورة يس، ثم سورة الحجرات. وقد قصدنا أن نجعل هذه السلسلة متضمنة لهذه السور الأربع بالذات؛ نظرا للأمور التالية:

فأما الفاتحة فهي الباب الأول لكتاب الله، مَوْقِعاً وتدبراً، وهي سورة الصلاة التي تصحب المؤمن ليله ونهاره، ثم هي صخرة المعراج الأولى الضرورية لكل من أراد التحليق في فضاء القرآن. ومن خلال مدارستها سيتبين لك أنها فعلا مما ينبغي للمؤمن الابتداء به تخلقا وتحققا، عند إرادة الدخول إلى عالم القرآن.

وأما سورة الفرقان – وهي تقع بأواسط القرآن - فقد تبين لنا أنها السورة المعرِّفة بالقرآن الكريم وبدعوته بامتياز! كأن الداخل إليها ينظر إلى قصر القرآن من وسطه، ويتجول في عمارته البديعة يمينا وشمالا! كما بيناه مفصلا بمقدمتها. كما أن التخرج بمدرستها الرفيعة كفيلٌ بتأهيل المؤمن لِتَلَقِّي رسالات القرآن، والسلوك بمنازل "عباد الرحمن"!

وأما سورة يس – وهي بوابة الربع الأخير من القرآن - فهي مدرسة الدعوة والداعية! إذ تضمنت من فقه الدعوة إلى الله وبيان منهاج السير إليه تعالى، قواعدَ رحمانية، ومعالم ربانية، لا حَقَّ لداعية إلى الله أن يكون جاهلا بها! ولذلك فهي جديرة بأن تكون سورة مركزية في التداول التربوي العام والخاص، ومقررا دراسيا بأقسام الدعوة الإسلامية بكل أصنافها ومستوياتها.

وأما سورة الحجرات – وهي تقف على باب الْمُفَصَّل - فهي دستور شامل لنظام الأخلاق الاجتماعية في الإسلام! الأخلاق بما هي خادمة للأصل الأول من

توحيد الله وتفريده. إنها تَنْفُذُ إلى أعماق النفس الإنسانية بمقارض التهذيب والتشذيب! لتستأصل الأنانيات البغيضة، وأمراض الفظاظة والكبرياء! إنها مدرسة ربانية، لا بد للمسلم - أنى كان - أن يتلقى رسالاتها واحدة واحدة، وإلا فشل في الاندماج بمحيطه الاجتماعي!

وأما منهاج هذه المدارسات – كما بيناه قبل مفصلا بالمدخل - فهو راجع إلى تَلَقِّي رسالات القرآن وبلاغها! ذلك أنا وجدنا دعوة محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم – إنما قامت على هذا المنهاج. وأن الدين - كل الدين - إنما هو دائر على تَلَقِّي رسالات الله والدخول تحت ابتلاءاتها تخلقا وتحققا! وعلى ذلك استمر الصحابة من بعده صلى الله عليه وسلم، وعليه سار خيار التابعين وكبار الأئمة المجددين عبر التاريخ! فلا عبادة لله إلا بتلقي رسالاته، ولا دعوة إلى الله إلا ببلاغ رسالاته، ولا تجديد لدين الله إلا بتجديد التلقي لرسالاته، ولا حياة إيمانية إلا بالتخلق بحقائقها في النفس وفي المجتمع! فماذا بقي بعد ذلك من الدين خارج رسالات القرآن؟

وإنما السعيد من أكرمه الله بالاشتغال بالقرآن الكريم، تلاوةً وتزكيةً وتعلما وتعليما! إذ ذلك هو مجمل وظائف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعلى رأسهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ!)(آل عمران:164). وتلك هي مَدَارَاتُ رسالات القرآن تَلَقِّياً وبلاغاً! فطوبى لِعُمُرٍ عَمَرَهُ صاحبُه بهذه المعاني العظيمة! وطوبى لعبد حمل هذه الرسالة الربانية؛ فكان بذلك من (أهل القرآن أهل الله وخاصته!)([1])

ولقد تهتُ زمنا طويلا في طريق البحث عن الحق في الشأن الدعوي على العموم، حتى مَنَّ الله بالْهُدَى! ولقد وجدتُ الهدى كل الهدى في كتاب الله! وبمجرد أن فتح الله بفضله البصيرة على القرآن اكتشفتُ أدواءَ نفسي المريضة! ففزعت من هول عللها الكثيرة وجروحها الغائرة! ووجدتُ أنني أنا المعني الأول بدعوة القرآن وأدويته! فطرقت باب الرحمن مستغيثا: رَبَّاهُ أنا المريض فداوني! فماذا أَعَلُّ من قلبي الكليل؟ ومن ذا أَهْلَكُ من نفسي المغرورة!؟

ثم وجدت أنه لا نور للمرء إلا بإشعال فتيل قلبه بمواجيد القرآن نبضا نبضا! على وِزَانِ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (شَيَّبَتْنِي هُودٌ وأخواتُها!)([2]) وأن من لم يكابد حقائق القرآن لهيباً يُحَرِّقُ باطن الإثم من نفسه فلا حظ له من نوره!

---

[1] حديث صحيح، رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: 2165.

[2] رواه الترمذي والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

ورأيت أن أول ما ينبغي أن أواجهه بهذه الدعوة هو كبرياء نفسي الخفي، وغرورها الباطن! وأن أول الطريق إلى الله هو تحقيق "العبدية" الخالصة له وحده جل علاه! وأن ما دون ذلك من المسالِك إنما هو مَحَالِكُ ومَهَالِك!

ووجدت أن تلميذ القرآن لا يكون "أستاذا" أو "زعيما" أبداً![3] فالقرآن العظيم كلام الله رب العالمين، وما كان للمتلقي الحق عنه إلا أن يكون عبداً! وإنها لنعمة عظمى أن يبقى المؤمن حياته كلها تلميذا بين يدي ربه الكريم تقدست أسماؤه! وذلك أول خُلُقِ سيدنا رسول الله، فقد قال عليه الصلاة والسلام: (آكُلُ كمَا يأكلُ العبدُ وأجلس كما يجلس العبدُ!)[4]

ووجدتُ هذه التجربة الروحية مؤلمة جدا! فقد كانت النفس مغرورة بترهات "علم الكلام الحركي!" وكانت حُجُبُهَا من ذلك كثيفة جدا، وكانت جراحاتها بسببه عميقة جدا! فما أصعب الانتقال بالنفس من "أَنَاهَا" إلى "فَنَاهَا"!

وما وَجَدَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - نجاتَه إلا في الاعتصام برسالات ربه بلاغاً! وهو صريح قوله تعالى: (قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ اللهِ وَرِسَالاَتِهِ! وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً!)(الجن: 22-23) فأدى بلاغَ كلمات ربه - جَلَّ جَلاَلُهُ - على أتم ما يكون البلاغ؛ استجابة لأمره العظيم: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالاَتِهِ! وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ!)(المائدة: 67) ومن هنا جاء الثناء الرباني الكريم نوراً خالداً يحلي الربانيين (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ! وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً!)[5]

وما أن أبصرتُ هذه الحقيقة الجميلة والمؤلمة في الوقت نفسه؛ حتى اكتشفت هول ما ضيعت من العمر خارج مدار رسالات القرآن! وحجم ما خسرت من السير خارج فَلَكِ نور الإيمان!

وشاهدت بعد ذلك معنى قول رسول الله عليه الصلاة والسلام في دعائه الكريم: (أسألك أن تجعل القرآنَ رَبِيعَ قلبي!)[6] والرَّبِيعُ في العربية: هو جدول الماء المتدفق على البطاح والسهول! فما أجمله وما أجَلَّهُ من دعاء! فأن يكون "القرآن ربيع القلب!" معناه: أن يكون القرآن هو نبع الماء الصافي المتدفق الرقراق، الذي

---

[3] المقصود هنا الأستاذية المنتفخة بداء الغرور! والزعامة المتورمة بمرض الكبرياء!

[4] رواه ابن سعد، وأبو يعلى، وابن حبان. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير والسلسة الصحيحة.

[5] الأحزاب: 39.

[6] مختصر من حديث رواه أحمد، وابن حبان، والحاكم، والطبراني، وابن أبي شيبة، وأبو يعلى. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: 3528.

يسقي الروحَ بنور الله! فماذا يبقى بعد ذلك بهذا القلب من الهم والغم؟ وماذا يبقى به من الدَّرَنِ والضلال؟ أو من الأوجاع والأدواء؟ ولذلك كانت تتمة الدعاء هكذا: (ونورَ صدري، وجلاءَ حزني، وذهابَ همي!)([7]).

ومن هنا لم يعد لنا من مورد في التلقي لرسالات الله سوى كتاب الله. وقد يسر الله أن صارت لنا مجالس مع القرآن الكريم في بعض المساجد، ومجالس أخرى مع بعض الأحبة من أشياخنا وإخوتنا في الله، ممن أكرمنا الله بمدارسة بعض سور القرآن وآيه بمعيتهم، فكانت هذه التقييدات التي يرجع الفضل فيها - بعد الله - إلى ما أكرمنا الله به من إشاراتهم وعباراتهم، فما كان مني إلا أن جمعت ما يسر الله جمعه في هذه الورقات من "رسالات القرآن"، حتى اكتمل هذا البريد الأول منها. فبعثنا به إلى كافة المؤمنين؛ عسى أن تعم حكمةُ القرآن العظيم، فتمسي سُرُجاً تنير طريق السالكين، وعسى أن يتم التنبيه على منهاجه الدعوي الكريم. فطوبى لمؤمن مخلص لله، أكرمه الله بحمل رسالات الله، أخذاً من كتاب الله؛ فأَحْسَنَ التَّلَقِّي وتَفَانَى في البَلاغ! ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله.

وأما طريقة عرض مادة هذه الرسالات فهي قائمة على المنهج التالي:

- **أولا: تقديم**

وذلك بتقديم السورة المقصودة بالمدارسة تقديما كليا، يلخص قضيتها، ويعرف بشخصيتها.

- **ثانيا: المجالس**

حيث يتم تقسيم السورة إلى مجموعة من "**المجالس**" مرقمة بشكل ترتيبي. وجعل كل "**مجلس**" مقتصرا على مجموعة من الآيات، مما يشكل وحدة متكاملة في ذاته من جهة؛ ومما يمكن استيعاب رسالاته في مجلس واحد من جهة أخرى، أي مما تطيق الفطرة البشرية تلقيه من الرسالات القرآنية والحقائق الإيمانية تخلقا وتحققا في مجلس واحد! على نحو ما كان ينزل من الآيات مُنَجَّماً - في عهد الرسالة - على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولذلك فقد كانت أغلب المجالس تتمحور مدارساتها على نحو خمس آيات أو سبع، أو ما يقارب هذه أو تلك. وربما اقتصر المجلس على مدارسة آية واحدة فقط! إذا تبين لنا أنها تحمل من

---

[7] والنص الكامل للحديث هو: عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أصابَ أحداً قطُّ هَمٌّ ولا حزنٌ فقال: "اللهم إني عَبْدُكَ وابْنُ عبدِك وابنُ أَمَتِكَ، ناصيتي بيدك، ماضٍ فِيَّ حكمُك، عَدْلٌ فِيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسْمٍ هو لك، سمَّيتَ به نَفْسَك، أو عَلَّمْتَهُ أحداً من خَلْقِك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك، أن تجعلَ القرآنَ رَبِيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حزني، وذهابَ همي!" إلاَّ أذهبَ اللهُ همَّه وحزنه، وأبدله مكانَه فَرَجاً! قال: فقيل: يا رسول الله ألا نتعلمها؟ فقال: "بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها!")

الرسالات ما يستلزم وقتا أطول لتلقي حقائقه الإيمانية! وذلك على حسب ما مَنَّ الله به من تلقي رسالاتها المنهاجية كَمّاً وكَيْفاً.

- ثالثا: كلمات الابتلاء

وقد سمينا مجموع الآيات التي هي موضوع الدرس: **"كلمات الابتلاء"**؛ باعتبار أن القرآن الكريم كلام الله، وأن آياته من "كلماته" جل علاه، بما لهذا اللفظ في القرآن من عمق دلالي يرتبط بمعاني السَّعة والشمول من جهة، كما هو واضح من مثل قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ!)(لقمان:27). وقوله سبحانه: (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا!)(الكهف:109).

ثم بما لعبارة "الكلمات" – من جهة أخرى - من ارتباط بحقائق الابتلاء للإنسان المتلقي لها! "فكلمات الله" المنزلة هي حقائق الابتلاء، ومعاني التكليف التعبدي بهذا الدين، في العقائد والعبادات والتصرفات؛ ومن هنا كانت مقتضياتها ثقيلة: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً!)(المزمل:5) وعلى هذا جاء قول الله تعالى في محكم كتابه: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ. قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِيَ الظَّالِمِينَ!)(البقرة: 124)، وقوله سبحانه: (فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)(البقرة: 37). فقد كانت الكلمات التي تلقاها إبراهيم عليه السلام هي الابتلاءات الإيمانية التي امتُحن بها وكان من الفائزين الكُمَّل! كما كانت الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام هي عبارات التوبة وحقائقها الوجدانية؛ فكان من المسارعين إلى ربه تائبا إليه منيبا! ومن هنا كان القرآن كله "كلمات" أي آيات للعمل والتطبيق، وحقائق للابتلاء والتكليف! لا مجرد كلام للقص أو التأريخ! بل هو عمل وامتحان! والناس إزاءه بين مُتِمٍّ لكلماته أو مُقَارِبٍ أو خَائِنٍ! إذ كل كلمة من كلمات الله إنما تُتَلَقَّى رسالتُها من هذا القرآن، من خلال الدخول في ابتلاءاتها تخلقا وتحققا. ولا يتم ذلك للنفس إلا بمكابدة ومجاهدة! ومن هنا ثقل الابتلاء التربوي بهذا القرآن!

وقد كابد الرسول - صلى الله عليه وسلم - تلقي القرآن خلال ثلاث وعشرين سنة! وكابد معه أصحابه - رضوان الله عليهم - مكابدة؛ حتى تحققوا من "مَعِيَّتِهِ الإيمانية" - صلى الله عليه وسلم - خُلُقاً ربانيا رفيعا! وبهذه السيماء مدحهم الله تعالى وأثنى عليهم في القرآن، فقال تعالى: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ!)(الفتح: 29)

فلم يكن القرآن في حياة الرسول وصحبه مجرد مرجع قانوني، ولا مجرد توثيق للأخبار والحقائق التاريخية، ولا مجرد قص لإشباع فضول المعرفة البشرية! كلا!

كلا! بل كان كتابَ الله الكامل الشامل، الحامل رسالاته إلى الناس أجمعين؛ ابتلاءً لهم بحقائقها قولا وعملا، ومنهاجَ حياة يسلكونه في الأرض، على مستوى كل نفس في نفسها خاصة، وعلى مستوى الاجتماع العمراني البشري عامة، على سبيل التعبد، توحيدا وتفريدا لله الواحد القهار! ودون ذلك ما دونه من ثقل الأمانة وشدة وقعها على النفس! ومن ثَمَّ لم يكن من السهل على الإنسان أن يتلقى رسالات هذا القرآن جملة واحدة! بل كان من رحمة الله بالعباد أن نزَّله عليهم عبر رسالات تترى، الواحدة تلو الأخرى، آيات آيات. (وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً!)(الإسراء: 106) (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً!)(الفرقان: 32) وذلك حتى يكون لكل كلمة أثرها الفعلي في الأرض، على مستوى الممارسة البشرية والتنفيذ التعبدي! وهو معنى "الكلمات". فمن استجاب لابتلائها كانت له صِفَةً وخُلُقاً، ومن خانها لم يكن منها ولا كانت منه في شيء! وعلى هذا المعنى جاء قولُ عائشة - رضي الله عنها - في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كانَ خُلُقُهُ القرآن!)([8]). وبذلك المنهاج الرباني العظيم تم بناء المجتمع الإسلامي الأول، على عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ذلك هو القرآن وتلك هي كلماته! ومن رام الاشتغال بدعوته خارج هذه الحقيقة المنهاجية العظمى فقد رام المحال!

- رابعا: البيان العام

بعد عرض كلمات المجلس للتلاوة والتدبر، نورد خلاصة تفسيرية تحت عنوان: **"البيان العام"**. والمقصود بالبيان العام ههنا: عرض خلاصة ما قاله المفسرون في الآيات موضوع الدرس، وما مَنَّ الله به إزاءها من معان. وذلك بمنهج يرمي إلى التلخيص والتيسير، دون الإغراق في الجدل الكلامي أو الاستطراد اللغوي أو التفريع الفقهي، إلا ما دعت إليه ضرورة البيان؛ إذ الهدف إنما هو تلقي الحقائق الإيمانية والرسالات القرآنية قصد تيسير العمل بها.

- خامسا: الهدى المنهاجي

إذا تم ذلك انتقلنا إلى عرض ما يسر الله تَلَقِّيهِ من الْهُدَى الوارد في تلك الآيات. وذلك من خلال تخصيص فقرة من تصميم الدراسة تحت عنوان: **"الْهُدَى المنهاجي"**([9]). والمقصود بالهدى المنهاجي: هو ما تحصل للقلب من الكلمات

---

[8] رواه مسلم.

[9] هو من اصطلاح أستاذنا – وأستاذ الأجيال - الدكتور الشاهد البوشيخي، رائد المدرسة القرآنية بالمغرب تعليماً ودعوةً. ولقد وجب التنويه برد الفضل إلى أهله، وذلك ببيان أن هذه المدارَسات مدينةٌ – بعد الله تعالى - إلى فضيلته، فلقد مَنَّ الله بصحبته زمنا ليس باليسير، حيث تلقينا عنه - خلال ذلك - منهج التعامل مع القرآن الكريم، ومفاتح الدخول إلى فضائه

المتلوة أعلاه - بعد التدبر - من رسالات منهاجية، توضح خطوات السير القلبي إلى الله دينا ودعوة، تعرفا إليه وتعريفا به تعالى، وتبين مسلك بناء الشخصية الإسلامية في كل ما يلزمها من معانٍ تعبدية وعمرانية، مما جاء هذا القرآن لبنائه في الإنسان فردا وجماعةً، في طريق إخراج الأمة المسلمة. ومن هنا فإننا نعمد إلى تقسيم حقائق "الهدى المنهاجي" إلى مجموعة من **"الرسالات"**، نعرضها الواحدة تلو الآخرى تحت عناوين مستقلة؛ تيسيرا أيضا لتلقي أحكامها وحِكَمِهَا. فكل رسالة تشكل في نفسها ابتلاء عمليا، أو خطوة إيمانية من خطوات إصلاح النفس، ومدرجا من مدارج الترقي بمعارج القرآن، سيرا إلى الله تعالى رَغَباً ورَهَباً([10]).

- **سادسا: مَسْلَكُ التَّخَلُّق**

ثم نُعَرِّجُ في آخر كل مجلس على بيان المسلك العملي للدخول في تلك الحقائق الإيمانية جميعا، والمنهاج التطبيقي الميسر الذي يُمَكِّنُ القلب من التخلق بما تَلَقَّى من رسالات الهدى. فجعلنا ذلك بعد - عرض "الرسالات" - في فقرة خاصة، تحت عنوان: **"مَسْلَك التخلق"**. وهكذا نمضي حتى نهاية السورة.

- **سابعا: خاتمة**

حتى إذا كان المجلس الخاتم جعلنا بعده مباشرة **"خاتمة"**، ترجع على أهم حقائق السورة المدروسة بالتذكير، مع النظر في علاقتها بالنفس تحقيقا وتقويما.

وبهذا وذاك نرجو أن يتم للمؤمن " تَلَقِّي" حقائق القرآن. وقد سبق لنا تفصيل منهج التلقي لكتاب الله، عرضناه بمحله([11]). إذ التلقي للآيات هو غير التلاوة التبركية العامة، بل هو أعمق من ذلك! إنه تفاعل وجداني مع حقائقها الإيمانية، ودخول فعلي تحت ابتلاءاتها الربانية! بما يُخْضِعُ النفسَ لمشارطها ومقارضها تشذيبا وتهذيبا! فهي بذلك إذن تَخضع لعمليات جراحية روحية، تستأصل زوائد الأمراض وخبائثها من أعماق القلب؛ تخليصا له من أهوائه الضالة وعاداته الفاسدة! عسى أن يخرج بذلك عن داعية هواه، فيكون عبدا خالصا لله!

ومن هنا فمَنْ تحقق بتلقي كلمات الله من القرآن؛ فقد تحقق بأهم مفتاح من مفاتح القرآن! وإنما يُنال ذلك كله بشرطين، أولهما: الصبر على المكابدة، وثانيهما: إخلاص قصد السير إلى الله! وإنه ليسير على من يسره الله له وأكرمه بِهُدَاه! (ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ!)(الحديد: 21).

الفسيح. وكانت لنا معه مدارسات لا تنسى، ومجالس مباركة، سواء في أقسام الدراسات العليا، أو في مجالسه الخاصة. حيث تلقينا عنه أصول المنهج وقواعده، نظريةً وتطبيقاً. فله من الله الجزاء الأوفى، وجعله من أهله وخاصته، وبارك له في علمه وعمله.

[10] إيرادنا للرسالات المستنبطة من الهدى المنهاجي لا يعني الحصر طبعا! بل استنباط المزيد من رسالات الهدى بابه مفتوح إلى يوم القيامة؛ لأن كلمات الله – جل جلاله - لا يحدها حد!

[11] ن. (الخطوات المنهجية الثلاث لتدارس القرآن) بالمدخل.

(رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ!)(البقرة: 286)

اللَّهُمَّ مغفرتُك أوسعُ من ذنوبي، ورحمتُك أَرْجَى عندي من عملي!

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سورة الفاتحة

"مكية وعدد آياتها: 7"

وهي تتضمن خمسة مجالس

تقديم

-1-

هذا القرآن هو الكتاب!

إن أعظم حقيقة في هذا القرآن هي أنه كلام الله!

وكفى بها حقيقة وجودية كبرى تملأ القلبَ رَهَباً!

كلام الله!.. وما أدراك ما كلام الله! قال جَلَّ جَلاَلُهُ: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ! ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ!)(التوبة:6)

اللهُ - جَلَّ جَلاَلُهُ - رب العالمين، خالق السماوات والأرضين، مالك الملك والملكوت، الحي الذي لا يموت، مبدع هذا الوجود كله، غيبه وشهادته، رب الخليقة كلها، إنسها وجنها وأملاكها، وما دون هذه وتلك من كائنات ومخلوقات، مما لا يحصره عد ولا يحيط به خيال! هذا الرب العظيم خالق كل شيء، هو سبحانه يتكلم بهذا القرآن من فوق سبع سماوات! ثم يرسله إلى الإنسان في الأرض وحيا منه تعالى!.. ألا إنه لنبأ عظيم! وإنه لتنتصب بين أيدينا ههنا حقيقتان كبيرتان، لا يحيط بهما عقلٌ ولا يطيقهما وجدان!

أما الحقيقة الأولى: فهي في تَلَقِّي كلام الله نفسه! فعندما تدخل القلوبُ عالَمَ القرآن تاليةً لآياته، ومتلقيةً لرسالاتِه، وتدرك أن المتكلم به إنما هو الله، تنبهر بهذه الحقيقة الكبرى! وتنفتح لبصائرها أبوابُ القرآن مشاهدات من نور، تهبها معرفة رفيعة بالله! فلا تملك آنئذ إلا السجود خاضعة بين يديه جَلَّ جَلاَلُهُ! (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ

تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا! وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً. وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا!)(الإسراء: 107-109). وكيف لا؟ وها هم أولاء يرون هذا الوجود العظيم حولهم، من ذراته إلى مجراته، إلى ما فوق ذلك من طبقات سماواته، يمتد بِسَعَتِهِ وعجائبه إلى ما لا يحيط به خيال! ثم يجري الفكر عبثا في محاولة تتبع امتداداته، يجري ويجري.. حتى تنقطع أنفاسُه ثم لا يدرك مداه! ويبقى لاهثا ما بين عَالَمَيْ الغيب الشهادة، لا يدري لفهم هذا الوجود مفتاحاً! لا كيف مبتدؤه ولا كيف منتهاه! ولا عن مصيره أَنَّى مُرْسَاه! ثم يُؤخذ بعد ذلك بهذا القرآن ليتلقى أسرار الحقائق، وحيا من رب هذه العوالم جميعا! الله أكبر! أوليس ذلك مما يملأ القلبَ رَهَباً؟ وإنه لا يستهين بذلك إلا جاهل بالله! (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ!)(الزُّمَر : 67/39)

وأما الحقيقة الثانية: فهي تكريم الله للإنسانية بكلامه! وإنه لتكريم وأي تكريم! فالله جل جلاله وهو خالق كل شيء، الملك العظيم، الذي لا يحيط بوصفه الواصفون سبحانه! ولا يحصي أحدٌ ثناءً عليه، بل هو تعالى كما أثنى على نفسه! هذا الملك العظيم ذو الجلال، يتكرم بفضله وإحسانه؛ فيتكلم إلى هذا المخلوق الضعيف، الإنسان! هذا العبد القابع في كوكب الأرض، الكوكب الذي لا يساوي مقدار ذرة صغيرة في عالم الملك والملكوت! فيجعل له ربُّه صلةً به تعالى، صلة ترفعه وتعليه إلى المقام الأعلى، رحمةً منه تعالى وفضلا! وما كان للإنسان أن ينال شيئا من ذلك لولا تكريم الله له بكلامه، قرآنا عربيا يتلى على ألسنة بني آدم! وكلاما رحمانيا سَلْساً مُيَسَّراً! وصدق ابن عباس رضي الله عنهما عندما قال: (لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل!)([12])

ثم إنه لعجيب عجيب! أن يكون بين يدي الإنسان كتابٌ هو كلام الله رب العالمين! كلام فيه من أسرار الربوبية ما يزلزل كيان الإنسان! ويكشف عن أعماق فطرته، ولو توارت في ظلماتها تحت طبقات الشرك والضلال! وقد سبق قوله تعالى في هذا التحدي العجيب: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ!)(سُورَةُ التَّوْبَةِ : 6/9)

ثم بعد هذا وذاك، تتفرد هذه الأمة من دون العالمين بحيازتها لهذا الكتاب! الكتاب الذي هو وحده الآن في الأرض - كل الأرض - كلام الله! فأي رفعة هذه وأي خصوص! ولا وثيقة دون هذا القرآن يستطيع أصحابها إثبات شيء من ذلك!

[12] تفسير ابن كثير: 337/4.

فلم يبقى شيء سواه يحقق الصلة الحقيقية بين الإنسان ورب العالمين، تَعَرُّفاً وعبادةً!

ذلك هو هذا القرآن، كلام الله!.. فما أَجَلَّهَا من حقيقة وأعظمها!

وهو - بعد هذا وذاك – كِتَابٌ، بل هو "الكتاب"! لأن له كمالا بنائيا في ذاته شكلا ومضمونا، بما يجعله أكمل كتاب. وهو مكتوب في صورتين: الأولى عند الله تعالى في سجل الغيب باللوح المحفوظ: (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)(البروج: 21-22). والثانية هي التي عند الناس في المصاحف. وهي نسخة مطابقة للأصل على التمام والكمال! وهي مضمونة الحفظ في الأرض أيضا، تماما كما هي في السماء! (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)(الحِجْر: 9).

والكتاب الذي في اللوح المحفوظ في علاقته بالإنسان، أي من حيث هو وحي تَنَزَّلَ عليه في الزمان - بإذن الله - له قصة عجيبة جداً! تجعل المؤمن يزداد انبهارا بهذا القرآن، بما لا يبقى له في وجدانه قوة لاحتضان تدفق أنواره، إلا أن يخر على الأرض صَعِقاً! وبيان ذلك هو كما يلي:

لقد ذهب بعض العلماء إلى أن الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام - ممن بُعِثُوا قبل سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - إنما أوتوا بعض الكتاب الذي في اللوح المحفوظ، وليس كل الكتاب. وأن هذا النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام، هو وحده الذي أوتي كل الكتاب! وأن أمته – صلى الله عليه وسلم - هي التي جمع الله لها الكتاب الكامل الذي في السماء. بينما لم تؤتَ الأممُ السابقة إلا (نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ)، على ما اقتضته الحكمة الإلهية من إعطاء كل أمة من العلم والحكمة على قدر حاجتها، إنسانا وزمانا ومكانا. ولذلك لم يكن إكمال إنزال الكتاب من اللوح المحفوظ إلى الأرض، إلا مع هذا النبي الخاتم محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام - لتكون دعوتُه بذلك عالميةً إلى الناس كافة، ومستمرة إلى يوم الدين! مما لم تتسم به دعوة قبلها في التاريخ، فكان ذلك من خصائصه عليه الصلاة والسلام([13]).

واستدلوا على ذلك بأدلة من كتاب الله وسنة رسول الله، بعضها ظاهر الدلالة على ذلك بقوة. منها قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ!)(آل عمران:23). وقوله سبحانه: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ

---

[13] قال عليه الصلاة والسلام: (أُعْطِيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرةَ شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدا و طهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل! وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي! وأعطيت الشفاعة! وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة!) متفق عليه.

وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ!)(النساء: 44) فإنما هم أصحاب (نصيب من الكتاب). والقرآن هو "الكتاب"! هكذا بهذا الاستغراق الكلي الشامل المهيمن! وقد ورد ما يُشْعِرُ بهذه المقارنة اللطيفة في قوله جلَّ جلالُه، بعد ذكر الكتب السابقة: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ!)(المائدة: 48) فجعل القرآن هو (الكتاب) وجعل ما بين يديه (من الكتاب). ولذلك جعل الكلي مهيمنا على الجزئي!

ومن هنا يكون ما ورد في القرآن والسنة من نسبة اليهود والنصارى إلى "الكتاب"، هكذا بعمومه، حيث وُصِفُوا في غير موطن بأنهم: (أهل الكتاب)، هو من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء.

ومن تأمل موارد النصوص القرآنية والحديثية، المتحدثة - في مساقات مختلفة - عن التوراة والزبور والإنجيل والقرآن، ظهر له هذا واضحا. وظهر له أن الكتب السابقة لم تكن – حتى من حيث الحجم - بِقَدْرِ القرآن سعةً، بل كانت أقل منه بكثير!

وقد نص النبي - صلى الله عليه وسلم - على ذلك نَصّاً فيما يتعلق بالزبور، وسماه قرآناً؛ لأن أصل الكتب كلها واحد، وهو كلام الله المكتوب في اللوح المحفوظ، قال عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه البخاري: (خُفِّفَ على دَاوُدَ القرآنُ؛ فكان يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجَ، فَيَقْرَأُ القرآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّهُ!)([14]) فواضح جدا أن الزبور لم يكن يتعدى في الغالب حجم بضع سور من "المئين"، كما ستأتي الإشارة إليه في حديث آخر.

ولم تكن التوراة بأكبر من ذلك بكثير. فهي لا تتعدى في مجملها حجم السبع الطوال ذاتها من القرآن الكريم، كما سيأتي بيانه. ولذلك فقد جمعها الله لموسى عليه السلام في بضعة ألواح حملها في يده! ولو كانت مثل حجم القرآن لاحتاج عليه السلام في نقلها - وهي في الألواح - إلى حمل بعير! وواضح من حركته بها وهي في يده أنها لم تكن كثيرة، ومن تدبر كيف ألقاها ساعة الغضب - عندما عَايَنَ ما انحرف إليه بنو إسرائيل من عبادة العجل بعده – أدرك أنها كما وصفنا. قال الله تعالى: (وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ!)(الأعراف: 150) وقد نص الحديث الشريف على أنه كان إلقاءً شديداً أدى إلى انكسارها! وهو قوله صلى الله عليه وسلم: (ليس الْخَبَرُ كالْمُعَايَنَةِ: إنَّ الله تعالى أخبر موسى بما صَنَعَ قومُه في العِجْلِ، فلم يُلْقِ الألواحَ. فلما عَايَنَ ما صَنَعُوا أَلْقَى الألواحَ؛ فَانْكَسَرَتْ!)([15])

---

[14] أخرجه البخاري.

[15] أخرجه أحمد، والطبراني في الأوسط، والحاكم، عن ابن عباس مرفوعا. وصححه الألباني: حديث رقم: 5374 في صحيح الجامع.

وفي حديثٍ آخرَ صحيحٍ دلالةٌ ظاهرةٌ جداً، على استيعاب القرآن الكريم لكل الكتب السابقة، توراةً وزبوراً وإنجيلاً! بل إنه قد فَضُلَ عليها بما ليس فيها جميعِها! فعن وَاثِلَةَ رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ الطِّوَالَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ!)(16) وهذا ظاهر في استعياب القرآن لكل الكتب السابقة مضموناً وحجماً!(17)

قال الإمام القرطبي: (إن التوراة والإنجيل يشهدان بصحته، ويستغرق ما فيهما، ويزيد عليهما ما ليس فيهما.)([18]) وقال ابن كثير: (فهو أمين، وشاهد، وحاكم على كل كتاب قبله! جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخرَ الكتب، وخاتمها، وأشملها، وأعظمها، وأكملها. حيث جمع فيه محاسن ما قبله من الكمالات ما ليس في غيره. فلهذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها! وتكفل تعالى حفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"))([19])
فمن أراد أن يقرأ التوراة الحق فهي في القرآن! ومن أراد أن يقرأ الزبور الحق فهو في القرآن! ومن أراد أن يقرأ الإنجيل الحق فهو في القرآن! ومن أراد أن يقرأ القرآن كاملا فهو في القرآن! فالقرآن هو "الكتاب" بشموليته الاستغراقية، كما تشير إليه الآية الأولى من سورة البقرة من قوله تعالى: (اَلَـمِ. ذَلِكَ الْكِتَابُ!)(البقرة:2). وهو "القرآن العظيم" الممنون به خصوصا – مع السبع المثاني وهي منه - على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ!)(الحجر: 87).

وقد تواترت النصوص على العموم في تفرد القرآن الكريم بآيات وسور، مما لم ينزل قط على نبي من الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم! كما هو الشأن في سورة الفاتحة وأواخر سورة البقرة([20])، وكثير من السور والآيات الأُخَر، مما هو مضمن في المفصل وغيره.

---

[16] أخرجه أحمد في مسنده، والطبراني في الكبير، والبيهقي في شعبه. وصححه الألباني في صحيح الجامع، بينما حسنه في السلسلة الصحيحة. وحسنه أيضا الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

[17] لا حجة في أحجام "الكتب المقدسة" الموجودة الآن؛ لأنها مليئة بالزيادة والتحريف!

[18] جامع القرطبي: 203/1.

[19] تفسير ابن كثير: 66/2. طبعة دار الفكر بيروت: 1401هـ.

[20] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أُعْطِيتُ هذه الآيات من آخر سورة البقرة؛ من كنز تحت العرش، لم يعطها نبي قبلي!) رواه أحمد والطبراني والبيهقي عن حذيفة، ورواه أحمد عن أبي ذر. وصححه الألباني. انظر حديث رقم: 1060. في صحيح الجامع. وستأتي أدلة أخرى على الفاتحة وغيرها في السياق أعلاه.

فالقرآن إذن هو الكتاب الكامل. كتابٌ بما لكلمة "كتاب" من معنى جامع مانع، بِنَاءً وتنظيماً وترتيباً وقراءةً. قال تعالى: (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ! إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ!)(القيامة: 16-18). ومعنى "جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ" كما عند البخاري في صحيحه: "الجمع والتأليف". قال رحمه الله نقلا عن بعض السلف: (سُمِّيَ القرآنُ لجماعةِ السُّوَرِ، وسُمِّيتِ السورةُ لأنها مقطوعة من الأخرى. فَلَمَّا قُرِنَ بعضها إلى بعضٍ سُمِّيَ قرآناً (...) وقوله تعالى: "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ": تَأْلِيفَ بَعْضِهِ إِلَى بَعْضٍ. "فإذا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ": فَإِذَا جَمَعْنَاهُ وَأَلَّفْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، أي: مَا جُمِعَ فِيهِ.)([21]) وصرح الإمام الطبري في تفسيره بنقل مثل ذلك عن قتادة، أي أنَّ معنى ("جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ" قَالَ: حِفْظَهُ وَتَأْلِيفَهُ.)([22])

إنه إذن كتاب له فصول على طريقته، وله أقسام على منهاجه، وله مقدمةٌ وخاتمةٌ على وِزَانِه. وهو ليس على أشكال الكتب، ولكنه هو "الكتاب"، كتاب الله رب العالمين! وحديثُ وَاثِلَة - رضي الله عنه - المذكور قبل، واضح في هذا التقسيم المتكامل والتبويب العجيب. فالقسم الأول: هو السَّبْعُ الطِّوَالُ، وهي من سورة البقرة إلى سورة الأعراف. والقسم الثاني: هو المئون، وهي السور التي يبلغ عدد آياتها مائة، وقد تزيد أو تنقص قليلاً. والقسم الثالث: هو المثاني، وهي السور التي تنقص عن المئين عددا، وتُثَنَّى بها سورُ المئين، أي تأتي خلالها على التثنية والتعاقب. والقسم الرابع والأخير: هو المُفَصَّلُ، وهو يبتدئ بسورة الحجرات – أو بسورة "ق" على خلاف - إلى آخر المصحف. والعجيب أن هذا الكتاب له "مقدمة" هي الفاتحة. وله "خاتمة" وِتْرِيَّةٌ، في ثلاث سور قصيرة، هي: الإخلاص والمُعَوِّذَتَان! ولذلك فقد ورد الندب - في السنة - إلى قراءتها، هكذا ثلاثتها مجتمعة في غير ما مناسبة، حتى لكأنها سورة واحدة([23]).

ذلك هو "الكتاب"، الكتاب الذي لم ينـزل قَبْلَهُ ولاَ بَعْدَهُ كتابٌ يدانيه جلالةً وعظمةً وقَدْراً! ومن هنا كان الدخول إلى عالم القرآن الكريم له جَلاَلٌ خاص! من شاهد أنوارَه ببصيرةِ الإيمانِ عَنْ بُعْدٍ دَخَلَ متأنيا متهيباً، وطَرَقَ الأبوابَ مُسْتَأْذِناً مُتَعَبِّداً، ثم قرأ مُتدبراً، فَانْقَدَحَتْ له مصابيحُ الهُدَى شَلاَّلاَتٍ من نور! فاغترف منها

---

[21] صحيح البخاري كتاب التفسير. وقد أورد البخاري ذلك في "باب تفسير سورة النور"، لا في "القيامة".

[22] تفسير الطبري: 189/29.

[23] منها قوله صلى الله عليه وسلم. (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، وَالمُعَوِّذَتَيْنِ، حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ؛ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ!) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وغير هذا في السنة الصحيحة كثير. وفي صحيح البخاري وغيره: (أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: "قل هو الله أحد"، و"قل أعوذ برب الفلق"، و"قل أعوذ برب الناس". ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده. يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده. يفعل ذلك ثلاث مرات.)

ما اغترف، على قَدْرِ قُوَّةِ روحِه وسَعَةِ وجدانه! ومن لم يشاهد شيئا فإنما هو دخل وخرج! لأن بصائر القرآن لا تنفتح أسرارُها إلا لأهلِ اللهِ وخَاصَّتِهِ![24] وإنما "أهلُهُ وخَاصَّتُهُ": هم الذين أقبلوا على كتابه تعالى، يطرقون بابَه الكريم، بصدق المُتَعَبِّدِينَ الْخُشَّعِ، والمتذلِّلِينَ الرُّكَّعِ، القائمين بين يديه تعالى!

-2-
الفاتحة باب القرآن

و"فاتحة الكتاب" هي باب القرآن الأول. هي "فاتحة" نعم، ولكنها ليست كأي فاتحة! فإذا كان مِنْ وظائفِ المقدماتِ والفواتحِ تقديمُ مضمونِ الكتاب للناس، على سبيل العرض الإجمالي، فإنَّ الله – جلَّ جلالُه - قد ثَـنَى القرآنَ كلَّه ثَنْياً في سورة الفاتحة! وإنما هي سبع آيات! بما بهر القلوب بقوة نوره! وأعجز العقول عن إدراك سره! فلذلك سماها تعالى "السَّبْعَ الْمَثَانِي"! وبذلك أيضا كانت هي "أم القرآن"، و"أم الكتاب"! وكانت مفروضة التلاوةِ في كل ركعة من كل صلاة، فريضةً كانت أم نافلة! لا تصح صلاةٌ إلا بها! قال صلى الله عليه وسلم: (من صلى صلاةً لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِدَاجٌ! فهي خِدَاجٌ! فهي خِدَاجٌ! غَيْرُ تَمَامٍ!)[25] والْخِدَاجُ: النقصان والفساد واللغو. وقال عليه الصلاة والسلام جازما: (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب!)[26]

ويكفي سورةَ الفاتحةِ قدراً وعظمةً أنها هي التي امتن الله بها على خليله المصطفى محمد - صلى الله عليه وسلم - في قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ!)(الحجر:87). فجعلها في سياق الْمَنِّ مُوَازِيَةً لكل القرآن العظيم؛ بما ثَنَى فيها من جميع حقائق القرآن! حتى لكأنها هي كل القرآن! وقد صَرَّحَ النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - ببيان ذلك فقال: (أم القرآن هي: السبع المثاني والقرآن العظيم!)[27]. وقال عليه الصلاة والسلام: ("الحمد لله رب العالمين": أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني!)[28] ومثله قوله صلى الله عليه وسلم: ("الحمد

---

[24] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لله تعالى أهلين من الناس: أهل القرآن، هم أهل الله وخاصته!) أخرجه أحمد، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، عن أنس مرفوعا. وصححه الألباني، حديث رقم : 2165. في صحيح الجامع.

[25] أخرجه مسلم.

[26] متفق عليه.

[27] أخرجه البخاري.

[28] أحرجه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة مرفوعا. وصححه الألباني. حديث رقم : 3184 في صحيح الجامع.

لله رب العالمين" هي: السبع المثاني الذي أوتيته والقرآن العظيم!)([29]) وعن أُبَيٍّ - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (السبع المثاني: فاتحة الكتاب!)([30]) والأحاديث الصحيحة في ذلك كما ترى كثيرة وفيرة!

ومن هنا فالفاتحة باب ليس كأي باب! إنها تنفتح بك مباشرة على الملأ الأعلى! وتنطلق بك في سياحة روحية كبرى في عالم المُلْكِ والملكوت! وتتدفق منها على مواجيدك المشاهداتُ تَتْرَى! أليس القرآن هو الكتاب الجامع لكل الكتب؟ والكتاب المهيمن على كل الكتب؟ ثم أليس الفاتحة هي أم ذلك الكتاب الجامع والمهيمن؟ فأي مُلْكٍ تنفتح عليه هذه الآيات العظيماتُ وأي ملكوت؟! ذلك ما لا سبيل إلى حده بعبارة! ولا إلى وصفه بإشارة! فلا يملك الداخل عبر كلماتها إلى عوالم القرآن، إلا أن يَخِرَّ راكعاً لله رب العالمين! وإنما يكفيني مؤونة البيان العاجز، أن أحتمي ببيان رسول الله - صلى الله عليه وسلم – أعلم الخلق بالله وبكتابه! قال سيدي مُقْسِماً بخالقه العظيم على التفرد المطلق للفاتحة عن كل الكتاب! وعلى ما تكتنز به اختصاصاً من أسرار اللوح المحفوظ وأنواره! فَاسْتَمِعْ وأبْصِرْ ثم تَدَبَّرْ: (والذي نفسي بيده! ما أُنْزِلَ في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها! وإنها لسبعٌ من المثاني والقرآنُ العظيم الذي أُعْطِيتُهُ!)([31]).

ذلك لأنها معراج الروح الأبدي إلى الله، بما هو جلَّ جلالُه رَبُّ العالمين، كُلِّ العالمين! فأي باب هذا أم أي طريق؟ ذلك سر من أسرار جَعْلِهَا هي الصلاة! وجعلها مَنَاطَ الصِّلَةِ اليومية بالله لملايير المسلمين إلى يوم الدين! ثم جعلها مقسومةً بين الرب الكريم وبين عبده المطيع نصفين، حَمْداً وعَطَاءً مُتَبَادَلَيْنِ، لا ينتهيان أبداً! فمن ذا يَشِذُّ عن مدارها الجميل شارداً عن الله، إلا ضَالٌّ مَكِينٌ وخَاسِرٌ مُبِين! ذلك بيان سيدي المصطفى عليه الصلاة والسلام، في إضافةٍ نوريةٍ على شعاع الحديث السابق، قال: (ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثلُ أم القرآن! وهي السبع المثاني. وهي مقسومة بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل!)([32])

وإن لتنزيل سورة الفاتحة على محمد - صلى الله عليه وسلم - مع خواتيم البقرة، لَقِصَّةً وأي قصة! أخرج مسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال: (بينما جبريلُ قاعدٌ عند النبي - صلى الله عليه وسلم - سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه،

---

[29] أخرجه البخاري.

[30] أخرجه الحاكم. وصححه الألباني، حديث رقم: 3681 في صحيح الجامع.

[31] رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة مرفوعا. وصححه الألباني. انظر حديث رقم: 7079 في صحيح الجامع.

[32] أخرجه الترمذي والنسائي عن أُبَيٍّ مرفوعا. وصححه الألباني. حديث رقم: 5560 في صحيح الجامع.

فقال: هذا بابٌ من السماء فُتح اليوم، ولم يُفتح قط إلا اليوم! فنـزل منه مَلَكٌ فقال: هذا مَلَكٌ نـزلَ إلى الأرض، لم ينـزل قط إلا اليوم! فسَلَّمَ وقال: أبشر بنورين أُوتِيتَهُمَا لم يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ! فاتحةُ الكتاب! وخواتيمُ سورة البقرة! لن تَقْرَأَ بِحَرْفٍ منهما إلاَّ أُعْطِيتَهُ!)[33] يعني مما ورد فيهما من الذِّكْرِ والدُّعَاءِ، طَلَباً طَلَباً! ورَغَباً رَغَباً! فأي خسران تحصده الأمة اليوم، وأي غبن تجنيه؛ إذْ فرَّطتْ في هذا الكنـز العظيم!

فيا نفسي الجهولة المغبونة! أَوَتَدْرِينَ ماذا تخسرين!؟ وكم تخسرين!؟ حينما تستفتحين الصلاة بقلبٍ شاردٍ عن مشاهدات الجمال والجلال، وأنتِ قائمةٌ بمحاريب السبع المثاني؟! فواحسرتاه واحسرتاه! على عمر ضاع في متاهات الشرود! وواحسرتاه واحسرتاه! على نَزَقٍ تلطخ بأوساخ الذنوب! والفاتحة بين يديك الآن تتدفق بكوثر الرحمة والغفران، ولا أنتَ يا قلبي الكليل تتعرض لربيعها! ألا يا أيها القلبُ اللاَّهِثُ عَطَشاً! تركض في متاهات الضلال بين جفافٍ وجفافٍ! ألم تتعب بعد من تلبيسات الشيطان؟! عجباً لمن يداوي العذاب بعذاب! ومن يتقي الرَّمْضَاءَ بلهيب! فيا أيها الفتى اليائس المريض! هذا بحرُ القرآن العذبُ الفراتُ، أمْوَاجُهُ لَكَ مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ! فَادْخُلْ بصدرِكَ في عُبَابِهِ الثَّجَّاجِ، وَاشْرَبْ!

-3-

الفاتحة هي الصلاة!

الدين هو العبادة، والعبادة هي الصلاة، والصلاة هي الدعاء، والقرآن لسانها، والفاتحة خلاصته!

ولقد تبين أن ذلك كله في سورة الفاتحة. ثم إن المصطفى - صلى الله عليه وسلم – قد قرر في الحديث الصحيح أن : (الدعاء هو العبادة!)[34] فجمع بذلك كل ما بيناه! ثم آل الأمر إلى أن جوهر سورة الفاتحة "صلاة"، بما تتضمن كلمة "صلاة" من معاني التَّسْبِيحِ والدُّعَاءِ! ومن جامعية كلية شاملة لمعنى الدين كل الدين!

فالفاتحة إذن هي: الصلاة! تلك هي شخصيتها وتلك هي طبيعتها. تماما كما سماها الله - جَلَّ جَلالُهُ - في الحديث القدسي، قال: (قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"، قَالَ اللهُ تَعَالَى: "حَمِدَنِي عَبْدِي!"...)[35] إلى آخر الحديث، حيث بَيَّنَ ذلك بذكر آيات

---

[33] أخرجه مسلم.

[34] أخرجه أحمد، وأصحاب السنن الأربعة، وابن حبان، والحاكم، عن النعمان بن بشير مرفوعا.
وصححه الألباني. حديث رقم : 3407 في صحيح الجامع.

[35] أخرجه مسلم.

الفاتحة، آيةً آيةً، بما يفيد بوضوح تسميتَه - جلَّ جلالُه - الفاتحة بالصلاة. كما سَيَرِدُ مفصَّلاً بعدُ بحول الله.

ذلكَ وَمِيضٌ من بَوَارِقِ رِسَالاَتِهَا، فَلْنَتَلَقَّ إذن كلماتِها من البداية!

أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

((الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(1) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(2) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ(3) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(4) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(5) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ(6) غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ(7).)).

والسورة - كما ذكرنا – تتضمن خمسة مجالس.

المجلس الأول: في مقام التلقي لرسالة الافتقار

والابتلاء فيه واقع بالكلمات التالية:

1- **كلمات الابتلاء:** "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"

2- **البيان العام:**

هذا مقام الفرار إلى الله، وطلب الجوار منه جَلَّ عُلاَه!

عندما يستفتح العبدُ لحظاتِ الاستدرار لنور الله العظيم، تلاوةً لكتابه الكريم، فإنه يخشى أن يسطو الشيطان على قناة الاتصال بوجدانه فيجعله من الغافلين! والشيطان كل متمرد على الله من الجن والإنس. وإبليس اللعين رأس الشياطين في العالمين. وهو عدو مبين! فقد تعهد لرب العالمين بإفساد الأرض وإضلال أهلها أجميعن! (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ! إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ! قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ!)(الحجر: 40-42).

وقد طرد الله - جَلَّ جلالُه - إبليسَ من سماواته، ورَجَمَهُ بالشُّهُب الثواقب! فتفرغ اللعينُ لهذا الكيد العظيم! لا يدع للخير بداية إلا أربكها بقاصف الوساوس ونيران الفتن! فجعل الرحمنُ "الاستعاذةَ" لعباده المؤمنين، نجاةً وأماناً من كل شيطان رجيم. وماذا أعظمُ من جوار الله الواحد القهار سلاماً للمؤمنين؟

ومن هنا كانت صيغة الاستعاذة راجعة إلى معنى قول القائل: أستجير بالله وحده من الشيطان الملعون، المطرود من رحمة الله، وأعتصم به تعالى من أن يضرني في ديني، أو يصدني عن حق من حقوق ربي! هكذا مطلقا، لكنها تتخذ لها خصوصا عند اعتمادها في سياق خاص؛ لتأمين الفعل المقصود بها في ذلك السياق، من تلاوة، أو صلاة، أو نحو هذا وذاك من أعمال البر والصلاح، وسائر التصرفات التعبدية، أو عند مواجهة الإملاءات الشيطانية! فيقوم المؤمن بتطهير مداخل نفسه تطهيرا من كل طَرْقٍ شيطاني خفي، مستجيراً بربه القوي العزيز:

(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!) فتولي الشياطين الأدبار هاربة في متاهات ضلالها، وظلمات كيدها، بعيداً، بعيداً، بعيداً عن شلال النور الذي تدفق على القارئ بمجرد طلب الغوث والأمان من رب العالمين!

والاستعاذة بهذه الصيغة ليست آية من كتاب الله، لكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقرؤها؛ استجابةً لأمر الله تعالى في القرآن: (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)(النحل:98). فهي أمر رباني وسنة نبوية.

3- الْهُدَى المنهاجي:

وهذه الآية مع الصيغة النبوية في الاستعاذة، كلاهما متضمن لخمس رسالات، لا بد للسائر إلى الله - جَلَّ ثناؤه - عَبْرَ مِعْرَاجِ القرآن الكريم من تلقيها جميعا، الواحدة تلو الأخرى، وإلا فلا وصولَ ولا قَبولَ:

- الرسالة الأولى:

أنه لا بَدْءَ في طريق الله، ولا فَتْحَ للعبد الطَّارِقِ أبوابَ مَعَارِج القرآن؛ إلا بإعلان الولاء لله الحق، والانتظام في صف العابدين له وحده دون سواه! وإعلان معاداة الشيطان بما هو عدو لله رب العالمين، والتبرؤ منه ومن حزبه وأتباعه! وإنما الاستعاذة فتح عين القلب على بصيرة قرآنية عظمى، لا يجوز نسيانها أبداً! هي قوله تعالى: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا! إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ!)(فاطر:6) إن الاستعاذة ليست مجرد عبارات تُلْقَى في الهواء فحسب، ولكنها اتخاذ موقف! فتَدَبَّرْ..!

- الرسالة الثانية:

في أنه لا قوة للعبد على الانطلاق وبدء السير إلى الله والتعرف إليه تعالى؛ إلا بالاحتماء به، والالتجاء إليه ابتداءً! فلا وصول إليه بمجرد الجهد الخاص والكسب الذاتي، بل لا بد من استدرار توفيقه ورحمته، فالهداية والتوفيق والسداد، كل ذلك إنما هو بيده وحده جل علاه! وذلك من صميم التوحيد والإخلاص. وتحقيق معنى الاستعاذة في النفس تَخَلُّقٌ عميقٌ بهذا المعنى العظيم. ولا صحة لعمل - من حيث القصد التعبدي الخالص - إلا باستدراج هذا الأصل الإيماني في عمق القلب، نيةً تعبدية خالصةً، لتخليص العمل وتصفيته من كل مَنٍّ، ومِنْ كُلِّ حَوْلٍ وقوةٍ، إلا ما كان بالله وله، وحده دون سواه!

- الرسالة الثالثة:

في أن التعبد بالقرآن تلاوةً، وتزكيةً، وتعلماً وتعليماً، لن يؤتي ثماره، ولن يكشف عن أنواره لعبد؛ إلا إذا تبرأ من كل حول وقوة، وقدَّم بين يدي تلاوته علامة الافتقار إلى الله الغني الحميد، وهي الاستعاذة. ولذلك ليس كل قارئ للقرآن بقارئ! ولا كلُّ تَالٍ له بِتَالٍ! وإنما القارئ والتالي له هو من يتلوه حق تلاوته. والتحقق بمقاصد الاستعاذة شرط من شروط التلاوة الحق! فمن أخطأ حقيقتَها أو

استهان بها عَدِمَ الثمرة، وحُرِمَ النور! فكم من قارئ يقرأ القرآن وهو عليه عَمًى! والعياذ بالله! (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ. وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى! أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ..!)(فصلت: 44).

- الرسالة الرابعة:

في أن الشيطان قد يتدخل فيما يقع بقلب العبد من آثار التلاوة – وهو من أشد الكيد - فيفسد الفهم، أو يفسد نية الافتقار والتعبد عند التلقي عن الله، أو يصرف البال عن مشاهدة نور الهداية؛ فلا يخرج العبد من تلاوته بشيء، وربما خرج بضلال وحيرة والعياذ بالله، كما حصل لأهل الضلالة قديما وحديثا عند قراءة القرآن! وذلك نحو ما في قوله صلى الله عليه وسلم: (سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم! يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّةِ!)([36]) فلا ينجو المؤمن من هذا وذاك إلا بطلب الغوث من الله استعاذةً به تعالى؛ لتأمين وصول الواردات إلى قلبه صافيةً خالصةً! لا أثر فيها لإلقاءات الشيطان فهماً وقصداً.

- الرسالة الخامسة:

في أن العبد المستجير آمِنٌ من كل ذلك وغيره بإذن الله؛ لأنه استجار بعظيم! وهو - جل وعلا - لا يُضَامُ جَارُه!

فالهُدَى المنهاجي المستنبَط من "الاستعاذة" راجع إلى كونها تعبيراً عن وَصْفٍ نفسي وَوِجْدَانٍ إيماني، يقع بقلب العبد قبل أن يقع بلسانه. والتحققُ به هو أول الطريق. وتلك هي المنزلة الأولى من منازل الإيمان، لمن رام الإقلاع في طريق التعرف إلى الله.. إنها كلمة الأدب بإعلان الافتقار الكامل إلى الله الغني الحميد جل علاه، والتبرؤ من كل حول وقوة في العلم والعمل، إلا ما كان مَنّاً كريما وفضلا جميلا من الله وحده! فلا انطلاق بغير التخلق بوصفها والتحقق بمقامها. فإن تَفْعَلْ بصدق وإخلاص فأبشر! إنك آمِنٌ بإذن الله، محروسٌ بجنوده جلَّ عُلاه، فَانْعَمْ مُطْمَئِنّاً بجِوَارِهِ تعالى وحِمَاه!

4- مسلك التخلق:

والمسلك العملي للتخلق بما في هذه الكلمات من معنى تعبدي، وحكمة ربانية، راجع إلى إحداث وقفة خاصة مع النفس، ومساءلتها: ماذا تريد؟ ماذا تريد بما هي مقبلة عليه من قراءة أو عبادة؟ أحقا تريد الوصول إلى الله؟ أحقا تريد القيام بحقه العظيم جل علاه؟ والدخول في القيام بوظيفة الخدمة لدينه؟ وحمل ميثاق عهده وأمانته، وتَلَقّي رسالاتِ هَدْيِهِ وقرآنه؟ واستدرار مدده وأنواره؟ أم أنها تقرأ وكفى؟! بلا قصد تعبدي، إلا قَصْدَ التَّعَوُّدِ والتسميع، وما دون ذلك من مبطلات الأعمال ومحبطاتها؟! فانشر نَفْسَكَ المريضة يا قلبي على طاولة التشريح؛

---

[36] متفق عليه.

لاستئصال ما تجده مندسا بخفاياها وجيوبها، من حظوظها الدنوية، وموانعها الشيطانية، واقطع ذلك كله واحداً واحداً، بمقراض "الاستعاذة" تنـزيلا لمقاصدها على مواطن الداء تنـزيلاً! فلعلك تنهض سليماً مُعَافىً، بإذن الله!

حتى إذا صارت لك حقائقُ الاستعاذة الإيمانية خُلُقاً وطَبْعاً، أصبح معناها بقلبكَ زاداً إيمانيا، تجده جاهزاً - إن شاء الله - متى استدعيتَه بقراءتها، عند كل تلاوة، وعند كل تصرف تعبدي أنَّى كان؛ فأَبْشِرْ!

ثم إن أول ما يبعث النفس على الانطلاق السليم – بعد ذلك - هو تخليص الوجهة وتوحيد القبلة! فلك أن تطالع - لهذا القصد - أحوال السابقين الأولين كيف سبقوا؟! وتشاهد غبطة الواصلين الصادقين كيف وصلوا؟! لقد قرؤوا القرآن بكمال الافتقار إلى الله وتَلَقّي رسالاته هُدًى وشفاءً لقلوبهم؛ فانفتحت لهم مَعَارِجُ الروح، وارتقوا في الدنيا وفي الآخرة! وتلك مَعَارِجُهُمْ لم تزل مفتوحة الأبواب؛ فاقْرَأْ يَا صَاحِ وارْتَقِ!

فيا نفسي المغرورة..!

إلى متى تبقين هكذا شاردة عن باب الله؟ إلى متى وأنت تستجيبين لأهوائك؟ تفرين إلى شهواتك وملذاتك؟ وتتلفعين بذاتك وأنانيتك؟ وما أنتِ إلا قطرة من روح في جرة من طين! متى انكسرتْ سالت! آهٍ يا نفسُ! هذه مَسَامُّكِ الصغيرة تتسع من حين لآخر؛ فيتسرب منها الشيطان إلى نفسك ليعيث فسادا داخل خواطرك وأشواقك! فيَحُولَ دون انطلاق الروح في رحلة السير الكوني إلى الله! عجبا كيف تصبرين على هذه الحال وها كل الطيور قد أعلنت توبتها، وانطلقت تضرب بأجنحتها بعيدا في رحلة المحبين؟! ففري إلى الله مستعيذةً بالله! وأعلني الافتقار الكامل له وحده جلَّ عُلاه؛ عسى أن تكوني من أهل النجاة والفتح المبين! ذلك قول الحق ذي القوة المتين: (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِين!)(الذاريات:50). واجْأَري إلى مولاكِ باستغاثة الفقراء الصادقين: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!"

المجلس الثاني: في مقام التلقي لرسالة الاستئذان

والابتلاء فيه واقع بالكلمات التالية:

1- كلمات الابتلاء: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"

2- **البيان العام:**

أما هذا فمقام الاستئذان! مقامٌ يتدفق بأنوار السكينة والجمال!

"بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ": هي صيغة البَسْمَلَةِ، مفتاحٌ لكنوز الأسرار والأنوار!

وهل يَخْرُقُ العبدُ الأعتابَ والأبواب على سيده بغير طَرْقٍ؟ ولا يراعي مقام العبدية في جانب فعله، ولا مقام الربوبية في جانب سيده، فينتهك كل حرمات الأدب والحياء! إذن يُطْرَدُ مذموماً مدحوراً! ويُحْرَمُ من بركات النور والهدى!

فاطرقْ أبوابَ القرآن يا قلبي مستأذناً على مولاك!.. ورَتِّلْ: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ!)

والبسملة بهذه الصيغة آية من سورة النمل، وهي قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام في رسالته إلى بلقيس: (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)(النمل:30). لكنها ليست آية معدودة ضمن سورة الفاتحة([37]). غير أنَّ قراءتها عند بدء السُّوَرِ سنة ثابتة، ما عدا سورة التوبة.

ومعناها: أبدأ بتسمية الله وذِكْرِه دون غيره، بما هو - جل وعلا – "الرحمن": أي واسع الرحمة، رحمة تَسَعُ كلَّ خلقه، وتشملهم أجمعين، صالحهم وطالحهم، مؤمنهم وكافرهم، إنسهم وجنهم... إلخ. وبما هو "الرحيم": أي أن له خصوص رحمة متفردة للمؤمنين خاصة دون غيرهم، في الدنيا والآخرة. فقول القائل: (بسم الله الرحمن الرحيم) عند قراءة السورة من القرآن توحيدٌ متضمن معنى الدعاء، فكأنه قال: اللهم إني أقرأ هذه السورة باسمك وبإذنك وحدك، ولا مراعاة لغيرك في هذا، معترفاً ومُقِرّاً بأن قراءتي هذه إنما هي تَجَلٍّ من تجليات رحمتك عليَّ، من حيث أنت الرحمن الرحيم. فبرحمتك الشاملة أتمكن من القراءة فعلا، وأقدر على ممارستها، وبرحمتك الخاصة أهتدي إليها، وأستفيد من بركاتها وأنوارها. ومن هنا كان الأدب أن أقرأ باسمه هو تعالى لا باسم غيره، فهو وحده صاحب الفضل كله!

فإذا كانت "الاستعاذة" إعلانا للافتقار وطلبا للجِوَار، فإن "البسملة" استئذانٌ، واستمداد التوفيق من الرحمن! وكلتاهما عتبةٌ من نور لدخول القلب إلى كنوز الفاتحة.

3- الهدى المنهاجي:

وهدى الآية متضمن لأربع رسالات:

- الرسالة الأولى:

أنك ما قدَرتَ على ما تريد فعله؛ ولا وُفقت إليه إلا برحمة الله، تلك الرحمة الربانية العظمى التي لا يقوم شيء في الكون إلا بها! وهو من أهم معاني التوحيد والإخلاص، مما يحقق للقلب بركة العمل، وثمرته الإيمانية فعلا. فلا تغبن نفسك يا صاح، وتخلق بهذا الصلاح!

- الرسالة الثانية:

في أن العبد لا ينبغي له أن يتصرف في شيء من الأعمال إلا باستئذان سيده، سواء كان ذلك من العبادات أو من العادات؛ تعبيراً عن مطلق التوكل والخضوع الواقعين بالقلب. ولذلك شرع النبي - صلى الله عليه وسلم – بسنته القولية والعملية

[37] ولأبي بكر بن العربي المعافري قول حاسم للخلاف في البسملة أهي من الفاتحة أم لا؟ قال رحمه الله: (ويكفيك أنها ليست بقرآن للاختلاف فيها. والقرآن لا يختلف فيه، فإن إنكار القرآن كفر!) أحكام القرآن: 6/1. دار الكتب العلمية. بيروت.

اعتماد الأذكار، عند بداية كل فعل وتصرف تعبدي أو عادي، من صلاة وصيام وحج، أو بيع وشراء، ودخول وخروج، ومباشرة، ونوم واستيقاظ... إلخ. كل ذلك لـه فـي السنن الصحيحة عبارات من الأذكار، تدور حول المعنى الاستئذاني التوكلي، الذي شُرِعَتْ له "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم".

- الرسالة الثالثة:

فـي أن المستأذِنَ مُسْتَنِدٌ إلى مولاه ومنتسب في عبوديته إليه! فلا يصول ولا يجول إلا به؛ وبذلك تتجلى عليه بركة الرحمن، قُوَّةً ومَدَداً! فقيمة المملوك تتحدد بقيمة من يملكه! فمن ذا قدير إذن على إذاية عبد الله؛ إذا انطلق يحمل شارة الإذن من مولاه؟! ومَنْ مِنَ الناس يستغني بنفسه عن الله إلا جاهلٌ بالله؟ كيف وهذا سليمان نفسه - عليه السلام - وهو من هو في قوته ومُلكه، يكتب إلى بلقيس نَصَّ الاستئذان من ربه، وشارة الاستناد إليه: (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ!)(النمل:30)! وإن تلك لعلامة ربانية تفتح النور على الهداية الرابعة، وهي:

- الرسالة الرابعة:

أن ما كان "باسم الله" وحده صِدْقاً؛ كان لله وحده قَصْداً. وما كان كذلك تولاه الله بالحفظ والرعاية، وبالتسديد والترشيد، وبالنصرة والتمكين! فلا يكون شيءٌ من فعل العبد آنئذ، في الدين والدعوة، وفي سائر ضروب الكسب الدنيوي والأخروي، إلا على عَيْنِ الله – جَلَّ جلالُه - صناعةً ومَعِيَّةً! فأَعْظِمْ بِهِ من عَمَلٍ يَتَوَلاَّهُ اللهُ ويَنْصُرُهُ!

4- مسلك التخلق:

ومسلك التخلق بهذه الكلمات قائم على تحقيق المشاهدة تفكراً وتدبراً، لعجزك عن فعل أي شيء إلا بالله! هذا من جهة، ثم تحقيق المشاهدة – من جهة أخرى – لتجليات أسمائه الحسنى في ملكوت السماوات الأرض؛ وهيمنة الرب العظيم على كل شيء! تتدبر ذلك كله وتتبصره، وتتدرج عبر معارفه بمداومته منـزلةً منـزلةً؛ حتى تعاين يقينا أن لا شيء يكون في الْمُلْكِ والملكوت – مهما دَقَّ - إلا بإذنه! (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ! فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ!)(يس: 82-83)

فيا نفسي الأَمَّارة! واهِمَةٌ أنت! كيف تستطيعين العيش خارج جمال الرحمة الإلهية؟ وهذه أنوارها الكبرى تمتد إلى العالمين بأسرار الأسماء الحسنى وبركاتها.. تفيض على العباد بلطف الرعاية، ونور الهداية! كيف؟ وهذا نور الرحمن جل جلاله؛ لو انقبض عنكِ - لأَقَلَّ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ- لكنتِ عدما في عدم! ويحك..! ومن ذا في الكون قائم بغير اسمه تعالى؟ فأعلني الانتساب إلى الله!

وتأدبي عند طرق بابه الكريم؛ معتصمة بسر الاسم: الله الرحمن الرحيم؛ يَكُنْ لكِ ما تقصدين إن شاء الله!

المجلس الثالث: في مقام التلقي لرسالة الحمد

والابتلاء فيه واقع بالآيات التالية:

1- كلمات الابتلاء:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ.

2- البيان العام:

هذا مقام انفتاح الأبواب العليا!.. وما كان للرحمة الإلهية الكبرى إلا أن تنفتح لاستضافةِ عبدٍ فَرَّ إلى الله مستجيراً، ثم طرق بابه مستأذنا!

فبأي شيء يمكنك أن تبادر ربَّكَ الآن يا عبد الله؟ بأي شيء وهذه نِعَمُهُ عليكَ قد سَبَقَتْ قدومَكَ! أوليس قد خلقك؟ أوليس قد رزقك؟ أوليس قد رعاك؟ أوليس قد هداك؟ فبأي لسان تتكلم اليوم بين يديه؟ أبلسان الحمد والشكر؟ وأيُّ لغةٍ في العالم قديرة على إنشاء الشكر الكامل والحمد المطلق، لرب أنعم عليك بكمال النعم وبمطلق الإحسان؟ وإنما حقيقة الشكر أن يكون على قَدْرِ النعمة أو يزيد! تلك هي القضية!

ألا لا حَمْدَ للهِ ولا شُكْرَ إلاّ بما حَمِدَ هو تعالى بِهِ نَفْسَهُ! فَادْخُلْ تواضعَ عبوديتِكَ لله يا عَبْدُ واقرأ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ!"

اقرأ حَمْدَ اللهِ لنفسه، وثناءَ اللهِ على ذاتِه! اقرأه قرآناً كريماً مجيداً، وتَعَبَّدْ! فإنما القرآن وحده هو خطاب الكمال، وهو وحده شُكْرُ الكمال، وهو وحده حَمْدُ الكمال! فإنما هو كلام صادر عن الله ذي الجلال والجمال والكمال! وليس غريبا على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو أعرف العارفين بالله، وأعْلَمُهُمْ بِهِ جلَّ عُلاَهُ – ليس غريبا عليه أن ينطق بحكمته النبوية الرفيعة، وهو يناجي ربَّه ساجداً له، مُتَهَجِّداً في غسق الدُّجَى: (اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك! وبمعافاتك من عقوبتك! وأعوذ بك منك! لا أحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك!)([38]).

ومَنْ يُحْصِي الثناءَ على الله إلاّ هُوَ جَلَّ جلالُه!؟ ولو لم يكن لهذا القرآن من وظيفة إلا أنه أتاح لنا أن نشكر الله ونحمده بكمال حمده وشكرانه، لكفى به نعمةً عظمى على العالمين! فـ(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ!)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ذلك بدء الفاتحة، فاتحة القرآن العظيم! وهي كلمة شكر عظمى، جامعة مانعة. جامعة لكل حمد يليق بشؤون الربوبية العليا، بما هو الله رب العالمين! مانعة من دخول أي أحد سواه فيما يليق به - جل وعلا - من

---

[38] أخرجه مسلم.

الحمد والثناء. ومعناها: الشكر والثناء خالصاً لله وحده! إنها إذن كلمة حمد وكلمة توحيد وإخلاص.. إنها ثناءٌ على الله؛ لجمال أسمائه الحسنى وصفاته العُلَى، وشكرٌ له تعالى؛ بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها عدد، ولا يحيط بِمَلَكُوتِهَا أحدٌ![39] ووصفه تعالى بـ(ربِّ العالمين): أي رب الإنس والجن والملائكة، ورب السماوات والأرَضِينَ، وما فيهن من سائر الخلق أجمعين. قال تعالى: (وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَآئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ. مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)(الأنعام:38).

و(الرَّبُّ) - في كلام العرب – لفظ جامع لكل معاني المالِكية والهيمنة. ولذلك فهو يطلق على السيد المطاع، والمُصْلِح للشيء، والمالك للشيء. وربنا جل ثناؤه: هو السيد الذي لا شبيه له ولا مثيل في ملكه وسلطانه، وهو المصلحُ أمرَ خلقِه، والمُدَبِّرُ أمرَ مملكته؛ بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر! ومفتاح معنى الربوبية هو صفة الخالقية؛ ذلك أن المالك الحق للشيء إنما هو الذي خلقه. والله جل جلاله هو: (خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)(الزمر:62-63). ولذلك كان بحق هو رب العالمين! فكان الحمد له - وحده دون سواه - بكل تلك المعاني الكونية الشاملة، النابعة من قلب المؤمن، والمتوجهة إليه بالعبادة شكراً وثناءً، بما لجلاله العظيم من سلطان على كل العالمين!

"الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، سبق البيان أن اسم الجلال: "الرحمن" دال على عموم الرحمة لجميع الخلق، وأن لا شيء قائم في الوجود إلا برحمته، سواء في ذلك عالم الإنسان وغيره من العوالم الأخرى، كعالم الملائكة والجان والكواكب السيارة في الفضاءات والأفلاك الضاربة في المجهول، وما فوقها من طبقات السماوات! ثم نزولا إلى عالم الحيوان والنبات والجماد، وما بين هذه وتلك من دقائق المخلوقات، وما لا علم للإنسان به من عجائب الكائنات. فكل موجود إنما وجوده تجلٍّ من تجليات رحمانيته تعالى، خلقا وتقديرا ثم رعايةً وتدبيراً. ولولا رحمانيته لكان عدما في عدم! فبالرحمانية خُلِقَ العالم، وبالرحمانية يقع تدبيره من لدن خالقه الرحمن، وبالرحمانية تتنزل الأرزاق على الخلق أجمعين، من سائر الأجناس والأنواع، من الإنس والجن إلى سائر الحيوان ودقائق الحشرات والجراثيم، إلى عوالم الحيتان والأسماك، إلى شتى ضروب النبات. وبالرحمانية تتصرف القدرة الإلهية في إصلاح شؤون الكون الممتد من عالم الشهادة إلى عالم الغيب وصيانته ورعايته،

---

[39] وقد قيل: (الحمد لله): ثناءٌ على الله بأسمائه وصفاته الحُسنى ، و(الشكر لله): ثناء عليه بنعمه وأياديه. والتحقيق أن (الحمد) جامع لكل ذلك جميعا. قال ابن جرير الطبري رحمه الله: (وإنما دخلت "أل" في "الحمد لله" لإفادة الشمول؛ لأن المعنى: جميع المحامد، والشكر الكامل؛ إنما هو لله دون سواه).

ومن هنا ناسب جدا أن يَرِدَ وصفُ الرحمانية في سياق الحمد لله، بما هو "رب العالمين".
وبذلك كله استحق هذا الاسم العظيم من أسماء الله الحسنى، "الرحمن" أن ينال ضربا من الاستقلال في الدلالة على الذات الإلهية، بما جمعت من شؤون الربوبية وكمال الألوهية! فكاد يكون رديفا لاسم الجلال الأعظم: "الله" جل جلاله! لا يوازيه في ذلك اسم آخر مما عَلَّمَنَا اللهُ - تبارك وتعالى - من سائر الأسماء الحسنى! وهذا واضح جدا من استعمالات القرآن لاسم الرحمن بما لم يرد في اسم آخر سواه، كما في قوله تعالى: (قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى)(الإسراء: 110)، وقوله سبحانه: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)(طه:5)، وقوله سبحانه: (الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً. وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً)(الفرقان: 59-60). ومثل ذلك في القرآن كثير جدا؛ بما يدل على سَعَةِ هذا الاسم العظيم وشموليته لكل شؤون الربوبية العظمى تماما كما لاسم الجلال: "الله" جل علاه. وهذا واضح في السُّنة أيضان من مثل قوله صلى الله عليه وسلم: (أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن)([40]).
ثم سبق البيان أيضا أن اسم "الرحيم" دال على خصوص الرحمة للمؤمنين. وكفى العبدَ المؤمنَ شرفاً وتشريفاً، وكفاه فرحاً بالله وأُنْساً به تعالى، أن يكون له من ربه خصوص رحمة، مستثناة من عموم رحمانيته للعالمين! إنها الرحمة الخاصة، ذات الأسرار والأنوار، رحمة الهدى والجمال، الجمال المتجلي بالإيمان على عباد الله المؤمنين؛ حَدْواً لهم ضمن قوافل الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، إلى دار السلام والنعيم المقيم.
وأما قوله تعالى: "مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ"، فقد قُرِئَ: "مَلِكِ" بمعنى الْمُلْكِ، وقُرِئَ: "مَالِكِ" بمعنى الْمِلْكِ. والدِّينُ في اللغة: الحساب والجزاء، الواقع من الله على الخلائق يوم القيامة. فمعنى الآية على القراءة الأولى: أنه تعالى المنفرد يومئذ بالْمُلْكِ، دون الملوك الجبابرة، الذين كانوا في الحياة الدنيا ينازعونه الْمُلْكَ والسلطانَ توهماً واغتراراً، ويدافعونه العظمة والكبرياءَ عُتُوّاً واستكباراً. فيوم الدين لا إمكان أبدا لمثل هذا الغرور ولا لمثل ذلك الاستكبار. فالخليقة كلها، ملوكها ودهماؤها، طغاتها ومستضعفوها، كلهم جميعا خاضعون اليوم لسلطانه، جاثون تحت أمره، في انتظار صدور حكمه! مجردون من كل حول وقوة، ومما ابتلوا به في الحياة الدنيا من مُلك ومالكية. فها هم اليوم حفاة عراة فقراء أذلاء، بين يدي الله

---

[40] رواه مسلم.

الملك الحق، المالك لكل حكم وفصل في هذا اليوم الرهيب! ومنه قوله تعالى: (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ!)(غافر: 16).

والمعنى على القراءة الثانية متفرع عن الأولى، وهو: ألاَّ أحدَ يملك في ذلك اليوم مع الله حُكْماً، فهو جل وعلا وحده الذي يملك الحكم بين العباد، ويفصل بينهم بقضائه العدل، وألا شفاعة من أحد لأحد إلا بإذنه تعالى.

فالحمد لله - في بدء السورة - واقعٌ لله بهذه المعاني جميعا، أي بما هو "رب العالمين"، وبما هو "الرحمن الرحيم"، وبما هو "ملك يوم الدين". فذلك كمال الحمد وتمامه.

3- الهدى المنهاجي:

وهُدَى الآيات متضمن لأربع رسالات:

- الرسالة الأولى:

في أن الحمد هو أول مقام وجب أن يتحقق به المؤمن العارف بالله حقا، وأول منـزل وجب أن ينـزل به، وأول خُلُقٍ وجب أن يتخلق به؛ إذ الحمد هو مقام التعرف إلى الله بما له - جل علاه - من صفات الربوبية على العالمين رحمانية ورحمة إلى يوم الدين! فكان الحمد بذلك هو أول حق من حقوق الله على العباد، فالحمد أول كلمة في القرآن، والحمد أول كلمة نطق بها آدمُ - عليه السلام - بُعَيْدَ نفخِ الروح فيه مباشرة!([41]) فكان الحمد هو كلمة الاعتراف لله بالربوبية على العالمين، وكلمة الخضوع لألوهيته في كل شيء. فهو تخلق بمقام الرضا بالله ربا.

- الرسالة الثانية:

في أنَّ نِعَمَ الله على العباد أعظم وأوسع من مجرد الاستيعاب بالتخيل، بَلْهَ الإحصاء والاستقراء! وأن الإنسان غارق في بحرها العظيم، خلقا وتقديرا، وحفظا ورعايةً، ورزقا وهدايةً.. إلخ. وأنه متقلب في ذلك بين رحمانية الله ورحمته. فلا مناص لمن أراد أن يكون لربه شكورا إلا أن يكون له عبداً متحققا بعبديته!

- الرسالة الثالثة:

في أن الإنسان راحل في سفينة الكون حتما، من الوجود الدنيوي إلى الوجود الأخروي، وأن كل يوم يسلخه من عمره هو مرحلة يقطعها نحو الآخرة! وأن وظيفة الحياة الدنيا منحصرة في معنى واحد ووحيد: هو الحرث! وأن الآخرة هي موسم الحصاد! ولا بد للحارث أن يحرث، فإما خيرا وإما شرا! وإنما تمحيص ذلك هو يوم الدين!

---

[41] عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عَطِسَ، فقال: "الحمد لله!" فَحَمِدَ الله بإذنه، فقال له ربُّه: يرحمك الله يا آدم!) ..الحديث. أخرجه الترمذي والحاكم. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم: 5209.

وموسمُ الحرثِ فَانٍ، فَانٍ، فَان! ويوم الدين بَاقٍ أبداً! فلا شيء يبقى للعبد إلا ما كان للباقي!

- الرسالة الرابعة:

في أن الحياة الدنيا لم تقم عبثا، بل هي مراقَبة على العبد، محصاة عليه لحظةً لحظةً، مسؤول عن كل وقت من أوقاتها مما يصرفه من عمره فيها بين ليل أو نهار، ما عمل وما لم يعمل، وأن تصفية حسابها - صغيره وكبيره - واقع لا محالة يوم الدين! ذلك اليوم الذي هو غاية الحياة الدنيا، والذي من أجله كان الخَلْقُ كلُّه، وكان الوجود كله، والذي من أجله تعيش البشرية أعمارَها. علم ذلك من علمه وجهله من جهله! – ولذلك كانت قراءة المسلم لهذه الآية في كل ركعة من صلواته إيقاظا له من سباته، وتنبيها له من غفلته، وتذكيرا له بحتمية اليوم الآخر، وحثه على الاستعداد له رَغَباً ورَهَباً، بالعمل الصالح، تركا للمعاصي وهجرانا للذنوب، وفعلا للصالحات وإقبالا على الطاعات.

4- مسلك التخلق:

فيا نفسي الأمارة الجهولة! ليس أمامك الآن إلا أن تفري إلى الله، وتعتصمي بحبله المتين، فالعواصف الهوج على وشك الضرب بأغصانك الشاحبة! فإلى متى وأنت تُسَوِّفِينَ التوبة من يوم إلى غد؟ فكم من غد بقي لك في أيامك المعدودة المحدودة؟ هذه أنوار "الحمد" تضيء لك علامات الطريق إلى الله، وهذه أورادها العملية منتصبة بين يديك، فَعُدِّي مدارجَ العمل، الواحدةَ تلو الأخرى وانطلقي! فهذه الصلوات الخمس ونوافلها مدرسة لمجاهدة النفس الظلومة الجهولة، ولمكابدة أخلاق الرضا بالله؛ عسى أن تتحققي بمنزلة الحامدين لله رب العالمين! فاعقدي العزيمة على تحقيق الشهود القلبي، سيرا إلى الله جل جلاله، عبر الخطوات القلبية التالية:

- الخطوة الأولى: تحقيق تكبيرة الإحرام في كل صلاة؛ لضمان يقظة القلب عند أول مقام الحمد! وإلا فاتك شهوده، وضاعت منك لحظة الانطلاق؛ فكنت بذلك من المتخلفين عن ركب السائرين إلى رب العالمين! وأنى لك اللحاق وقد حلقت أجنحة الروح عبر معارج القرآن عاليا جدا؟!

- الخطوة الثانية: الصلاة في محراب الكون لشهود الجماعة الكبرى بين يدي رب العالمين والانتظام في صفها الكبير ومسجدها الكوني الفسيح.

- الخطوة الثالثة: مشاهدة نعم الرحمانية والرحمة من خلال تلقي أنوار الأسماء الحسنى، والاغتراف من كوثرها، وحمل النفس على الرحيل إلى منازلها؛ لتلقي تجلياتها، بدءا بما يتجلى على القلب من رحمانية الله، خالقا ورازقا ومحييا وقيوما، إلى ما يتجلى عليه من رحمته تعالى هاديا ونصيرا ثم شكورا.

ـ الخطوة الرابعة: مجاهدة النفس على التخلق بأخلاق الرضا بالله ربا في الشدة والرخاء، وفي المرض والصحة، وفي الابتلاء والعافية. وهو مقام الشكر له والثناء عليه بمجامع الحمد المتقلب في عبودية الله على كل حال.

ـ الخطوة الخامسة: إقامة النفس أبدا على عتبة الاستعداد للرحيل، إلى مملكة يوم الدين، والتفكر الدائم في نشرة الحساب بين يدي الملك العظيم.

المجلس الرابع
في مقام التلقي لرسالة الإخلاص

والابتلاء فيه واقع بالكلمات التالية:

1- **كلمات الابتلاء:** "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ".

2- **البيان العام:**

أما هذه الآية فهي قلب سورة الفاتحة! وكنز أسرارها! ومنبع أنوارها!

إنها آيةُ الآيات، وأمُّ المُحْكَمَاتِ، وبَيِّنَةُ البَيِّنَاتِ، ومجمع الدلالات لكل آيات الوظيفة الإنسانية في كتاب الله: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ!) إنها مفتاح الفهم الحقيقي لطبيعة الوجود البشري كله! وباب الدخول إلى فَلَكِ الوظيفة الإنسانية الكبرى، المنتظم في مدارات الكون الفسيح، والضارب على هدى الخالق العظيم جل علاه. آية جامعة مانعة! تلخص قصة الخليقة الإنسانية كلها، من أولها إلى آخرها، وجوداً ووظيفةً وغايةً!

إِيَّاكَ نَعْبُدُ: فضمير النصب المقدَّم: "إِيَّاكَ" يفيد الاختصاص والتفريد، أي: لك وحدك نخضع ونخشع، ولك وحدك نَذِلُّ ونستكين، ولك وحدك ننقاد ونخنع. أنت الغاية وإليك المصير، فلا شيء منا إلا وهو إليك سائر، مملوكون نحن لك، وأنت المالك الحق، فلا شيء منا إلا وهو لك، قد فنيتْ جميعُ ذراتنا في بساط ركوعنا وسجودنا لك، يا خالقنا العظيم! قد جمعنا قلوبَنا عليك وحدك، وصفينا قصدنا خالصا لك وحدك، وفنينا عن شهود الشهوات والأهواء والأغيار، فلا التفات عن يمين أو شمال! إنَّا أقمنا وجوهنا لك فلا شيء أمامنا سواك! فأنت ربنا لا إله إلا أنت، وأنت خلقتنا ونحن عبادك، ونحن على عهدك ووعدك ما استطعنا. هذه شهادتنا على أنفسنا، نقر بها خاضعين بين يديك، شهادةً خالصة لك وحدك، ذلك قولنا: " إِيَّاكَ نَعْبُدُ"!

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ: الاستعانة فرع عن العبادة، ولكنْ لأهميتها أُفْرِدَتْ بذاتها، فكانت مسلكا خاصا إلى توحيد الله وإفراده رَغَباً ورَهَباً. فلا استقامة على العبادة ـ ابتداءً ـ إلا بالاستعانة بالله، ولا ثبات على العبادة ـ انتهاءً ـ إلا بالاستعانة بالله، ولا بلوغ إلى رغائب الدين والدنيا جميعها، من أمور العادات والعبادات، وصلاح المعاش والمعاد، إلا بالاستعانة بالله! ولا انطلاق ولا وصول إلا بالاستعانة بالله، وبالله

وحده دون سواه! ذلك إقرار بعهد، والتزام بميثاق، وشهادة على النفس، على غرار الميثاق الأول: " إِيَّاكَ نَعْبُدُ"!

إن العبد بتلقيه الآيات الأولى من الفاتحة، قد شاهد أن الله هو وحده الذي بيده ملكوت كل شيء، وأنه هو وحده الذي بيده خزائن السماوات الأرض، فلا شيء إلا وهو مُدَبَّرٌ بشؤون ربوبية رب العالمين! ومن هنا لا يملك المؤمن الذي تلقَّى هذا الشهود، إلا أن يهرع إليه تعالى بإخلاص العبادة والاستعانة. وكيف لا؟ وقد رأى ألاَّ شيء يكون إلا بإذنه! وألاَّ شيء ينفع إلا بإذنه! وألاَّ شيء يضر إلا بإذنه! وأي شيء بعد ذلك - يمكن أن يتصوره العقل - يدور خارج فلك رحمانيته؟ وها كل ذرة في الوجود إنما هي قائمة بقيوميته جل علاه؟! والخلق والأمر كله بيده! فأي مسلك بعد ذلك، وأي طريق أنجى للعبد وأضمن من مسلك: " إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"؟

إنها إذن شهادةُ البراءة التامة من كل قصد غير وجه الله، وشهادة البراءة التامة من كل شريك غير الله، وشهادة البراءة التامة من كل مقصود بالتعبد، توجهاً، وخضوعاً، واستعانةً، وتوكلاً، غير الله! وشهادة الفناء التام عن مراعاة خوارم الإخلاص الصافي، من أدق الشركيات الخفية، رياءً وتسميعاً ومباهاةً؛ إلى أغلظها، من تقديس آلهة الأهواء الباطلة، مما يتجلى في أنصاب المال والأعمال والشهرة، وسائر الشهوات، إلى ما قد يتطور عن ذلك من الأنصاب الحجرية والبشرية، مما قد يُعبد من دون رب العالمين جهاراً!

فَبِنُورِ "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"، يكشف المؤمن ظلمات النفس، فتحترق في وهجها الرباني العظيم كلُّ الوساوس والدسائس الشيطانية، فلا يبقى برغائبها شيءٌ غيرُ وجهِ الله! وتتدفق المواجيد خالصة لله تترى، فيترقى المؤمن بذلك إلى مقام العبدية العالي؛ تكريما من الله وتشريفاً، فَاقْرَأْ يا صَاحِ وَارْتَقِ! لكن بشرط الوفاء بإخلاص العهد لله وحده! فلا عبادة لغيره ولا استعانة بسواه، من أخفى بواطن الشعور إلى أجلى مظاهر الجوارح! وآنئذٍ تُفْتَحُ مَدَارِجُ "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" بين يديك؛ ويُؤْذَنُ لكَ بالدخول! ثم تكون المناجاة بينك وبين الرحمن جمالا يتدفق بالعطايا والسلام..! فلكَ يا عبدَ الله آنئذٍ من الله كل ما سألت!

ذلك مقتضى الحديث القدسي الذي يرويه رسول الله عن رب العزة والجلال. قال عليه الصلاة والسلام: (قَالَ اللهُ تَعَالَى: "قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ..!

فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"، قَالَ اللهُ تَعَالَى: "حَمِدَنِي عَبْدِي!"

وَإِذَا قَالَ: "الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، قَالَ اللهُ تَعَالَى: "أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي!"

وَإِذَا قَالَ: "مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ"، قَالَ: "مَجَّدَنِي عَبْدِي!" وَقَالَ مَرَّةً: "فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي!"

فَإذَا قَالَ: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"، قَالَ: "هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ!"

فَإذَا قَالَ: "اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ!" قَالَ: "هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ!")([42])

القضية ههنا إذن:

فَإذَا قَالَ: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"، قَالَ: "هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي..!"

فأي كلمات هذه وأي ابتلاءات؟ عبادة واستعانة على تمام التصفية والإخلاص الكاملين لله الواحد القهار؟ ألا إنها دعوى عريضة! وإنما يمحصها الحساب! وإنه لا نجاة منها إلا برحمة الله! ولذلك وَرَدَا في الحديث متتابعين جوابا على الدعوى: الحساب والرحمة! فأما الحساب فقوله: "هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي!" وأما الرحمة فقوله: "وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ!"

وما دخل أحدٌ الجنة إلا برحمة الله! بَيْدَ أنها بشارة وأي بشارة! بشارة يزفها الرسول الكريم إلى المؤمنين العاملين ألا يقنطوا من رحمة الله، قال صلى الله عليه وسلم: (لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ! قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ! سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ! وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا!)([43]) وفي صيغة أخرى لنص البشارة: (سَدِّدُوا، وقَارِبُوا، وأَبْشِرُوا، واستعينوا بالغَدْوَةِ والرَّوْحَةِ، وشَيْءٍ من الدُّلْجَةِ!)([44]) التسديد والتقريب، والصلوات الخمس ما بين الغُدُوِّ والرَّوَاحِ، إلى شيءٍ من قيام الليل، بلا غُلُوٍّ ولا تَنَطُّعٍ، وإنما قَصْداً وتوسطاً واعتدالاً! هكذا تتدرج بين منازل "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"، حتى تبلغ المنزل الأعلى! عطاءً من الله ورحمة!

فَأَكْرِمْ بِهِ مِنْ عَطَاءٍ رباني رحيم!

3- الهدى المنهاجي:

أما ما تتضمنه هذه الآية من رسالات الهدى فهو أعظم من أن يُحَاطَ به عَدّاً وإحصاءً! إنها عمران العمر كله، ووظيفة الوجود البشري كله، ومنهاج الحياة أجمعها! بَيْدَ أنَّا نختصر مقاصدَها ببيان مداخلها الكبرى في الرسالات التالية:

- الرسالة الأولى:

في أن غاية الدين عبادةً واستعانةً إنما هي تخليص القصد وتصفيته لله الواحد الأحد؛ حتى يتحقق المؤمن بمقام الإخلاص صفةً جوهريةً، وخُلُقاً تلقائياً؛ بما يجعله عبدا لله حقا وصدقا. (أَلاَ للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ!)(الزمر:3). فالحذرَ الحذرَ من أن تنحرف بك الوسائلُ عن الغايات!

---

[42] رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً.

[43] متفق عليه.

[44] رواه البخاري.

- الرسالة الثانية:

أن "إِيَّاكَ" شهادةٌ على النفس بالتوحيد الكامل، والتزام منها بالإخلاص التام، وإقرار عليها بمقامه ومسلكه. فإما حقا وتحقيقا، وإما كذبا وافتراءً! كما ورد في البيان القدسي المذكور: "هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي.. وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ!" ولذلك كانت حقيقتُها أنها مناط ابتلاء عظيم! وجب على المؤمن العاقل أن يجعل له من نفسه خلوة أو خلوات؛ للتفكر في شروط الدخول فيه والفوز بمقامه الكريم!

- الرسالة الثالثة:

أنه لا سبيل إلى ذلك إلا باستغراق العمر كله، أيامه ولياليه، في مجاهدة النفس على هذه الحقيقة، سيرا إلى الله عبر منازل "إياك نعبد وإياك نستعين"، خَطْرَةً خَطْرَةً، وخُطوةً خُطوةً، ثم مَقَاماً مَقَاماً. ولهذا القصد جُعِلَتِ الفاتحةُ صلاةً مفروضةً، تُتلى في كل ركعة من كل صلاة، على مدار الليل والنهار! فصلاتُك ميزانُك! وصلاتُك مقامُك!

- الرسالة الرابعة:

أن العطاء والمنع في كل صغيرة وكبيرة إنما هو من الله. فكل عبادة لغيره ظلم عظيم، وكل استعانة بسواه جهل خطير، وإلقاء بالنفس إلى التهلكة! لأنه خروج عن فَلَكِ التعبد، وانحراف عن مَدَارِ التوحيد والإخلاص! ثم ضياع رهيب في تيه الظلمات! فَتَخَلَّصْ من الشركيات والخرافيات تكنْ من الآمنين!

- الرسالة الخامسة:

أن كل نقض لصفاء الإخلاص عبادةً واستعانةً، إنما هو نقضٌ لعهد الله، وخيانةٌ له جل علاه! وكيف لا؟ وها أنت ذا تقطعه شهادةً على نفسك صباح مساء؟: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"! ثم تنصرف خلفها إلى سواه؟! فمن يقيك بعد ذلك من عذاب الله؟

- الرسالة السادسة:

إذا كانت سورةُ الفاتحة هي أم القرآن المجيد وخلاصته وروحه! - كما تبين بأدلته من قبل - فإنَّ "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" – بما تَفَجَّرَ من أنوارها وانكشف من أسرارها - هي خلاصة الخلاصة! وروح الروح! إنها منطلق الدين، وإنها غاية الدين، وإنها مَدَارُ الدين، وإنها المنهاج العملي الجامع لكل الدين، فلا شيء يبقى خارج فَلَكِهَا من الدين! إنها هي "الكَلِمَاتُ" التي ابتلى بها اللهُ هذه الأمة، كما ابتلى إبراهيمَ من قَبْلُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ. قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِيَ الظَّالِمِينَ!)(البقرة: 124) ولذلك فالناس إزاءها بين وَفِيٍّ وظَالِمٍ! فمن أوفى بها أوفى بعهد الدين، ومن خانها خان عهد الدين! وكان بذلك من الظالمين!

وأما تمامُها فهو مقام الغِنَى العالي، فمن تحقق بها خُلُقاً غَنِيَ بالله؛ فكانت له أسماؤه الحسنى جمالاً يَتَلَقَّى أنوارَها عطاءً من الله لا ينفد أبداً! منذ أن يضع قدمَه على صراط الله المستقيم - سيرا إليه تعالى عبر مدارج الابتلاء التعبدي - حتى يلقى رحمة ربِّهِ وجمالَ رضاه! فما خاب قطُّ عبدٌ أخلص لله، ولا خَسِرَ مؤمنٌ استعان به وحده جلَّ عُلاَهُ!

4- مسلك التخلق:

أول العمل: تحقيق انطلاق الخطو نحو مقام "إِيَّاكَ"، بما ترتب على مستندها من تفريد في العبادة والاستعانة، وتخليص الوجهة إلى غايتها، ثم شهود مقاماتها في كل صلاة، صقلا للقلب، ومجاهدةً للنفس، وحراسةً يَقِظَةً لأبوابها أن تشرد بعيدا عن مناجاة الله، أو تغفل لحظة عن مدافعة وسواسها، والتصدي بقوة لخناسها، كلما اعترض إخلاصَها وعكَّر صفوَها؛ بما يلقي إليها من صور الأغيار، وخواطر الفتن والأكدار، وبما ينفث في القلب من الإغراءات والشهوات، وشتى ضروب الأوهام والشبهات. تلك حقيقة الابتلاء بكلمات"إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"، فما أثقلها من رسالة! وما أعظمها من أمانة! ولكنها يسيرة بتيسير الله على من عزم عزمتَها!

فيا أسفا على عجزك وكسلك يا قلبي العليل! ويا حسرة على تمنيك الواهم، وعلى خطوك المتردد الكليل! فأولئك السابقون هم الآن على أبواب الوصول! وأنت هنا في الخلف ما تزال تفرك عيون النوم تقاعسا، وتتخبط في وحل رياك وشهواتك! والأوقات تضيع منك هدراً! والروح في أعماق طينك تستغيث!

فاشرب دواء الإخلاص؛ لعلاج القلب من داء الزيغ عن توحيد الله دعاءً واستغاثةً! واسق جراح الروح لشفائها من أمراض التَّسْمِيعِ والرياء، ومن علل العُجْبِ والكبرياء!

وأما تحقيق المناط لذلك الأمر بأجمعه، وكأس الشفاء الجامعة لذلك الدواء كله، فيكون بالدخول في ثلاثة مسالك:

- المسلك الأول: أن تبادر إلى تحقيق المواقيت في الصلوات الخمس خاصة! وتُسْلِسَ القياد لندائها. وأن تتقلب بين منازلها بكل جوارحك ولطائفك، فجراً، ثم ظهرا، ثم عصرا، ثم مغربا فعشاءً! تشهد نظامها ولحظة ميلادها، وتحضر موعد توزيع بركاتها وأرزاقها؛ لتنال نصيبك من أسرارها، تسبيحاً وتوبةً واستغفاراً.

فبانتظام المواقيت تنتظم كل مقامات الدين، وبشهودها يتحقق العبد بمنازل الإيمان، منـزلةً تلو الأخرى، ويتطهر في كل منـزلة من شوائب الأكدار والأغيار، تركاً لكل الفاحشات والمنكرات، ثابت الخطو على سكتي الأمر والنهي، وهو سائر إلى مولاه عبر مدارج "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ". يحقق نظر القلب إلى مقصدها عند تلاوتها في كل ركعة، ويدعو ربَّه مستعيناً به وحده، عند كل سجود، فلا يخرج من صلاته تلك إلا وهو عبد مستعين، حتى تدركه الصلاة التي تليها. فإذا

شـهد صـقَّها وميقاتهـا كانـت لـه زادا جديـدا كسـابقتها، فيخـرج منهـا كمـا خـرج مـن الأولـى. وهكذا يعيش يومَه وليله عبداً خالصا لله وحده، ومؤمنا مستعينا بالله وحده.

ـ المسـلك الثـاني: تحقيـق خمـس بـراءات مـن خمسـة مهالـك! أولهـا: الخـروج الفوري من ظلمات الشركيات الظـاهرة والباطنـة، مـن التذلل التعبدي لغيـر الله، أو التوجه بالدعاء لغير الله، أو الاستغاثة بغير الله، أو تقديم الذبائح والقرابين لغير الله. الثانية: الانقطاع الفوري عن أكل المال الحرام، وأخطره الربـا، ثـم كل مـالٍ ترتـب عن أي فعل، أو أي تصـرف، أو أي عقد حـرام. والثالثـة: الفرار مـن الزنـا بشـتى مظاهره، من فحش القول وفحش اللباس والنظر الحرام. والرابعـة: هجران الخمـر والمخدرات بشتى أشكالها، والانقطـاع الحاسم عن خبيثـة التدخين. وأمـا الخامسـة: فهي مجاهدة نفسك أبداً لحفظ اللسان من كل قول آثم، كذبا كان أو غيبة ونميمة.

فاحذر أشد الحذر من الاقتراب بَلْهَ الوقوع في هذه المهالـك الخمسـة، فواحـدة منها كفيلة بإحراق كل رصيدك الإيماني والعياذ بالله!

ـ المسلك الثالث: أن ترتب على نفسك برنامجا من الأدعية والأذكـار، قوامـه مـا ورد في السنة الصحيحة من أذكار اليوم والليلة، كدعاء النـوم والاستيقاظ، وأدعيـة الخروج والسفر والركوب، ونحوها، وكذا صلاة الاستخارة قبل الإقدام على عزائم الأعمـال، ثـم الالتـزام بـورد يـومي – مهمـا قَـلَّ ـ مـن سـنن التسـبيح والاسـتغفار والصـلاة علـى النبـي المختـار، عليـه الصـلاة والسـلام.([45]) وفـي ذلـك حِكَمٌ تربويـة بالغة، يأتي تأصيلها ـ مع دعاء الهدى ـ في المجلس الأخير بحول الله.

والنتيجة: أن العبد المتخلق بمقتضيات هذه المسالك الثلاثة يكون عبدا محروسـا بالله، عليه أمان الله وسلامه! ولذلك فهو يهيمن بمقاماته الإيمانية المتجددة علـى كل تصرفاته وأحواله، سواء منها ما هو من أمور دينه أو دنياه، تاجرا كـان أو موظفـا، ومهنيا عاما كان أو اختصاصيا، ورئيسا كان فـي عملـه أو مرؤوسـا، لا يفارقـه فـي شيء من ذلك كله مقامُ: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"؛ بمـا تحقق لـه مـن شـهود بركـة مواقيتها، والتخلق بجمال منازلها، والوفاء بالتزامات عهدها وميثاقها؛ فيكـون بـذلك – إن شاء الله ـ من السابقين!

فيا نفسي المغرورة! تلك هي "كلمات الابتلاء" الملقاة عليك، وتلك هي رسـالتها العظيمة، فماذا حملتِ منها وماذا بقي؟ فواحسرتاه عليكِ! هذا البيـان النبـوي يجـزم أن (القرآن حجـة لـك أو عليـك!)([46]) فكيـف بمـا تقرئينـه منـه صـباح مسـاء؟ ميثاقـا تلتزمين به بين يدي رب العالمين: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"!؟

المجلس الخامس
في مقام التلقي لرسالة الهدى

---

45 ينظر في ذلك كتاب "الفطرية"، ففيه مقترحات مؤصلة.

46 رواه مسلم.

والابتلاء فيه واقع بالكلمات التالية:

1- كلمات الابتلاء:

"اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ. غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ".

2- البيان العام:

هذه خاتمة المناجاة بينك وبين ربك، الرحمن الرحيم، وبتمامها يغمرك سبحانه بفضله ورحمته، فيقول لك: (هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ!) لقد وصلتَ الآن إلى الغاية، فتمتع بنور الهداية! هنيئا هنيئا! فإنما الهدى جائزة المكابدين لمنازل: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"! أما وقد وصلتَ؛ فَلَكَ الآن يا صاح أن تسأل ما تريد..! فماذا تسأل؟ وهل في نِعَمِ الله بهذه الدنيا شيءٌ أعظم من نعمة الهدى؟ ذلك النور العظيم الذي ليس بعده إلا جحيم الظلمات وشقاء الضلال! فافتح قلبك للتلقي يا صاح! ولندخل جميعا تحت أنوار هذا البيان!

" اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ"، تعني: أرشدنا يا ربنا إلى معرفة الطريق المستقيم الموصل إليك تحقيقا، ووفقنا للاستقامة على منهاجه تثبيتا. فإنما الهداية الكاملة إرشادٌ للعقل وتثبيتٌ للقلب! وتلك هي حقيقة الْهُدَى. فالصراط المستقيم: هو الطريق الواضح البَيِّنُ الذي لا اعوجاج فيه. وقد يكون المرء على طريق الإسلام على الإجمال، لكن لا يكون على هدى "الصراط المستقيم"؛ بما قد يعتريه من النقص والانحراف في الاعتقاد أو في السلوك، أو فيهما معا؛ مما ينتج عنه اضطراب في المنهاج واختلال، يزيد وينقص على حسب حجم ذلك الاضطراب ونوع ذلك الاختلال.

فالْهُدَى هنا إذن أخص من عموم الهداية الحاصلة بالإسلام، وإن كانت هذه مقدمة لذاك، ومنطلقا له. إلا أن هدى "الصراط المستقيم" هو الغاية من كل سلوك، وهو المقصود من كل عبادة، إنه كمال الإيمان وصفاء الإخلاص. فهو معرفة يقينية بمسلك الوصول إلى الله، بعيدا عن فتن القيل والقال، من المشارب المختلطة بالابتداع العقدي والانحراف السلوكي، مما قد يعتري المنهاج العام للمسلم على الإجمال. فالصراط المستقيم: إنما هو طريق أهل اليقين وكمال الإيمان، ودونه ما دونه من مفاوز المجاهدة والمكابدة! فمن تحقق به فقد نال تاج النعم، وكمال الهدى! فأكرم به وأنعم! ولذلك وجب السعي إليه في كل صلاة، دعاءً أبديا يستغرق العمر كله!

وإلى نحو ذلك ذهب غير واحد من المفسرين. ورجَّحه ابن عطية الأندلسي بعدما ذكر اختلافهم في معنى "الصراط" بين معنى القرآن، وبين معنى الإسلام، وبين معنى سنة الرسول – صلى الله عليه وسلم - وصاحبيه أبي بكر وعمر، قال رحمه الله: (ويجتمع من هذه الأقوال كلها أن الدعوة إنما هي في أن يكون الداعي

علـى سَنَنِ المـنعَم علـيهم، مـن النبيئـين والصـديقين والشـهداء والصـالحين، فـي معتقداته، وفي التزامـه لأحكـام شرعه، وذلك هو مقتضـى القرآن والإسلام، وهو حـال رسـول الله - صـلى الله عليـه وسـلم – وصـاحبيه (...) وأقـول: إن كـل داع بـه فإنما يريد: "الصراط" بكماله، في أقواله وأفعاله ومعتقداتـه، فيحسن علـى هذا أن يدعو في الصراط على الكمال مَنْ عنده بعضُه.)([47]) يعني: أن الجدير بهذا الدعاء الذي يراد به طلبُ الكمال، إنما هو مَنْ عنده بعض معناه، وهو عموم الإسلام مهما شابه من نقص، أي: ولو لم يكن في التزامه إياه على تمام الكمال؛ ولذلك ناسب أن يسعى إلى غايته ومنتهاه بهذا الدعاء. فيكون طلب الهداية إلى الصراط المستقيم طلبا لكمال الهدى وتمام الاستقامة!

وخصوص هذا المعنى من مفهوم "الصراط المستقيم" واضح من بيانه الوارد بعدُ مباشرة في السورة، على سبيل التعريف: "صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ"، وهؤلاء وقع الكشف عنهم في سورة النساء، بسياق دال على كل كمال التثبيت على الحق، مع صنف خاص من المؤمنين وهم: الكُمَّلُ من أهل السبق واليقين، من طبقة الأنبياء ورفيقهم! وذلك قوله تعالى في حق بني إسرائيل: (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً. وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيماً. وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً. وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً!)(النساء: 66- 69)،

وتقييد الدعاء بهذا الوصف المبعد لفئة المغضوب عليهم، ولفئة الضالين، "غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ" – رغم بُعْدِ المسافة الفاصلة بينهم وبين المنعم عليهم - دال على أن المسلم غير المتحقق بصراط أهل اليقين، وغير المتأسي بهديهم، لا يأمن على نفسه أن تزيغ به الشهوات والأهواء؛ فيتردَّى في جحيم العذاب؛ بما يقع عليه من غضب الله، أو يضيع في متاهات الضلال؛ بما يعبد من هواه! تماما كما وقع لليهود من قبل، وكما وقع للنصارى بعدهم!

فقوله تعالى: "غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ" أي غير طريق المغضوب عليهم وهم "اليهود" الذين وصفهم الله بقوله: " فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ"([48]).

وقوله سبحانه: "وَلاَ الضَّالِّينَ." أي وغير طريق الضالين، وهم "النصارى"، الذين وصفهم الله بقوله: " قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ"([49]).

---

[47] المحرر الوجيز: 74/1.

[48]- البقرة: 90

[49]- المائدة: 77

وموجبات الغضب والضلال كلها أمراض معدية، لا أحد بمنأى عنها، ولو كان من المسلمين! اللهم إلا من عصمه الله بالتثبيت على هدى "الصراط المستقيم"، ووفقه إلى التزام منهاجه القويم. فلا غرو إذن أن يكون ذلك دعاءَنا عند مناجاة الرحمن، في كل ركعة من كل صلاة، سائرين إليه عبر مواقيتها، متقلبين في أحوال العبودية بين يديه تعالى، متقربين ومتزلفين، ما بين منازل الليل والنهار، ونحن نتوجه إليه بطلب نعمة الهدى، ونجأر إليه بأصدق ما يكون الْجُآرُ والاستغاثة؛ رجاءَ بشارة الاستجابة، بما تفيض به من نور، وتتنزل به من أمان وسلام: آمين!

3- الهدى المنهاجي:

دعاء الهدى من هذه الآيات هو الغاية التي تنتهي إليها سورة الفاتحة. فإذا كانت آيةُ "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" هي خلاصتها وروحها، فإن دعاء: "اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ. غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ!" هو ثمرة تلك الخلاصة، وبشارتها المتنزلة على العبد، هديةً تملأ قلبَه بالأمن والسلام؛ تحيةً من الله السلام! وإذناً منه - جل علاه - بدخول جنات القرآن! فكانت هذه الآيات هي مصب روافد سورة الفاتحة، ومجمع بحورها، وخزانة أسرارها. والفاتحة متضمنة لكل رسالات القرآن! فأنى لنا استيعابها في كلمات؟ كيف وها الله - جل جلالُه – قد أثقلها بما أثقلها به من كنوز، وجعل فيها ما جعل من عمران، يختصر قصة الوجود ومسيرة الإنسان! ثم طواها لنا طَيّاً، تيسيرا لتلاوتها في لحظات برحمته، وثناها لنا ثنياً معجزا؛ حتى كانت الفاتحة هي "السبع المثاني والقرآن العظيم"![50] فانطوت بذلك على كل حقائق الإيمان، واختصرت كل قصة السير إلى الرحمن! فمن ذا قدير على تلقي رسالات الهدى من خاتمتها في لحظات؟!

وإنما لنا أن نبقى مع رحمة الثَّنْي؛ بما تحيل عليه من رسالات القرآن العظيم، وترشد إليه من مسالك وممالك، وفيما تعرضه من عمران، وتَبْنِيهِ من مدارج ومعارج، ترتقي بالعبد إلى منازل الجوار العظيم، سيرا على صراط المنعم عليهم، من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

فجعلنا هذه الآيات - لذلك - متضمنةً على الإجمال الكلي لخمس رسالات، هي:

- الرسالة الأولى:

بما أن دعاء الهدى من هذه السورة، وُضِعَ لِيُتْلَى معها في كل صلاة؛ تجديدا للإيمان، وإلحاحا على الله تعالى بالحاجة والافتقار؛ فقد حق على العبد الالتزام بأوراد الأدعية والأذكار على كل حال – كما أشرنا إليه في المجلس السابق - وتكرارها بالليل والنهار! والحكمةُ المرجوة منها بهذا المجلس هي أن تكون روافدَ

[50] مقتضى حديث صحيح سبق تخريجه.

روحيةً لدعاء الهدى في الفاتحة، ورافعةً للعبد إلى مقام شهوده، بما له من تميز وخصوص. وبيان ذلك هو كما يلي:

قد تواتر أولا أن الصلاة هي عماد الدين، وأنها خير العبادات، ثم تواتر أن الفاتحة هي أهم أركانها، وأنها أم القرآن وخلاصته، ثم تحقق أن الدعاء هو ثمرتها ونتيجتها، كما أن الدعاء هو مخ كل عبادة، وقد صح قول النبي صلى الله عليه وسلم: (الدعاء هو العبادة!)([51])

فآل أمر الدين في نهاية المطاف إلى حكمة الدعاء، بما هو سير إلى الله بالافتقار الصادق، الذي يربي القلب على صفاء الإخلاص. فلزم من ذلك كله وجوب سير العبد إلى الله بالدعاء على الإجمال، يحققه في كل عبادة، ويتخذ لنفسه منه أورادا – مهما قَلَّتْ - على حسب مواقيت الليل والنهار، وعلى حسب أذكار اليوم والليلة.

ذلك صريح منطوق القرآن في قوله تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ!)(غافر:40-60) وعلى هذا يفهم قوله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ لاَ يَدْعُ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ!)([52]) أي: بما هو قد استغنى عن الله! فكأنما الحديث تفسير للآية. ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها : (سَلُوا اللهَ كلَّ شيء! حتى الشِّسْعَ! فإن الله - عز وجل - إن لم يُيَسِّرْهُ لم يَتَيَسَّرْ!)([53]) وهو تعبير بليغ عن حقيقة التوحيد وإخلاص الدين لله؛ عقيدةً وعملاً. وذلك هو جماع مقاصد القرآن، وخلاصة غاية الدين، (إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ. أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)(الزمر: 2-3). فالدعاء هو التعبير الجامع عن حقيقة الإخلاص، بما هو توجه إلى الله بالافتقار الصادق، رغباً ورهباً، توحيداً وتفريداً. وما من عبادة إلا وهي تؤول إلى هذا المعنى العظيم، الذي هو مخ الدين!

وعليه؛ فكما أن سائر العبادات خادمة للصلاة، باعتبار أن الصلاة هي "عمود الدين"، وأنها خير أعمال المؤمن، كما تواترت بمعناه الأحاديث([54])؛ فإن سائر الأدعية خادمة لدعاء الهدى، باعتبار أن هذا أعلى مقام يناله العبد من ربه! فيحتاج لشهود مقامه إلى سير إليه عبر أدعية شتى بالليل والنهار! فانظر كم هو تعيس من يغفل عن أوراد الدعاء!

---

[51] رواه أحمد، وأصحاب السنن الأربعة، وابن حبان، والحاكم، عن النعمان بن بشير مرفوعا. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

[52] أخرجه الحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي . وقال الألباني: "هو حديث حسن". انظر السلسلة الصحيحة: 2654.

[53] قال الألباني: "أخرجه ابن السني رقم: 349، بسند حسن". والشِّسْعُ: أحد سُيُورِ النَّعْل، مما يعقد به.

[54] من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة! ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن.) أخرجه ابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

الرسالة الثانية:

في أنَّ هُدَى الصراط المستقيم هو أعظم نعمة نازلة من رب العالمين على الإطلاق! وأعظم رحمة تجلت عن اسميه الكريمين: الرحمن الرحيم؛ فكان ذلك هو خير ما يطلبه المؤمن من مولاه؛ لأن به أو بعدمه يتحدد مصيره الأخروي في مملكة الحق، عند ملك يوم الدين. فيا لتعس من خسر ذلك المصير! ويا لسعد من فاز بنجاته وسلامه، وصار إلى مقام جماله!

فيا نفسي الجهولة! إلى متى وأنت منشغلة بسفاسف الأهواء والشهوات؟ وإلى متى وأنت مُعْرِضَةٌ عن برامج الأوقات والصلوات؟ ولاهية عن مجاهدة الخطايا والزلات؟ ثم إلى متى وأنت متراخية عن التشمير عن ساعد الجد في طلب الهدى، وحث الخطى للحاق بقافلة الْمُنْعَمِ عليهم، من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين؟ فبأي رفيقٍ انشغلتِ عن صحبتهم؟ وبأي فتنةٍ عَمِيتِ عن مشاهدتهم؟ وبأي شيطان انقطعتِ عن متابعهم؟ ثم بأي دعوة فاجرة انصرفتِ عن صراطهم المستقيم؟ إنكِ يا نفسُ إن لم تدخلي في العمل الواقف الآن بحقه عليكِ، فعلى دينك السلام! وإنكِ يا نفسُ إن لم تبادري إلى التوبة من التنقل بين السُّبُلِ هلكتِ! فراية القرآن واحدة، ورسالة الهدى لها زمن معلوم هو معيارها، إن فَاتَكِ إبَّانُه فَاتَكِ كلُّ شيء! فالبِدَارَ البِدَارَ قبل فوات الأوان!

الرسالة الثالثة:

في أن الحياة سير قهري إلى الله، وإنما الاختيار واقع بين طريق مستقيم موصل إلى رحمة الله، وبين طريق معوج موصل إلى عذاب الله. إننا كادحون إلى الله كدحا فملاقوه! لا خيار للبشرية في ذلك أبدا! وإنما وصية الله جاءت ببيان الصراط المستقيم هُدًى للعالمين؛ حتى يكون الكدح سيرا إلى رضى الله لا إلى عذابه! (وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(الأنعام: 153).

فيا صاح! إنك راحل إلى الله حتما، وما عمرك هذا المتناثر من بين يديك صباح مساء إلا دلالة صريحة على السير الحثيث، فبعد قليل ستنتهي الرحلة، ونقف على محطة القبر – أنا وأنت! - لنلج عالمَ البرزخ، في انتظار اجتماع أجيال الخلائق لليوم الموعود!

الرسالة الرابعة:

في أن الهدى - بوصفه توفيقا وتثبيتا، وبوصفه نعمة ورحمة - لا يكون إلا من الله وبه! هو وحده تعالى مصدر الهدى، وهو وحده مصدر التوفيق إليه، والإرشاد إلى صراطه المستقيم، والتثبيت على التزامه، والتحقق من صفاته وشروطه؛ لذلك فلا إمكان للوصول إلا بما دل عليه هو تعالى من آيات وعلامات. فمن رجا أن يهتدي بغير هدي الله فقد ضل ضلالا بعيدا! فلا يغرنك قول فلان أو علان ممن

نصب نفسه دالا على الله بغير منهاج الله! وإنما منهاج الله هو هذا القرآن العظيم. وبذلك جاء الجواب للداعي - بعد ختام دعاء الهدى في الفاتحة مباشرة – بياناً له، في أول سورة البقرة: (ألَمِّ. ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ!)(البقرة:1). ثم ورد البيان النبوي بعد ذلك بعرض منهج الاشتغال بالقرآن وتصريف آياته في الحياة.

فيا قلبي العليل! هذا دواؤك الشافي! فلا تلتفت عنه إلى ما تزينه لك الأهواء، وما يلقيه الشيطان في خواطرك المضطربة، من العدول عن الحق الواضح المبين – في الدعوة والتربية والسلوك - إلى بدع أصحاب الأهواء! فإنما تلك فتنة عمياء وضلالة صماء! ورب شيخ نصب نفسه دالا على الله، وما هو في الحقيقة إلا حِجَابٌ ثقيلٌ من الْحُجُبِ الصَّادَّةِ للخلق عن الله!

فالقرآنَ القرآنَ!.. القرآن زاد الدعوة والدعاة، والقرآن منهاج العبادة والحياة، والقرآن صراط الهدى المستقيم الموصل إلى الله، فماذا تلقيتَ يا صاح بقلبك من هداه؟ وماذا قَدَحْتَ من نوره بين يديك؛ لضبط السير ومعرفة الاتجاه؟ فيا طالب الشفاء للنفس، ويا طالب الغذاء للروح، ويا طالب الصلاح للبلاد والعباد! ذلك هو الحق الذي لا حق سواه! (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلاَّ الضَّلاَلُ؟ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ؟!)(يونس:32).

الرسالة الخامسة:

في أن من علامات الهدى، ومن شروط السير على صراطه المستقيم، الاقتداءَ الجميل والتأسي الحسن بمجاهدات الْمُنْعَمِ عليهم، والسير على سَنَنِهِمْ، من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين. والتشمير عن عزائم الصبر؛ للالتزام بمسلكهم، والدخول في صحبتهم، ونقل الخطى إلى مجالسهم؛ للغَرْفِ من علمهم، والتخلق بسمتهم، وتلقي حكمتهم، والانضمام إلى قوافلهم السائرة إلى الله. فقوافلهم لا تنقطع أبداً، ومدرستهم مفتوحة سَرْمَداً، فسجل قلبك بفصولها، وادْخُلْ مجالس القرآن!

4- مسلك التخلق:

وأما الدخول في مسالك هذه الآيات، على سبيل الابتلاء بكلماتها، والتخلق بحِكَمِهَا، بما هي باب الدخول إلى عالم القرآن، وفاتحة النور الهادي إلى الرحمن، فهو قائم على قطع خمس خطوات منهجية، وهي كالتالي:

- الخطوة الأولى: تحقيق شهود الافتقار إلى الله عند تلاوة دعاء "اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ. غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ!" ومجاهدة النفس أن تشرد في متاهات الغفلة، عند تلقي أنوار التلاوة للكلمات.

- الخطوة الثانية: مطالعة معالم الهدى ومشاهدة جماله، في نماذج الْمُنْعَمِ عليهم من السابقين، وعلى رأسهم أسوة الخلق أجمعين، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم مَنْ كان معه من الصحابة الميامين، وخاصة منهم خلفاءه الراشدين. فوجب أن

نتلقى منه - عليه الصلاة والسلام – هَدْيَهُ في كل شيء، وأن نتعرف على معالم سيرته، ومنهاج سنته، في تعامله مع ربه بالليل والنهار، وتعامله مع أهله، وأصحابه، وأعدائه، في كل أحواله. ثم وجب أن نتدارس سنة خلفائه المهديين الراشدين من بعده، ساداتنا: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رضوان الله عليهم أجمعين، ففي سنتهم من معالم الهدى ما وجب أن نعض عليه بالنواجد!

- الخطوة الثالثة: الحرص على شهود صلاة الجماعة بمساجدها؛ لأنها من أهم معالم الهدى، ومقياس دقيق لمعرفة موقعك من هدى الصراط المستقيم. فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه – قَالَ: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ! فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى! وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ! وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ؛ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً. وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ! وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ!)([55])

- الخطوة الرابعة: مجاهدة النفس بالقرآن؛ حتى لا تَفْتَتِنَ عن منهاج الفطرة، ونور الصراط المستقيم، بالالتفات إلى بهارج الهياكل والألقاب، وملاهي الطوائف والأحزاب. ويتم ذلك بالدخول إلى مجالس التلقي للقرآن الكريم، والالتزام بمواعيدها، فهي خير من الدنيا وما فيها! ففي رياضها تتنزل الرحمة والسكينة، وبفضائها تحتف الملائكة، أنوارا تصل أرواح الجلساء بالسماء، لتلقي الهدى من الله، ونيل شرف الذكر في الملأ الأعلى! فأكرم به مجلسا وأنعم! ذلك بيان الرسول لمنهاج تلقي القرآن، في قوله صلى الله عليه وسلم: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن أبطأ به عملُه لم يسرع به نسبُه!)([56])

فيا جليسَ الملائكةِ أَبْشِرْ بالهدى والصلاح!

- الخطوة الخامسة: تخصيص وقت خالص - من حين لآخر - للخلوة إلى النفس، لتنظر فيما بينك وبين ربك؛ حتى يصفو لك النظر إلى سيرك؛ فترى موقعك من صراط الله المسقيم، قُرْباً أو بُعْداً، واستقامةً أو حَيْداً، فتحاور نفسك وتناقشها، مساءلةً عما فات، وبحثا فيما أضمرت من مقاصدها لما هو آت، على سبيل التقويم والمحاسبة.

---

[55] رواه مسلم.

[56] رواه مسلم

ومقاييسك النقدية التي تحاسب بها نفسك، وتقوم اعوجاجها، عبارةٌ عن مرآة ثلاثية الأبعاد، تكشف لك الصورة الحقيقية لنفسك الأمارة، وتظهر لك كل ما بها من غش وثلمات، أو ما بها من ضعف وهَنَات. فالمقياس الأول: هو مرآة الصلوات والأوقات. والمقياس الثاني: هو برنامج القرآن. والمقياس الثالث: هو مدى انقطاعك عن كبائر المحرمات. وتلك أمور سبق بيان مسالكها العملية وموارد‌ها التطبيقية.

حتى إذا رأيت ما رأيت من نفسك وأحوالها، وشاهدت ما شاهدت من أمراضها وأدرانها، رسمت خطتك للانتقال من حال إلى حال، ووضعت طريقتك للتدرج من مقام إلى مقام. ثم تعزم – بعد ذلك – عزمتك، وتتوكل على الله، مستعيذا به تعالى من كل شيطان رجيم، ثم تهرع بالمبادرة إلى صلاتك! - فهي أول مداخل التصحيح والتقويم - تَجْأَرُ فيها إلى خالقك، وتدعوه رَغَباً ورَهَباً: "اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ. غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ!" آمين!

خاتمة

تلك بعض معالم الهدى المتلقَّى من سورة الفاتحة، وتلك بعض رسالاتها. وإنما تتحقق حكمتُها لمن كَابَدَهَا، إذ لا حظ من الحكمة ولا من التخلق، لقارئٍ بغير مكابدة ومعاناة! فهذه مسالك العمل واضحة بين يديك، وهذه حجة الله قائمةٌ أبداً عليَّ وعليك! وهذا العمر يتصرم منا اللحظة تِلْوَ الأخرى! فالبِدَارَ البِدَارَ قبل وقوع الخَسار..!

ذلك، وإنما الموفَّق من وفقه الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

سُورَةُ الفُرْقان

"مكية وعدد آياتها: 77"

وهي تتضمن خمسة عشر مجلسا

تقديم

سورة الفرقان! سورة ولا كأي سورة!

إنها بوابةٌ عظيمة للقرآن الكريم! بوابةٌ لمعارج الروح نحو منازل الأسرار والأنوار! ولسياحة القلب في عالم المُلْكِ والمَلَكُوتِ! حيث جمال الأنس بالله، وحيث استدرار بركاتِ رضاهُ ونعمةِ هُدَاه. وإنَّ بها لكلمات! وإنَّ لها لرسالات! ما تَلَقَّى عبدٌ شيئا منها - وهو في مقامها - إلا تَوَهَّجَتْ بصيرتُه بنورِ الْهُدَى! وكان له من الله في قلبه نُورٌ وفرقانٌ عظيم!

فالـداخل منهـا إلـى فضـاء القـرآن الفسـيح يكتسـب مَسْـلَكاً فريـدا فـي تَلَقّـي رسالاته! إنها موطن التحلي بالخبرات الأساسية التي يتيحها القرآن للمؤمن في الدين والدعوة جميعا. إنها تعرض خلاصة المنهاج القرآني في السير إلى الله ديناً ودعوةً، بما لا تجده في غيرها بهذا التركيز وبهذا الشمول! ففيها المنهاج، وفيها البرنامج، وفيها التقويم! مدرسةٌ كاملة من أولها إلى آخرها، بها مراحلُها وفيها فصولُها، ومنها دروسُها. وعلى عين رب العزة - جَلَّ جَلاَلُهُ - يكون التمدرس فيها! وإن المتخرج منها ليكتسب فرقانية الدعوة وفرقانية الدين!

ولكنها تحتاج مني ومنك إلى تجريدٍ وتفريدٍ!

أما التفريد: فهو توحيد القبلة تجاه هذا القرآن، لأن ربيعه الرقراق لا يقبل الشريك في مصدريته التربوية، كما أن مصباحه الدري لا يتوهج إلا بزيته الخالص. فإذا ما عَكَّرْتَهُ بزيت مغشوش، انقبضتْ عن روحِكَ أسرارُه، ولم تنعكس على قلبك أنوارُه! وإذن يفسد الذوق وتختل المقاييس! ويضيع منك الفرقان!

وأما التجريد: فهو تفريغ القلب من الأهواء! والتجرد لله من كل حول وقوة! والدخول إلى جنة كتابه بافتقار كامل وبعبدية خالصة! فالقرآن لا يفتح كنوز أسراره إلا لمأذون! ولا إذْنَ لمن تعلق بقلبه شيءٌ من كبرياء الهوى واستعلاء الفهوم! (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ!)(النور:40) فاخضع لربك واخنع قبل طرق الباب!

فيا ربي الكريم! ها أنا ذا عبدك الفقير عدت إليك تائبا منيبا! أحمل أثقال ذنوبي وخطاياي! أطرق باب رحمتك وعفوك.. قد أثخنتني الجراح في متاهات الشرود عن واحات منهاجك! وهذه العِلَلُ والأهواء قد هَدَّتْ قلبي وأنهكت روحي! فالعين يلفحها ألم! والأذن يخرسها صمم! والقلب يعصره ندم! وما لي من دواء إلا في سقاء رحمتك ونور فرقانك!

فاللَّهُمَّ أنتَ ربي لاَ إلَهَ إلا أنتَ! خَلَقْتَنِي وأنَا عَبْدُكَ، وأنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وأَبُوءُ لكَ بِذَنْبِي! فَاغْفِرْ لِي! فَإنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أَنْتَ!

وتَكَرَّمِ اللَّهُمَّ بِوَارِدَاتِ الرِّضَى والقَبُولِ، وافتَحْ لِي أبْوَابَ رَحْمَتِكَ!

المجلس الأول
في مَقامِ التَّلَقِّي لِرِسَالَةِ الفُرْقانِ

والابتلاء فيه واقعٌ بالكلمات الأولى من السورة، فاقرأ آياتها كلمةً كلمةً! اقرأها ترتيلاً وترسيلاً، اقرأها بشهود القلب لبصائرها، الواحدة تلو الأخرى، ثم تدبر!

فيا نفسي الكسولة الجهولة.. تأدبي بمجلس الدرس! إن للقرآن العظيم لَقَدْراً، وإن لملائكة الرحمن عليكِ لحقّاً! واجعلي على القلب لسان صدقٍ وميزانَ عبادة؛ ألاَّ تَزِلَّ كلمةٌ طائشةٌ عن فَلَكِ القرآن؛ فتنصرفَ عنكِ مَلاَئِكَةُ الذِّكْر، ضاربةً بأجنحة النور نحو السماء، وتدعك غارقة في ظلمات القيل والقال!

1- كلمات الابتلاء:

أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً(1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً(2) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً)(3).

2- البيان العام:

هذه سورة من أعجب السور في القرآن! إنها سورة التعريف بالقرآن، وبرسالة القرآن، القرآن بما له من الأوصاف التعريفية الجامعة المانعة: "الفرقان"! هذا الوصف الفصل، الذي يميز الوحي الإلهي عن سائر ضروب الخطاب، ويعطيه صبغته الفرقانية التي تقهر وتبهر! وتشق للبشرية الحائرة في ظلمات الضلال طريق النور الواضح المبين!

والفرقان اسم من الأسماء الأعلام على القرآن العظيم، كما هو واضح من مطلع هذه السورة: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً)، وكما في قوله تعالى من سورة آل عمران: (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ)(آل عمران: 3-4).

وفي تسمية السورة بهذا الاسم الجامع دلالة وأي دلالة! ولذلك كانت متفردة – من بين سور الكتاب - في شمولها لرسالة القرآن! وفي تعريفها بطبيعة القرآن، وعرضها لقضية القرآن! بما يجعلها في طليعة السور التي لا بد للمؤمن الرباني أن يتلقى رسالاتها كلمةً كلمةً! وأن يدخل في ابتلاءاتها مَنْزِلَةً مَنْزِلَةً! ولذلك فقد كانت من الشطر المكي الأول من القرآن العظيم([57])، ثم صارت من المحفوظ المتداول لدى كبار الصحابة - رضوان الله عليهم([58])؛ وذلك حتى تعلم الجماعة المؤمنة الأولى طبيعة هذا الدين الذي آمنت به، وحتى يعلم الناس المخاطبون بالقرآن، طبيعة هذا الوحي الذي يدعوهم إلى الإيمان.

---

[57] نزلت بعد سورة يس. ورقم ترتيبها حسب النزول هو: 42، من 86 سورة نزلت بمكة. ينظر ذلك – في دراسة موثقة - في التفسير الحديث للشيخ محمد عزة دروزة: 1/15-16.

[58] يدل على ذلك ما ثبت في الصحيحين وغيرهما، من قصة اختلاف القراءة فيها بين الصحابيين الجليلين عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم بن حزام، وجواب النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله: (إن هذا القرآن أُنْزِلَ على سبعة أحرف..) الحديث.

وعليه؛ فإن شئت أن تجعل لهذه السورة موضوعا رئيسا، وشخصية خاصة، تميزها عن سائر السور؛ فلك أن تقول: إنها سورة التعريف بالقرآن، بما هو رسالة ذات قضية فرقانية! تعمل آياتها أول ما تعمل داخل تلك النفس التي تلقتها ابتداءً، فإذا بكلماتها تتحول - عند التلقي - إلى مقاصل ومقارض للتهذيب والتشذيب، تُنَفِّذُ عملياتها الجراحية في عمق النفس الإنسانية تزكيةً وتربيةً؛ حتى تُخرج للناس - بعد ذلك - عبدا فرقانيا، يكون نموذجا حيا لرسالة القرآن!

ومن هنا كانت آياتها من أوقع كلمات القرآن على النفس! وكانت رسالاتها من أشد المسالك ابتلاءً للعباد! ومن ثم كانت زبدة مخيضها أن تَخَرَّجَ من محنتها: (عباد الرحمن) بما ذُكِرُوا به من مقامات ربانية، ومنازل رحمانية، لا يدركها إلا من شق مسالكها عقبةً عقبةً!

فيا نفسي المريضة! هذه يد الرحمة الفرقانية تمتد إليك بمشرطة الشفاء، فهل تصبرين؟ فاكشف عن صدرك يا صاح! ولنستسلم معا – أنا وأنت - على مشرحة الفرقان؛ لله رب العالمين؛ عسى أن نكون موضوعا لكلمات القرآن، وعلاجات القرآن!

فذلك باب الدخول إلى سورة الفرقان. ولنبدأ قضيتنا معها – في مجلسنا هذا - من البداية:

إن نعمة القرآن بما هو نذارة رحمانية مباركة، إنما تنـزلت لتشق طريق النور للعالمين، مشكاةً ربانية تتدفق أنوارُها من قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإنها لجديرة إذن بحمدٍ وشكرٍ يستغرقان حياةَ العبد المسبح ربَّه أبداً! لأن عظمة هذه النعمة أكبر من يحيط بها خيال الإنسان إحصاءً ولا عدا، وأكبر من أن تستنفد البشرية بركاتها وأنوارها! فأي لسان قدير على شكر ما لا ينحصر بلسان؟ إنه لا كمال لثناءٍ على الله - جل جلاله - إلا بما أثنى هو على نفسه، سبحانه وتعالى! ولذلك لم يكن كمالُ شكر نعمة القرآن إلا بالقرآن! فقال تعالى حامداً لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله من القرآن العظيم: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً!) هكذا "تَبَارَكَ" بهذا التعبير الدال على الرفعة والتكثر والزيادة والاستمرار للبركة، من تَفَاعُلِ فِعْلِهَا الرباني، وتَكَثُّرِ نورها الرحماني. فلن تزال بركات الله علينا تترى ما دام هذا القرآن يتلى، وذلك هو الفضل العظيم الذي لا ينقطع خيره أبداً! فتبارك الله بما نزل على عبده من بركات! فكان هذا الفرقان نذارة كونية ورسالة عالمية، يخرق نورُها حجبَ الزمان والمكان؛ ليشق طريق الهدى بقوة؛ كي تستبين سبيلُها للبشرية الضاربة في تيه الظلمات! فلك الحمد ربَّنا كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك!

وإنما يتعرف المؤمن على عظمة القرآن، عندما يتعرف على عظمة المتكلم بالقرآن: الله رب العالمين! إذْ قيمة الكلام إنما هي بقيمة من تكلم به. فإذا أبصرت

هذا السر انكشفت لك كنوز القرآن! ولذلك قال سبحانه بعدُ مباشرة، على سبيل التعريف بمنزل القرآن: (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً). فكأنَّ المتلقي عندما سمع فاتحة السورة: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ).. الآية، ولم يُفصح عن اسم الجلالة: الله؛ تساءل: من هذا (الذي..) إذن؟ فجاء البيان بأوصاف الربوبية المطلقة، بما تتضمنه من معاني الفردانية في الملك، والتنـزه عن الولد والشريك، وشمولية الخلق والتقدير لكل شيء! فتبين إذن أن المنـزل للفرقان هو هذا الرب العظيم، الرب المالك وحده لكل شيء، الخالق وحده لكل شيء! فما من شيء في هذا الوجود، من مُلك السماوات والأرض، إلا وهو صادر عن شؤون ربوبيته، خاضع لعظمة سلطانه، تحت قهره وتدبيره، وحكمة تسخيره وتقديره. ومن هنا صدر عنه - جَلَّ جلالُه - هذا القرآن، على موازين حكمته ورحمته. ذلك هو هذا (الذي) نزَّل الفرقان! فأبصرْ أيَّ فرقانية عظيمة تحمل كلماتُه للعالمين! وأيَّ عبد كريم هذا الذي بُعِثَ به نذيراً للناس أجمعين!

وإن تَعْجَبْ، فَعَجَبٌ كل العجب، أمر هؤلاء الذين يُعرضون عن هذه الحقيقة الكونية العظمى! ثم يتخذون من دون هذا الرب العظيم - بما عرفنا عنه من صفات جليلة - آلهة باطلة عاجزة! لا تملك من صفات الربوبية شيئا! (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً). هذه مفاتح معاني الربوبية الحقة: فعل الخلق، وهؤلاء لا يخلقون شيئا بل هم قد خُلِقوا خلقا! وكفى بذلك مفتاحا للتعرف على الله وأي مفتاح! ثم هم لا ينفعون ولا يضرون، ولا يُحيون ولا يميتون، ولا يبعثون أحدا من بعد موات! فأي آلهةِ زورٍ هذه!؟ وأي أربابِ باطلٍ وبهتان!؟ ثم أي ظلم هذا الذي يقترفه الإنسان الضال الجهول عندما يضرب بحق الخالقية عرض الحائط، ويتمرد على الخالق ويعبد المخلوق؟! كيف وها شؤون الربوبية كلها مرجعها إلى الله؟! فهو الرب الذي لا إله غيره ولا رب سواه! وهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده جل علاه، الأحد الصمد، الذي لا والد له ولا ولد، ولم يكن له كفؤاً أحد!

3- الهدى المنهاجي:

وهو يتفرع إلى خمس رسالات، هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في أن أول الواجب على المؤمن بهذا القرآن هو شكر المنعِم بتنـزيله. وخير الشكر إنما هو تلقي رسالاته بالدخول في منازله والتخلق بِخُلُقِه، أي تَلَقِّيهِ بما هو مُنَزَّلٌ تنـزيلاً لا بما هو مُنْزَلٌ إنزالاً فحسب. لأن الفرقانية لا تحصل للمؤمن إلا كذلك.

وقد قال تعالى ههنا: "تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقانَ" هكذا: "نَـزَّلَ" بصيغة "فعَّلَ"، من التكرر والتكثر، بخلاف "أنزل" التي تدل على المرة الواحدة. وعلماءُ القرآن على أن "الإنزال" الذي هو من فعل "أنزل" كان للقرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا. وكان ذلك دفعة واحدة في ليلة القدر. بينما "التنـزيل" الذي هو من فعل "نَـزَّلَ" كان من السماء الدنيا إلى الأرض منجما أي مفرقا، بقصد التربية والتكوين للإنسان على مهل؛ لبناء النفس المؤمنة والمجتمع الإسلامي، بما يغرس جذوره في تربة العمران البشري، مؤصلة في عمق الوجود إلى يوم القيامة. وهذه الصفة إنما هي خاصة بهذا القرآن. وهو قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ)(النساء: 136)؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنـزل جملة واحدة، والقرآن نزل منجماً مفرقاً مفصلاً، آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سور. وهو قوله تعالى: (وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنـزِيلاً)(الإسراء: 106).

فإذا رغبت في تلقي القرآن حقيقةً، لتتخلق بفرقانيته فما عليك إذن إلا الدخول في ميثاق التنـزيل، والشروع في تلقي برنامج القرآن آيةً آيةً؛ حتى يصير لك ذلك منهاج حياة، وتكون - بإذن الله - من الشاكرين لنعمة الفرقان، محققا لرسالة: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ) الآية.

- الرسالة الثانية:

في أن الصفة الوظيفية الجوهرية لهذا القرآن إنما هي كونه فرقانا، يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والظلمات والنور. وهي صفة عامة شاملة حتى إنه صارت له اسما عَلَماً، تستقل بتسميه على ما استغرقه اسمه من معان! فهو: الفرقان. وفي ذلك رسالة مهمة جدا مقتضاها أن هذا القرآن هو البرنامج الذي وجب على المسلم أن يعتمده في تبين طريق السير إلى الله، وفي تلقي حقائق الإيمان الدالة على سبيل الرشاد. ففيه يجد المؤمن المتبصر معالم كل شيء، مما هو في حاجة إليه من أدوات الكشف عن الصراط المستقيم. إنه بوصلة الخروج من حال الحيرة إلى حال اليقين، ومن ظلمات الفتن إلى نور الحق المبين.

وفي ذلك رسالة أيضا في أن ابتغاء الهدى من غيره ضلال! وليس عبثا أن يكون ذلك من آخر وصايا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لهذه الأمة؟ وهو قوله البَيِّنُ المليح لأصحابه: (أبشروا.. أبشروا..! أليس تشهدون ألا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قالوا : بلى، قال : فإن هذا القرآن سَبَبٌ، طرفُه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به! فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبداً!)[59].

[59] رواه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شعبه، وابن أبي شيبة في مصنفه، والطبراني في الكبير، وعبد بن حميد فى المنتخب من المسند. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 713.

- الرسالة الثالثة:

وهي أن هذا القرآن لن يكون له أثره في البشرية من النذارة والإنارة، إلا من خلال نماذج بشرية حية، تشتعل قلوبها هي أولا بحقائقه الإيمانية، حتى تستنير وتتوهج ثم تنير. وذلك قوله تعالى: "على عبده" فهذه صفة مدح وثناء، لأنه أضافه إلى عبوديته. فلما تحقق الرسول بالقرآن خُلقا صار هو - عليه الصلاة والسلام - بذلك للعالمين نذيراً.

ولا بديل للمؤمن الداعية إلى الخير عن هذا المنهاج الرباني القويم. تلك حقيقة قرآنية راسخة، بَيَّنَتْ معالِمَهَا التطبقية سيرةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، بما كابده طيلة دعوته من آي الفرقان.

- الرسالة الرابعة:

في أن التعريف بوحدانية الله – في هذا السياق - بما هو منـزل الفرقان، وبيان عظمته بتنـزيهه عن الشريك، كل ذلك يستوجب تعظيمَ القرآن المنـزل من عنده، ثم تفريده بالمصدرية، بحيث لا يُتَلَقَّى من أي شيء سواه توجيهٌ من التوجيهات المتعلقة بالإرشاد التعبدي والدعوي للإنسان في الأرض. فالقرآن هو المصدر، والقرآن هو البرنامج، والقرآن هو الوسيلة، والقرآن هو المنهاج. فلا شيء ينافس القرآن في ذلك على الإطلاق! والسنة في ذلك له تبع، فهي دليل السالك عبر مسالكه إلى الله، لِمَا تمثله من كمال العبدية لله. وهما شرطان لا ينفكان: المسلك ونموذجه.

وهذا أمر في غاية الأهمية من الناحية المنهاجية. ومخالفة مقتضاه لا تكون سليمة العواقب على الدعوة والداعية، وعلى التربية والسلوك، في التصور وفي الممارسة. فتوحيد القبلة تجاه القرآن في السير إلى الله شرط صحة الطريق. قال سبحانه: (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ. وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ!)(النمل: 91-93) فتدبر!

- الرسالة الخامسة:

في أن إخلاص الدين لله هو القضية الأم لهذا القرآن بما هو دعوةٌ للعالمين. ومن هنا كان الشرك هو أكبر ظلم مارسته البشرية الضالة! وذلك بما تنكرت لحق الخالقية، وبما تنكرت لتفرده تعالى بالتوجيه للإنسانية، فيما يصلح معاشها ومعادها! ومن هنا كانت الوظيفة الفرقانية الأولى لهذا الفرقان هي دعوة الناس للرجوع إلى هذا الحق الإلهي العظيم: توحيد الله بالعبادة والإخلاص له في كل شيء. وتلك رسالة في أن مدار دعوة الإسلام إنما هو التوحيد. التوحيد من حيث هو مجاهدة النفس على التحقق بمقام الإخلاص لله الواحد القهار، وإفراده تعالى

بالعبادة رَغَباً ورَهَباً، والتحقق من ذلك على مستوى الوجدان، خَطْرَةً خَطْرَةً؛ حتى يصفو قصدُك لله، ولله وحده! وتلك هي القضية الأولى للقرآن عبر جميع الأجيال! فلا يضيعن منك ميزان الحق في ترتيب أولويات الدين والدعوة!

ثم تدبَّر هذا البيانَ النبوي العظيم! من خلال ما يرويه الصحابي الجليل معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: (بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلاَّ أَخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: "يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ!" قُلْتُ: "لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ!" ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ" "يَا مُعَاذُ!" قُلْتُ: "لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ!" ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: "يَا مُعَاذُ!" قُلْتُ: "لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ!" قَالَ: "هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ؟" قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ". قَالَ: "حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا". ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: "يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ!" قُلْتُ: "لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ!" فَقَالَ: "هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟" قُلْتُ: "اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ". قَالَ: "حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ!")[60]. فتدبر!

4- مَسْلَكُ التخلق:

لا مسلك إلى تَلَقِّي كل تلك الرسالات والتخلق بحقائقها الإيمانية، ومقاماتها الربانية، إلا بأخذ القرآن بقوة! واتخاذه فرقانا في كل كبيرة وصغيرة، حتى لا تشتغل بشيء دون استشارته، ولا تقطع خطوة دون دلالته. فيصير لك منهاج حياة، ويكون لك هو رفيق الطريق. فهذا عصر لا مخرج من تيهه الرهيب إلا بالتمسيك بهذا الكتاب!

فيا نفسي الضعيفة المترددة! إن أول شروط الطريق عهدٌ وميثاق! عهد يقطع عنك كل تردد، ويعصمك من كل التفات. وعلامَ الالتفات وإلى مَهْ؟ فيا صاح وَحِّدِ القلبة! وَحِّدِ القبلة! فهذا كتاب الله وحده ضمان النجاة! قال جل ثناؤه: (أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ؟ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ! وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ. أَفَلاَ تَعْقِلُونَ؟ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ!)(الأعراف: 169-170).

ثم إن أول الخطو إلى ذلك هو إدمان تلاوته، وتدبر عباراته، وتلقي إشاراته. ثم صقل القلب بِخُلُقِ التقوى على لهيب أنواره. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.)(الأنفال: 29). فلا ينبغي أن تجد نفسك في سيرك إلى الله - تربيةً ودعوةً - إلا بين منازل تلاوته في خلواتك وصلواتك، وبين مدارج مدارسته في مساجدك ومجالسك. فهذه مدرسة القرآن يا صاح، مفتوحة الأبواب أمامك، على صراط مستقيم يقودك إلى الله، فادخلها بسلام! إنها ميسرة منورة. قال جَلَّ ثناؤه: (وَلَقَدْ

---

[60] متفق عليه.

يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ؛ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ؟)(القمر: 17).. ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله.

المجلس الثاني
في مَقامِ التَّلَقِّي لكنوزِ الأسرار..!

والابتلاء فيه واقع بالكلمات التالية:

1- كلمات الابتلاء:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً(4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (5) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً(6)).

2- البيان العام:

هذا مقام العروج إلى ملكوت السماوات والأرض! هذا مقام التَّلَقِّي لواردات النور، بصائرَ تفتح القلبَ على أسرار القرآن العظيم.. ومنهاجاً يرسم طريق العودة للأوابين والتوابين!

من هنا تبدأ الفتوح! فَرَتِّلِ الآياتِ بقلبكَ ترتيلاً! وتدارس المعاني بفكرك كلمةً كلمةً، ثم رُصَّهَا على أساسِ قلبكَ لَبِنَةً لبنةً! ثم ارفع رأسك إلى الأفق الأعلى تَرَ حبلَ الله يمتد إليك! فإن هذا القرآن (هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ!)([61]) فاصبر يا صاح على تتبع مدارج الكلمات معنىً معنىً ولا تَعْجَلْ! حتى إذا أبصرتَ بَوَارِقَ النُّورِ فَأَبْشِرْ بالفتح المبين!

أما هذه الآيات فهي تترجم في البدء مقالة الكفار في كل زمان! وهذه وسيلتهم الخبيثة أبداً: محاولة إبطال المصدر السماوي لهذا القرآن! وربطه بالنسبية البشرية الأرضية؛ حتى يتسنى لهم الطعن في حقيقته وشريعته، ورد دعوته على صاحبه! قديما قالها كفار قريش وكثير من أهل الكتاب. واليوم يقولها كثير من أصحاب "القراءات الجديدة"، والتأويلات الباطلة، التي تسعى إلى نفي ربانية هذا الكتاب، وإسكات نداءاته القوية الصادعة، وخنقها في قارورة التاريخ الذي كان! فقالوا جميعا: ما هذا القرآن إلا كذبا وبهتانا، اختلقه محمد واخترعه، وأعانه على ذلك قوم آخرون، من بعض رقيق أهل الكتاب، ممن كان تحت سيادة العرب آنئذ. هكذا يدعون دعوى باطلة بغير علم ولا برهان؛ فيرتكبون بذلك ظلماً فظيعاً وزورًا شنيعاً! حيث ردوا كلمات الله رب العالمين! خالقهم وخالق كل شيء! وتمردوا بتكذيبهم محمداً - صلى الله عليه وسلم - على سلطان الله العظيم، وعلى حقه الواقع على العباد أجمعين! ثم إن هذا القرآن ليس مما يمكن لبشر أن يختلقه ولا أن

---

[61] رواه الطبري في تفسيره:31/4، نشر دار الفكر بيروت لبنان: 1405هـ. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم: 4473.

يخترعه. فهو حق مطلق! شاهد بذاته على ذاته! غني عن الدفاع بقوة خطابه! حجةٌ على خصومه، يتحدى البشرية بربانيته إلى قيام الساعة!

وقالوا أيضا: هو أساطير الأولين، استنسخها محمد، وقد كانت تملى عليه من لدن بعض أهل الكتاب صباح مساء. وهي بالذات دعوى المتكبرين على الله من أهل هذا الزمان! يدورون بذلك في فَلَكٍ واحد من الحيرة والضلال! ويتحصنون بتصنيع المصطلحات والألفاظ في محاولاتهم العديدة لإحباط الحق! إفك، افتراء، أساطير! ولمفهوم الأسطورة اليوم دعوى نافقة في سوق الثقافة المتمردة على الدين!

فالأساطير: جمع إِسْطَارَة، وأُسْطُورَة، مثل أُفْكُوهَة، وأُضْحُوكَة. من السَّطْرِ في الكتابة، فكتابٌ مَسْطُورٌ: أي مكتوبٌ، مِنْ سَطَرَ يَسْطُرُ سَطْراً. ثم اشتهرت الأسطورة في الدلالة على ما سطره الأولون من أساجيع الخرافات. وذكر الطبري أنه "كان بعض أهل العلم يقول: الإِسْطَارَةُ لغةً: الخرافاتُ والترهات!"([62])

ومن هنا جاء الرد من السماء قويا بَيِّناً يتحدى، على أقوى ما يكون التحدي والبيان! جاء قاطع الدلالة، بما تحمل الكلمات من العظمة والرهبة، على أن المتكلم الآن – كما هو الشأن في كل القرآن – إنما هو الله رب العالمين!

فقال الله جَلَّ جَلالُه لرسوله: (قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ!) هكذا يعبر مرة أخرى باسم الموصول: "الذي"، دون التصريح باسم الجلالة "الله"، تنبيها للمتلقي إلى التركيز على ما تتضمنه صلة الموصول من معان وصفات، وهو عِلْمُهُ تعالى بأسرار السماوات والأرض! فصاحب ذلك العلم المحيط بأسرار الكون كله هو المتكلم الآن، وهو منزل هذا الفرقان! وهو سبحانه فوق سماواته، محيط بكل مخلوقاته عِلْماً وتدبيرا. فإذا تكلم تعالى تكلم من عَل محيطا بكل شيء؛ ولذلك جاء هذا القرآن محمَّلاً بكل شيء من أسرار السموات والأرض، مما تحتاجه البشرية لتدبير حياتها وبناء عمرانها، في علاقتها بنفسها وبمحيطها، وفي سيرها إلى ربها والتعرف إلى خالقها. وبهذا وأمثاله كان التحدي ولن يزال مستمرا إلى يوم القيامة! فقوة هذا القرآن هي في ذاته! بما يحمل من إعجاز وأسرار، تسلك بالإنسان ما بين السماوات والأرض! وهذه كلمات الله بين يديك تتفجر بالأنوار فتدبر! أوَليس التردد من العباد في قبول الحق من رب العباد يستحق الغضب الإلهي؟ فما بال العبد يتمرد على خالقه وسيده؟ ولكن هذا الرب العظيم كما هو عظيم بجبروته تعالى، عظيم أيضا برحمته التي وسعت كل شيء، فيمهل عباده، ويجعل لهم فسحة للتأمل والتدبر، عسى أن يُقبلوا عليه بعد ذلك تائبين مستغفرين! فقال جَلَّ ذِكْرُه وثناؤه: (إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً!) يعني: لمن تاب وآب إلى مولاه قبل فوات الأوان!

---

[62] جامع البيان: 171/7.

3- الهدى المنهاجي:

وهو يتفرع إلى أربع رسالات، هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في أن الكفار والمنافقين لن يزالوا أبداً – اليوم وغداً - يثيرون الشبه والفتن، أمام قوافل السائرين إلى الله والدعاة إليه. فوجب الثبات على الحق والعض على هذا القرآن بالنواجذ، والتمسيك بآياته بقوة، وعدم التأثر بما يقولون من الترهات والأباطيل التي يلقون بها في وجه المؤمنين؛ لعرقلة السير وقطع الطريق إلى الله، والتشويش على دعوته جل علاه.

- الرسالة الثانية:

في أن هذا القرآن رسالة الله المنـزلة من السماء إلى الأرض؛ لتعريف الإنسان بربه، وبوظيفته التي خُلق من أجلها، ثم لتنظيم حياته في علاقته بنفسه ومحيطه، ولرسم طريق العودة إلى الله. فمن أخذ به وصل، ومن أعرض عنه ضل! وكفى بذلك حقيقة كونية عظمى!

- الرسالة الثالثة:

في أن عمق القرآن يمتد من عالم الغيب إلى عالم الشهادة! ولذلك فأسراره لا تنتهي أبداً! ومن هنا فهو يتضمن الهدى الذي تحتاجه البشرية في مجموعها، والهدى الذي تحتاجه كل نفس في نفسها! فهو المسلك الجامع لكل المسالك، والمشرب الذي يرفد كل المشارب من موارد الخير والصلاح، على امتداد الزمان. فلا تستهن بعطاءات القرآن فتكون من المغبونين! (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ! إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ!)(لقمان: 27).

- الرسالة الرابعة:

في أن المتكلم بهذا القرآن إنما هو الله رب العالمين! فلا يغب عنك هذا عند تلقي رسالاته؛ فَتُحْجَبَ عن أنواره وأسراره! ثم لا تكون من الداخلين في جمال رحمته، المشمولين بلطفه وغفرانه! فاقرأ القرآن وتَلَقَّ الهدى والنور عن الله مباشرةً تكن من المبصرين!

4- مسلك التخلق:

أول الخطو في طريق تلقي هذه الرسالات هو تهييء القلب تهييئا، وإعداده إعدادا؛ لاستقبال آيات القرآن! تماما كما نهيء البدن والروح معا بفعل الوضوء؛ للدخول في الصلاة! ولا يكون ذلك إلا بالأخذ بكل مجامع النفس، وكبح كل صوارفها، قصد اعتلاء مقام التلقي عن الله - خلال الصلاة وخارجها – ثم فتح باب الروح لشلال النور، كلما أشرق وارده على القلب من السماء!

ولا تنس يا صاحبي استغلال أحسن الأوقات لذلك! فالأوقات لها أسرار، مما وردت به الآيات والأخبار، سيرا إلى الله عبر مدار الفَلَكِ السيَّار، ما بين العشي والإبكار وخلوات الأسحار.
فإذا قدحت بلسانك مصباح القرآن، فافتح بصيرة روحك؛ لمشاهدة جمال أسماء الله الحسنى عند تلاوته، ثم مشاهدة تجليات صفته تعالى بما هو منـزل القرآن! وإياك والغفلة - عند التلاوة - عن أم الحقائق! وهي أن المتكلم بهذا القرآن إنما هو الله جل جلاله! فتأدب عند الوقوف أو الجلوس بين يديه تعالى بأدب العبودية! حتى لا تكون من المحجوبين!
ثم بعد ذلك تشرع في محاولة استكناه أسرار الآياتِ كلمةً كلمةً، والتحقق من موقع كل حقيقة إيمانية تتلقاها: ما حظها من نفسك؟ وما موقعها من سلوكك اليومي؟ وهناك تبدأ باكتشاف الثغرات والثلمات، لتضميدها وعلاجها. ثم كرر التلاوة عند كل ثغرة وأمام كل علة! انظر! ها هي ذي الجروح تلتئم، وها هي ذي الأمراض تتهيأ للشفاء! فسبح بحمد ربك واستغفره، وكن من الشاكرين! ثم قم! هذه أنوارٌ من أسرار القرآن صارت لك الآن خُلُقاً، فَأَدِّ للهِ حَقَّ الدعوة إليه واشتغل بالنذارة للعالمين!
فيا نفسي العليلة! إلى متى وأنت تُغَلِّقِينَ الأبوابَ دونَ دواءِ القرآن؟ إلى متى وإلى متى؟ وهذه آياته تتنـزل من الرحمن شفاءً لا يغادر سقماً!

المجلس الثالث:
في مقام التلقي لموازين الدعوة والداعية

1- كلمات الابتلاء:

وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنـزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (8) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (9) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً (10)

2- البيان العام:

هذا موطن امتحان الرجال! هذا مقام تَلَقِّي العزائم المحمدية! وإنها لَعَزَائِمُ تَنْهَدُّ من تحت قَوَارِعِهَا الجبالُ! وإنه لا نجاح لداعية خسر هذا التحدي، ولم يفلح في التخلق بمقامه العالي!
فهل تعلمتَ يا قبلي درس الصبر؟ أم أنها كلمة تجري على اللسان وكفى؟! الصبر على فتنة الاتهامات الباطلة والإشاعات المدمرة والأراجيف القاتلة! وإنها في هذا العصر لمن أشد الشر على المؤمنين! وإنها لتيه من متاهات الغربة بهذا

الدين! وإن الصبر على الأذى النفسي لمحنة وأي محنة! وإن الدخول فيها لمن أشد مواطن الامتحان لمقامات الإيمان! وإن النجاح بأسلاكها لبشارة للمؤمنين بالفتح المبين!

ألا ما أقسى ظلمات الفتن إذا أقبلت على الإنسان بصورها المموهة الكاذبة! كم تبغته وتبهته! وكم تربكه وتزلزله! حتى إنه لربما صدَّقها وانجر خلف ضلالها فكان من الهالكين! وكيف النجاةُ وها الفتنةُ ما أَقْدَمَتْ إلا وَأَقْدَمَتْ بِشُبْهَةٍ، ولاَ أدْبَرَتْ إلاَّ وَأَدْبَرَتْ ببيان!؟ فلا يكون منها البيان إلا بعد فوات الأوان! وإن شُبَهَهَا عند الإقبال لَتَدَعُ الحليم حيران! ولذلك كانت فتنة!

فيا صاحبي في طريق الآخرة! لِنَتَلَقَّ معاً درسَ الموازين! وإن لكلمات الله ههنا لَقولاً فَصْلاً! وإن لها لمقياساً عَدْلاً! ثم إن لها من منازل التبصير والتنوير ما لو تَحَقَّقَ به المؤمنُ لكان من أهل الله، لا يرى إلا بنور الله! فأنى للفتن آنئذ أن تزحزح قلبه أو تسحر بصيرته؟

ثم إن هذا القرآن قد كشف لأهله سنن الحرب الدائرة بين الحق والباطل إلى يوم القيامة! فلا شيء من ذلك إلا وفي كتاب الله ميزانه. وإن من أشد مواطن الضعف في أسلحة الخصوم هو جهلهم بطبيعة هذه الدعوة ورجالها! وإنما هو عِلْمٌ يُنال بالإيمان، وبالإيمان فقط! وهم إذْ عَدِمُوهُ جهلوه! فكانوا من الخاسرين في معركتهم ضد الحق. فاقرأ وتدبر! ولا يفوتنك هذا فإنه لك قوة!

قال سبحانه: (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ؟)..الآيات. أي: وقال الكفار: ما بال هذا الذي يزعم أنه رسولٌ من عند الله يأكل الطعام مثل الناس؟ فيخضع بذلك لسائر الضرورات البشرية! سواء منها ما يتعلق بلواحق الأكل أو بسوابقه. ثم يمشي في الأسواق لطلب الرزق، فيخالط عامة الناس وأراذلهم؟ فهلاَّ أرسل الله معه مَلَكًا من السماء يشهد على صدقه، ويقوم بالنذارة إلى جانبه؟ أو يُلْقَى إليه كنزٌ؛ فيكون من أصحاب المال والجاه، أو تكون له ضَيْعَةٌ عظيمة، ذات أشجار وثمار يأكل منها، فيستغني بذلك عن طلب الرزق والمشي في الأسواق؟ وإذْ ليس له من هذا كله شيءٌ؛ فقد قال هؤلاء الظالمون المكذبون: ما تتبعون أيها المؤمنون السُّدَّجُ إلا رجلا مسحورا، أي غلب السِّحْرُ على عقله؛ فلا هو يدري ما يقول!

ثم جاء الرد من عند الله قويا حاسما كالعادة! (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً!) تعجيباً من جهلهم وتهافت حجتهم! والخطاب موجه إلى نبيه – عليه الصلاة والسلام – على سبيل التسرية والتطمين، بمعنى: انْظُرْ يا محمد إلى تهافت ما جاؤوا به من كذب وبهتان! مما قذفوك به من قولهم: ساحر، مجنون، كذاب، شاعر...إلخ، فكلها أقوال باطلة ساقطة، لا ينطلي بهتانها على أحد

ممن يعرفك، أو يعرف ما تتكلم به وما تتلوه من قرآن! ولذلك فهم لا يهتدون إلى حقيقة أمرك، ولا يستطيعون سبيلا إلى دحض حجتك!

ثم عَقَّبَ بعد ذلك بتمجيد ذاته تعالى مرة أخرى، بما عَظُمَتْ بركاتُه وكَثُرَتْ خيراتُه. لكن ههنا في سياق المواجهة والتحدي! فقال لنبيه: تَبَارَكَ الذي إن شاء جعل لك - أيها الرسول - خيراً مما ضربوه لك مثلاً من مال الدنيا وجاهها، فجعل لك في هذه الأرض الدنيوية – قبل الآخرة - جنات وبساتين كثيرة تتخللها الأنهار، وجعل لك فيها قصوراً عالية فخمة! وكل ذلك سهل يسير على الله؛ إلا أن حكمته تعالى في النبوة وطبيعة الرسالة تقتضي أمراً آخر! وهو ما يأتي بيانه في المجلس اللاحق بحول الله.

3- الهدى المنهاجي:

وهو في هذه الآيات ينقسم إلى أربع رسالات هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

أن سنة الله في الرسل والرسالات، وما جاء على منهاجها من الدعوات، أن تحاصرها الألسنة بالاتهامات الباطلة والإشاعات المغرضة، وأنواع السخرية اللاذعة، وسائر ضروب الحرب النفسية! كما تصنع كثير من وسائل الإعلام اليوم - من صحف وفضائيات - بالدعاة المخلصين. فلا بد من توطين النفس على تحمل الأذى النفسي في ذلك، وهو من أشد أنواع الابتلاء! فصبراً صبراً على جهل الجاهلين، وكيد الظالمين!

- الرسالة الثانية:

في تنبيه المؤمن إلى أن غالب طرق الحصار الإعلامي قديما وحديثا قائم - بالإضافة إلى أسلوب الاتهام والسباب – على أسلوب التعجيز! (لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا!) وهو ما يردده اليوم أعداء الدعوة الإسلامية، من مطالبة الدعاة ببرنامج تفصيلي في المال والأعمال، وكثير من الحلول الاجتماعية، التي لا نشك أن الإسلام هو العلاج الحقيقي لها، ولكن مع ذلك نقول إن للإسلام - بما هو دين رب العالمين - أولويات، وأصولا كليات! هي أساس العمل الدعوي، وما سواها فروع. فإذا قامت تلك، قامت هذه - بناءً عليها - بصورة تلقائية. فليكن المؤمن الداعية على بال من ذلك؛ حتى لا ينجرف إلى رد الفعل، فيجد نفسه يُصَرِّفُ الرسالة الدعوية على غير وجهها، أو بما يخالف ميزان أولوياتها! من برامج وخطط ووعود!

- الرسالة الثالثة:

في جهل الكفار عموما بطبيعة الدين والدعوة، إلا ظواهر شكلية، لا تنفعهم في شيء. ولذلك فإنهم لا يفلحون في محاصرة الحق أبداً. فما أخلص عبد لله في دعوته إلا كان منصوراً. وأما الانحراف بالدعوة والدين إلى صور العمل العادي غير

التعبدي، فإنه يسهل على العدو محاصرته بكل الوسائل؛ إذ يفقد ذلك العمل طبيعته الإيمانية، وخاصيته الروحية، المستعصية على التحليل والتأويل ثم على الحصار والتدمير! فلا مقاييس للكفار في تفسير الظواهر إلا مقاييس المادة! ولا طاقة لهذه أن تفهم موازين دعوة القرآن! ومن هنا كان رجل القرآن منصوراً! فَأَلْقِ كلمات الله عليهم - يا عبد الله - وأَبْشِرْ بالفتح المبين! قال تعالى في مثل هذا السياق: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ! إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ!)(الحِجر : 94-95).

- الرسالة الرابعة:

في أن المؤمن لا ينبغي أن ينهزم أمام الحرب النفسية، وألا يرهبه شيء من هذه الاتهامات والإشاعات، مهما كثرت وتواترت! لسبب واحد، هو: أنها جميعها ستسقط مندحرة مهزومة؛ لأنما هي تحارب الله رب العالمين! فلا ييتئسن الداعية إلى الله بشيء من ذلك أبداً! وليوقن – إذا كان يُمَسِّكُ بالكتاب فعلاً، مخلصا لله صدقاً - بأن كلمات الله هي الغالبة المنتصرة في نهاية المطاف! فما أعلن أحدٌ الحربَ على الله إلا أهلكه الله!

4- مسلك التخلق:

شيء واحد أساس، يعصمكَ من الانجراف وراء المتاهات! ويمنحك الثباتَ أمام مغريات الدعايات، وهو حقيقة إيمانية كبرى: أن تبحث عما يريد الله منك، لا عما تريد أنت منه! فأنت العبد، وهو السيد الرب العظيم جَلَّ جلالُه، فلا ينعكس بين يديك الميزان! وبغير ذلك يتيه الدعاة فيقرؤون القرآن – تحت تأثير الاستفزاز الإعلامي والسياسي - كما يريدون هم لا كما يريد القرآن! كل ذلك وهم لا يشعرون! فيتم إخراج الدين للناس على موازين دنيوية فانية، لا على موازين الربوبية والحقائق الأخروية الباقية!

فيا صاح! اسجد لله في سيرك داعيا إليه، ولا تكن من الْمُفْتَئِتِينَ! هذا خُلُقُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم - بين يدي ربه، عبداً خاضعا لجلاله تعالى، لا يشتغل إلا بما أذن له فيه! فاحذر أن يقع ببالك أنك أنت الذي تدبر أمر الدين والدعوة! فرداً كنت أو جماعة! فإنما غاية شرفنا جميعا - أنا وأنت – أن نحظى برضى الله تعالى إذا ما رضي أن نكون جنودا من جنده! فأكرم به من شرف وأنعم! والله وحده مدبر أمر الدين والدنيا جميعا. لا يكون شيء من أمرهما إلا بإذنه! وفي الإبان الذي يريده هو جل علاه! فاخضع لمراد الله تكن من المفلحين إن شاء الله!

وإنما خُلُقُ المؤمن في هذا الشأن أن يجاهد نفسه لتحقيق عبوديته لله؛ باتباع مسالك القرآن الكريم أنى مضت به، لا يلتفت إلى ما سواها. فَيُقَدِّمُ ما قدمه القرآن، ويؤخر ما أخره القرآن، ويعظم ما عظمه القرآن، ويصغر ما صغره القرآن!

متأسيا في ذلك كله بسيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي كان خُلقه القرآن! ومن خضع لله على هذا الميزان، هداه الله إلى الحق أنى كان!

حكمة: عندما اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية وُجِدَ حكيمُ القرآن الأستاذ بديع الزمان النورسي - رحمه الله - غير مبال كثيرا بأحداثها، والناس آنئذ في هلع عظيم! فسئل في ذلك، فقال: إنني منشغل بما هو أعظم! فقيل: وهل هنالك شيء أعظم من الحرب العالمية؟ قال: نعم، يوم القيامة!

المجلس الرابع
في مقام التلقي لأم الحقائق الكونية الكبرى!

1- كلمات الابتلاء:

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ! وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (11) إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (12) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً (13) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (14) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً (15) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً (16).

2- البيان العام:

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ!.. الله أكبر!

تلك هي المشكلة الكبرى للإنسان! وتلك هي القضية الكبرى للكون كله! الساعة! إنها هي أعظم بلاغ قرآني - بعد الإيمان بالله – جاءت رسالات الله تحمله إلى الناس! قال جل جلالُه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ! يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ!)(الحج:1-2).

ولذلك كان (الإيمان بالله واليوم الآخر) ثنائية عَقَدِيَّةً تقوم عليها كل الحقائق الإيمانية الأخرى في الإسلام؛ لما لهما في ميزان الله من موقع عظيم في أمره الكوني القدري، وفي أمره التشريعي التكليفي معا! ولذلك تكرر الخطاب بهما في القرآن والسنة تكرارا! فلا أمر ولا نهي إلا بعد حسم قضيتهما مع الإنسان! قال جل جلاله: (ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ!)(البقرة:232)، وقال رسوله عليه الصلاة والسلام: (من أحب منكم أن يُزَحْزَحَ عن النار ويدخل الجنة؛ فلتأته منيتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر!)([63])

الساعة! ذلك النبأ العظيم الذي جاء القرآن لينذر به العالمين! وبيَّنَ بياناً في غير ما موطن من آياته وسوره أن بناء الكون الدنيوي له ساعة ينهار فيها، ثم يفنى بإرادة الله، فلا يبقى شيء إلا الله الواحد القهار! وإنه لقريب قريب!

---

[63] رواه مسلم.

الساعة؟ ذلك هو السؤال الأزلي! فلم يزل الإنسان - مذ كان - يتوجس وقوعها، ويتحسس وقتها وحقيقتها؛ حتى ولو كان من الملحدين! لأنها حقيقة فطرية صارخة في عمق الوجود النفساني للإنسان! لكن الله - جل جلاله - أنبأه أنها سر من أسرار قضائه الكوني: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا؟ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ. ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ! لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً! يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ!)(الأعراف:187). وقد ورد في التفاسير أن العرب واليهود كانوا كثيري السؤال لمحمد - صلى الله عليه وسلم - عن الساعة! كانوا يسألونه ظانين أنه حَفِيٌّ عنها، أي كثير السؤال - مثلهم - لربه عنها. إذ لا يُتصور في الإنسان – بطبيعته - إلا السؤال عن الغوامض الكونية. ولذلك قال: (ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ!) إنها حدث كوني عظيم، يمتد من السماء إلى الأرض. ليحدث ذلك التحول الرهيب في طبيعة الكون، تدميرا ثم تكوينا، وإفناء ثم خلقا؛ لاستقبال الحياة الأخرى. وإن أمرها في ميزان الله لعظيم، وإنه لقريب قريب!

والساعة: هي القيامة، والواقعة، والقارعة، والصاخة... إلى غير ذلك من الأسماء التي عبر فيها الرب العظيم عن لحظة نهاية الكون. فالكون الدنيوي إذن تكوين ابتدائي، وحياة فانية، والكون الأخروي تكوين استئنافي، وحياة خالدة أبداً! قال جل جلاله: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ!)(الأنبياء:104).

ومن هنا كان خطاب الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - في شأن هؤلاء الكفار، أن قضيتهم أساسا ليست في تكذيبك يا محمد؛ بقدر ما هي في التكذيب بالساعة ابتداءً! فما كذبوك لأنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، ونحوها من العلل الزائفة والضعيفة، بل كذَّبوا بالساعة وما وراءها من جزاء! وهذا التكذيب في حقيقته إنما هو تكذيب من يرفض حقيقتها؛ لأنه لا يريد وقوعها ولا يتمناه! وهو يحمل من خشية تحققها ما يجعله تكذيبا مهتزا ضعيفا! ثم إنه لا حَقَّ للإنسان في التكذيب بها؛ لأنها في بَدَهِيَّتِهَا كالتكذيب بوجود ذاته هو! أو كالتكذيب بوجود خالقه العظيم! والتنكر لحقوقه الكونية الكبرى! والتمرد على ربوبيته جل علاه! فكان الوعيد على قدر الجريمة! (وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً!)

وإنه لمشهد رهيب يصوره القرآن العظيم! بدءاً بلفظ "السعير"؛ تسميةً لجهنم ووصفا لها! والسعير في العربية: "فعيل" بمعنى "مفعول"، أي أنها مُسَعَّرَةٌ. والسَّعَارُ: الاشتعال الشديد والالتهاب العظيم! وهو وصف لهيجان النار واشتداد حرها! وإنما سميت "أسعار السوق" بذلك؛ تشبيها لها بحر النار! والسعير في جهنم - والعياذ بالله - أسوأ ما يتصور فيها من دركات العذاب الشديد، اشتعالا والتهابا وهيجانا! حتى إنها لتكون ذات صورة حية، واعية بذاتها وبوظيفتها التي

خُلقت من أجلها! وهو تعذيب هؤلاء المردة، الكفرة بالله واليوم الآخر، المنكرين للساعة! وها هي ذي جهنم - وهي حقيقة عظمى من حقائق الساعة - تنتقم منهم! فهي لهم اليوم عدو لدود، تنتظرهم من على بُعد، وتترقب وصولهم إليها! وكأنها أعناق وأفواه لاهبةٌ تشرئب إليهم، وعيون مغتاظة غاضبة تنظر وتترقب! (إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً!) إذ يشتد صوت غليانها وزفيرها، من شدة تغيظها! حتى إذا أُلقوا في جحيمها من مكان ضيق شديد الضيق - وقد قُرنت أيديهم بالسلاسل إلى أعناقهم في مشهد مخيف، كما يُسلسل الثورُ من قرنيه! فوجدوا من هول العذاب الشديد الذي لا يطاق - دَعَوْا على أنفسهم بالثُّبُور! أي: بالهلاك والفناء؛ للخلاص مما صاوروا إليه! فيقال لهم أنئذ تيئيسًا: لا تَدْعُوا اليوم على أنفسكم بالهلاك مرة واحدة فحسب، بل ادعوا به مرات كثيرة! فلا فائدة! ولا نجاة لكم ولا فناء! فقد صرتم جزءا من جهم، تُسَعَّرُ بكم ولكم! فلا خلاص لكم أبداً!

ثم يستأنف الرحمن خطابه لرسوله الكريم في هذا السياق الملتهب: أنْ قل لهم أيها الرسول المبلغ عن ربه: أهذه النارُ التي وُصِفَتْ لكم بهولها وسُعُرِهَا خيرٌ أم جنة النعيم الدائم الخالد أبداً؟ الجنة التي وَعَدَهَا الرحمنُ عبادَه الذين كانوا يخافون عذابه، إنها لهم اليوم ثواب عظيم على عملهم، ومصير جميل بعد سفرهم الدنيوي، يؤوبون إليه؛ جزاءً من ربهم الكريم. لهم فيها كل ما يشتهون من ملاذِّ النعيم، ولهم فيها كل ما يحلمون به من أنواع الراحة والجمال! مما يفيض عن لفظ "جنة الْخُلْد" من معاني الخضرة الدائمة، والثمار التي لا تنقطع، والأنهار المتدفقة أبدا، والظلال المستمرة سرمدا، وما يتخلل هذا وذاك كله من النعم التي ذكرها الله في كتابه في غير ما آية وسورة. يتمتعون بلذائذها وجمالها كما يشاؤون ومتى يشاؤون، متاعا دائما لا يفنى أبداً. فقد كان دخولهم لها وعداً على الله سبحانه، يسأله إياه عبادُه المتقون. والله - جل جلاله - لا يخلف وعده!

فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وله الحمد كما ينبغي لكريم إفضاله وتمام إنعامه!

3- الهدى المنهاجي:

وينقسم في هذا المجلس إلى ثلاث رسالات، هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في بيان مركزية "الآخرة" في الخطاب الدعوي القرآني، باعتبارها أهم قضية وجب أن يتمحور حولها المنهاج الدعوي بلاغا للدين في العالمين، وتجديداً له بين المسلمين! ذلك أن طبيعة هذه الدعوة طبيعة أخروية بالقصد الأول! فوعودها الأساسية للإنسان إنما هي هناك! وأن كل ما عدا ذلك من صلاح المعاش إنما تابع لصلاح المعاد، ولا عكس! تلك هي طبيعة الرسالة وطبيعة هذا الدين. ولذلك جاء تجهيل الله للكفار بحقيقة هذه الرسالة؛ عندما طالبوا رسوله - صلى الله عليه وسلم

- من قبل بتحقيق خوارق غيبية، واكتساب إنجازات مادية دنيوية، من كنوز وأملاك وضيعات! فقال لهم: (انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً!) بل هي النبوة! بل هي النذارة! بل هي الوعد الحق! بل هي حقوق الله الخالق لهم، حقوقه التي ما تزال معلقة فوق رؤوسهم! تنتظر منهم الدخول في رِبْقِهَا، والاستجابة لابتلائها؛ أداءً لحق الخالقية، وهم عنها متنصلون، وعلى ربهم متمردون، ولربوبيته جل جلاله منكرون! فسبحانه وتعالى عما يصفون!

إنها رسالة "الساعة"! الرسالة الحاملة للإنسان بيان حقيقته ووظيفته، وبيان مقامه الذي وجب أن يدخله متواضعا لله رب العالمين: مقام العبدية! تلك الوظيفة التي من أجلها جعل الله له في هذه الدنيا ما جعل من تسخير وتيسير! حتى تسلس له رحلته العمرانية الابتلائية إلى الآخرة! فكل ما في هذه الدنيا يُطْوَى والساعة جامعة!

- الرسالة الثانية:

في بيان أن نعمة الإيمان باليوم الآخر؛ بما هو منقذ للبشرية من الخسران المبين، ونجاة لها من المصير الرهيب، لهي من أجلِّ النعم! فلا يملك المؤمن إزاءها إلا الحمد لله كل الحمد، والشكر الدائم له جل علاه؛ بما أنعم على عباده الصالحين من الإيمان بالساعة! وإنها لمن أعظم النعم حقا! وذلك بما تتيحه للمؤمن من الاصطفاف مع قوافل العابدين السائرين إلى الله (رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً!)(الفتح: 29) وبما يستفيده العبد من ذلك كله، من جمال الأمان وتمام الاطمئنان، وهو يُحَلِّقُ من مقام الشوق إلى مولاه، ضاربا في الفضاءات بجناحي الخوف والرجاء! في جمال رائق لا يوازيه من زخرف الدنيا شيء البتة!

- الرسالة الثالثة:

لما كانت حقيقة الساعة - كما وصف الله وأخبر - ساعة الفصل بين أهل السعير وبين أهل جنة الخلد، في مشهد رهيب حملته كلمات الله نذارةً للعالمين؛ كان الخوف واقعا على المؤمن من جهتين: الأولى خوف الوقوع في الخسران المبين! والثانية: خوف فقدان النعيم المقيم! فوجب على الكيس الفطن أن يعيش في دينه على حذر واحتياط، وذلك هو معنى التقوى!

فتبين إذن أن التقوى هي أعظم زاد وجب على المسلم - بَلْهَ الداعية إلى الله - أن يتزود به للآخرة! وأن العاقل هو من شَمَّرَ عن ساعد الجد للعمل من أجل هذه الحقيقة! وترك ما دون ذلك من القيل والقال، وكثرة السؤال عما لا ينفع ولا يغني من ضروب المحال! وسائر ما يشغله عن المقصد القرآني الجليل! ويفتنه عن قضيته الكبرى مع مولاه! ويلهيه عن القيام بحقوقه جل علاه!

4- مسلك التخلق:

فيا نفسي الأمارة! تلك هي الساعة فماذا أعددتِ لها؟ ذلك هو السؤال واحسرتاه! فما أنتِ يا نَفْسُ - لو تبصرين - إلا ورقة من شجرة، يوشك أن تعصف ريح الخريف؛ فتكونين من بنات الثرى، لَقًى يذوي بين أحشاء التراب!

الساعة! ها هي ذي تدق خفقاتها بقلبكِ، على عَدٍّ عكسي يمضي بكِ نحو لحظة الصفر، لا يلوي على شيء! ولا أنت تستطيعين إيقاف مضيه الحثيث نحو النهاية! وخفقة فخفقة، ثم تدق الساعة! وتكونين لحظتها قد وصلت إلى باب القبر! ثم تبدأ قصة الآخرة! وتُفتح ملفات العمل! وتلك هي القضية الكبرى!

آهٍ يا نَفْسُ! هل أنت فعلا مستعدة لدخول باب القبر؟ كيف؟ وأنت لا تدرين أحفرة من حفر النار هو أم روضة من رياض الجنة!؟

فيا قلبي العليل! إن الساعة ساعة! دَقَّاتُهَا كَدَقَّاتِكَ! فَعُدَّ أيامَكَ عَدّاً وتأهَّبْ للرحيل! هذا مسلك أهل الآخرة، مسلك المتقين، مسلك العارفين بالله حقا. فلا تجعل من يومك وليلتك عملا على غير ميزانه؛ وإلا كنت من الخاسرين! وإنما عافية الأعمال وسلامتها متحققة بمطالعة أحوال الآخرة! فلا تغفل عن آياتها المتواترة زاداً يومياً من كتاب الله! ذلك إن كانت لك رغبة حقيقية في سلامة دينك ودعوتك! وإنما الموفق من وفقه الله!

المجلس الخامس
في مقام التلقي لميثاق الولاء والبراء

1- كلمات الابتلاء:

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً (18) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً (19)

- البيان العام:

الحشر!

هذا المشهد الرهيب، واحد من أعظم مشاهد الساعة! ومن أشدها ثقلا على الناس! فهو يوم الجمع! الجمع الشامل للبشرية كلها، من أولها إلى آخرها، وهو يوم الفصل! الفصل السريع والقضاء العادل! يوم إعلان النتائج! بعد الابتلاء الدنيوي الذي مضى وانقضى! قال تعالى مخاطبا رسوله - صلى الله عليه وسلم - في سورة الشورى: (وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ! فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ!)(الشورى: 7). تلك هي خلاصة الحياة الدنيا! بكل ما مر فيها من عجيج وضجيج! وبكل ما تعاقب فيها من أجيال وقرون! ومن ظَلَمَةٍ ومظلومين، ومن حكام ومحكومين، ومن طغاة ومستضعفين، ومن كفرة ومؤمنين، خلاصةٌ واحدة: (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ!)

فعند الحشر يجمع الله المشركين وما كانوا يعبدون من دونه، من أحجار وأشجار، ومن جن وإنس! ليناقشهم الحساب حول القضية الكبرى في الدين! قضية الإخلاص والتوحيد! فيقول سبحانه لهؤلاء المعبودين من دونه: أأنتم فعلا أضللتم عبادي هؤلاء عن حقيقة الإخلاص؟ وأمرتموهم بعبادتكم من دون الله رب العالمين؟ أم هم ضلوا السبيل من تلقاء أنفسهم؛ فعبدوكم طواعيةً؟ فيقولون منزهين ربهم عن الشرك والشركاء: سبحانك يا ربنا! وتعاليتَ عَمَّا فعل هؤلاء المشركون! فما ينبغي لنا أن نَتَّخِذَ أحداً سواك وليّاً نواليه ضد الإخلاص لك وحدك! ولكن حكمتك قضت أن تُمتع هؤلاء المشركين وآباءَهم في الدنيا - ابتلاءً لهم - بالمال والقوة والجاه والسلطان، فطال عليهم العهد بذلك؛ حتى نسوا ذكرك، وانقطعوا عن كتابك؛ فأشركوا بك ما لم تُنَـزِّلْ به سلطاناً، وكانوا بذلك قوماً بُوراً، أي: هَلْكَى أشقياءَ خاسرين!

فيقال آنئذ للمشركين: لقد كذَّبكم هؤلاء الذين عبدتموهم في ادِّعائكم عليهم! فلم تبق لكم من حجة! فها أنتم هؤلاء لا تستطيعون دَفْعاً للعذاب عن أنفسكم ولا نصراً لها! والنتيجة أن من يظلم نفسه فيشرك بالله ويعبد غيره، ثم يمت على ذلك، يعذبه عذاباً شديداً!

3- الهدى المنهاجي:

وهو هنا ينقسم إلى ثلاث رسالات، هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في أن الحشر حقيقة من أهم الحقائق الإيمانية التي تقوم عليها عقيدة اليوم الآخر في القرآن. و"الحشر" لفظ عميق الدلالة على معنى الجمع الشامل الكامل، لكل من قدر الله جمعه في هذا اليوم بعد البعث والنشور! مما ذكره تعالى في كتابه من الإنس والجن والوحوش وما شاء الله! (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ!)(الأنعام: 37).

الحشر بدلالته على خضوع المحشورين، واستسلامهم لمن يحشرهم ويزجرهم إلى ساحة المحشر العظيم، خاضعين مترقبين! للوقوف بين يدي ربهم، لهو من أعظم حقائق الإيمان في القرآن! مما وجب على المؤمن استحضاره في دينه ودعوته، بالقدر العظيم الذي جعله له القرآن في خطابه، مما لا تكاد تخلو منه سورة من سوره، كما في قوله تعالى: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً! وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً! لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ! بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً!)(الكهف: 47-48).

فهذا المقصد الإيماني العظيم يورث النفس مقام الذلة لله، ويصفي إخلاصها له وحده دون سواه، ثم ينشط عزائم الروح في سيرها التعبدي رغَباً ورَهَباً، وشَوْقاً إلى لقاء الله.

- الرسالة الثانية:

في أن الشرك هو فيصل الولاء والبراء في الدين. فهو الذنب الذي لا يغفره الله - جل جلاله - لمن مات عليه أبداً! لأنه خَرْمٌ وخيانةٌ لأعظم حق من حقوق الله! بما هو رب العالمين، الخالق للجِنَّةِ والناس أجمعين. فَحُقَّ عليهم بذلك عبادته وحده؛ لأنه هو الخالق وحده! فمن خان هذا الحق الإلهي هلك هلاكا مبينا! وكان في الآخرة من الخاسرين!

ولذلك وجب على المؤمن في أصول إيمانه أن يتبرأ من الشرك والشركاء! ومن هنا جاءت سورة "الكافرون" في القرآن، بما فيها من نفي مكرر، بصيغ شتى، لأي صورة من صور التداخل بين الشرك والإيمان، براءةً لقارئها المؤمن بها من الشرك، كما في الحديث النبوي الصحيح([64]). والشرك بالله ظلم كبير، ينتج عنه من الله عذاب كبير، والعياذ بالله! وهو مقتضى قوله تعالى، في سياقنا هذا من سورة الفرقان: (وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً!)

ولذلك بادر هؤلاء المُدَّعَوْنَ آلهةً – قبل ذلك - إلى إعلان الولاء لله والبراء من الشرك، مباشرة بعد سماع سؤال الله لهم فيما نُسِبَ إليهم من الإضلال عن التوحيد: (قَالُوا: سُبْحَانَكَ! مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ!) لأن توحيد الولاء لله في أمر الدين يقتضي البراء التام من كل ضروب الشرك والشركاء؛ إذ هما نقيضان لا يجتمعان في دين الإسلام الخالص أبداً! وهي قضية لا تنازل فيها ولا تفاوض أبداً!

- الرسالة الثالثة:

في أن الإسراف في متع الدنيا وشهواتها من شأنه أن يُنسي العبدَ - شيئا فشيئا - حقيقة عبديته لربه؛ فينقطع عن ذكره وتلاوة كتابه، ثم يقع في غفلة شاملة ونسيان روحي عميق! فيتيه في ظلمات الشركيات بما تزينه له الأهواء والشهوات، إلى أن يصل إلى دَرَكِ الانحراف الكامل والضلال المبين! ويكون من الهالكين!

4- مسلك التخلق:

---

[64] قال صلى الله عليه وسلم: (إذا أخذتَ مضجعَك من الليل فاقرأ: "قل يا أيها الكافرون" ثم نَمْ على خاتمتها فإنها براءة من الشرك!) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم، والبيهقي عن نوفل بن معاوية ، كما رواه النسائي والبغوي وابن قانع والضياء عن جبلة بن حارثة. وحسنه الألباني. انظر حديث رقم: 292 في صحيح الجامع. وأخرج البيهقي بسند صحيح عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اقرأ "قل يا أيها الكافرون" عند منامك فإنها براءة من الشرك!) ن. صحيح الجامع الصغير. رقم: 1161.

فيا أخي في طريق الآخرة! بين يديك الآن في سيرك إلى الله ثلاثة أمور، هي خلاصة هذا المجلس وزبدته. الأول: عمل تلزمه، والثاني: حَادٍ تستصحبه، والثالث: قاطع طريق تحذره!

فأما العمل الذي تلزمه فهو: تحقيق خُلُقِ الإخلاص في كل عبادتك، والتثبت من ذلك تحقيقا وتدقيقا؛ حتى يكون العمل بالفعل كله لله! وذلك بمجاهدة النفس عند مدافعة طوارئ الرياء، وصد رغائب الحظوظ الدنيوية المذمومة، التي ترميك بالخواطر الشيطانية من حين لآخر! فاجعل هذا أساس عملك، ومقياس مقامك، وباب معراجك التعبدي إلى مولاك، لا باب لك سواه! فلأن تُقَدِّمَ بين يدي لقائك بالله عملا واحدا مهما قَلَّ، لكن تحققتَ فيه بمقام الإخلاص، خيرٌ لك من القناطير المقنطرة من الأقوال والأفعال التي خرمتها الشركيات الحسية والمعنوية، والنيات الباطلة، المحبطات للأعمال! (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ! بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ!)(الزمر: 65-66) فالإخلاص هو جوهر العمل في الدين كل الدين. تلك قضية من أمهات قضايا علاقتك بالله! ما كان ينبغي لي ولك يا صاح أن ننساها أبداً!

وأما الحادي الذي تستصحبه فهو: مَشْهَدُ الحشر إلى الله، كما تصوره لك البصائر القرآنية المبينة! مَشْهَدُ الأمم من العالمين إنسا وجنا، ووحشا وطيرا، وهم ينسلون من قبورهم، ويتدفقون في هلع رهيب إلى ساحة المحشر الكبرى.. كل منهم قد أهمته نفسه، ونفسه فقط! ولا تنس يا صاح! فأنا وأنت هنالك بين أمواجهم! يا الله..! ما أردعه من مشهد عظيم للأهواء والأدواء! وما أفزعه للنفس المؤمنة بالله! وما أيقظه لها من غفلتها! وما أشده تنشيطا لها في سيرها إلى مولاها جل علاه!

وأما قاطع الطريق الذي تحذره، فهو: الإسراف في استهلاك المباحات، بما يجعلها في نفسك مقدمة لتشهي المحرمات! وإذن يثقل خطوك في طريق الله شيئا فشيئا؛ حتى تجتالك الشياطين، وتنقطع بك عن طريق الصالحين! وذلك استدراج من أخطر حبائل الشيطان اللعين! عافاني الله وإياك من الوقوع في مصائده وشِرَاكِهِ!

المجلس السادس
في مقام التلقي لطبيعة الرسالةِ، وطبيعة الابتلاء بهذا الدين!

1- كلمات الابتلاء:

وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ؟ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً (20) وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا! لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ

وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً (21) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (22) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (23) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (24)

2- **البيان العام:**

السُّنة الإلهية الثابتة في إرسال الرسل، إنما هي قائمة على كونهم بشراً بالقصد الأول؛ لِمَا تقتضيه الرسالة من صاحبها، من الدخول في تكاليفها التعبدية، هو بذاته أولا؛ حتى يكون مبلغا بأسوته وقدوته البشرية، ومترجما بصورة عملية ما يبلغه للناس بلسانه من الوحي. وذلك كله في إطار بشريته المحكومة بالضرورات الطبيعية، التي تحكم جنس الإنسان، متقلبا بين الفقر والغنى، والصحة والمرض، والضعف والقوة، والنصر والهزيمة، والخوف والجوع ..إلخ. مخالطا للناس في معاشهم وأسواقهم، متعاملا معهم في تجاراتهم، وإجاراتهم، وسائر تصرفاتهم. وهو في غمرة ذلك كله مبلغ عن الله بقوله وفعله، وسائر أحواله! وذلك هو عين التحدي!

تلك إذن هي سنة الله في الرسل جميعهم. سنة ثابتة مستمرة، مؤكَّدة بكل أدوات التوكيد اللغوية والسياقية، كما هو وراد في الآية: (إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ!) وعلى ذلك جُعِلُ ابتلاءُ البشرية بالدين. الدين الذي يوجههم في كل شؤونهم المعاشية والمعادية، من مساجدهم إلى أسواقهم! فإلى أي حد يستطيع الإنسان الصبر على ذلك؟ وإلى أي حد يستجيب لنداء الله – وهو متقلب بين شهوات المال والأعمال - متى ناداه بحكم شرعي في أي شيء من ذلك؟ فيقوم بحق ربه فيه! تلك هي قصة الابتلاء بالدين، والله جل جلاله بصير بعباده: من يشكر منهم ومن يكفر!

لكن الذين لا يؤمنون بلقاء ربهم؛ لإنكارهم حقيقة البعث والنشور، يملؤهم الكبرياء كلما عُرِضت عليهم الدعوة من لدن رُسُلٍ بَشَرٍ. وبهذا المنطق استكبروا على خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، فقالوا له بصلف شديد، على سبيل السخرية والتعجيز: هَلاَّ أنزل الله علينا الملائكة نحن أيضا!؟ لتخبرنا مباشرةً بأنك صادق فعلا، أو نرى ربنا ذاته جَهْرَةً عِياناً! فيخبرنا هو بذلك!

وإن هذا لهو منتهى الغرور والطغيان! وإنه لمنتهى الجهل بالله رب العرش العظيم!

لقد أُعجِب هؤلاء الكفرة بأنفسهم، واستكبروا استكبارا فظيعا، وطغوا طغيانا كبيرا! إذ تجرؤوا على رب العزة بمقالتهم هذه، التي تقشعر منها أبدان المؤمنين بالله، من الذين يقدرون الله حق قدره؛ لِمَا يعرفون له - جل علاه - من مقام عظيم! فهو وحده الرب المتصرف في ملكه، بما يشاء وكما يشاء! فكيف لجاهلٍ حقير من أضعف خلقه، أن يتدخل في شؤون ربوبيته!؟ فيملي هو على مولاه - جل جلاله –

كيف تكون طبيعة الرسول! وكيف يكون شكل الرسالة! ثم يطلب مواجهة ربه بالرؤية المباشرة! هكذا على سبيل الاشتراط على الله ربه ورب العالمين! استكبارا منه وطغيانا! ألاَ ذلك هو الجهل العظيم! (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ! اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ!)(الحج: 74- 75). وكيف يراه هؤلاء الجهلة بشروطهم؟ سبحانه سبحانه! كيف وقد ثبت في الحديث الصحيح أنه سبحانه وتعالى: (حِجَابُهُ النُّورُ! لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ!)([65])؟

نعم سيرون الملائكة! ولكن بشروط الله لا بشروطهم! سيرونهم عند قبض أرواحهم؛ لتبشرهم بالعذاب الأليم! ثم يرونهم بعد ذلك في عذاب القبر، وفي كل مشاهد البعث والنشور، لِتَزْجُرَ زُمَرَهُمْ يوم الحشر إلى جهنم زَجْراً! بما أجرموا في حق ربهم الخالق العظيم، وفي حق رسوله النبي الأمين! وآنئذ ستقول لهم الملائكة: (حِجْراً مَحْجُوراً!) أي: إن نعيم الجنة محرم عليكم تحريماً..! فالْحِجْرُ: هو الشيءُ المحرَّمُ الممنوع. والقصد هو زيادة تعذيب هؤلاء المجرمين؛ بتيئيسهم من رحمة الله، ولو بعد دهر من العذاب! فهم إلى جحيم دائم أبداً! وفي ذلك في ما فيه من الهول والفزع الذي لا يطاق! ولو بمجرد التخيل في الدنيا، فما بالك بمن وقف عليه هناك، وقد ضاعت منه كل فرص التوبة والعياذ بالله!؟ هؤلاء هم الملائكة الذين سوف يرونهم حقيقةً! وهذه هي المقالة التي سيسمعون منهم جهرةً، لا ما طلبوه تحدياً وسخريةً، ولا ما اشترطوه على ربهم ورسوله؛ تبجحا واستكبارا!

وأما الأعمال التي يدعون فعلها على وجه الإصلاح، مما ظاهره الخير والبر، فإن الله تعالى يكشف مقاصده الباطلة، ويفضح حقيقته المخادِعة؛ فيحطمه تحطيما ويجعله هباء منثورا؛ لأن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان صاحبه فيه خاضعا له، على سبيل التعبد، قياما بحقه العظيم تعالى. فلا صحة لعمل في الدين إلا ما كان مبنيا على الإيمان بالله أولا، إخلاصا له وتعبدا، واتباعا لرسوله المبلغ عنه، خطوةً خطوةً. وأما "الخير" المفعول على سبيل الاستكبار، وتمجيد الذات، وطلب الشهرة والصيت، فهو الشر عينه! وإن بَدَا من ظاهره ما بَدَا!

ولذلك فلن يفرغوا من حر الحساب الشديد، حتى يُساقوا إلى قضاء قيلولة مُؤَبَّدَةٍ، لكن في حر أشد من حر الحساب! إنه حر جهنم الرهيب والعياذ بالله!

وفي التفاتة رحمانية من الله إلى عباده المؤمنين الصالحين، يخبر سبحانه وتعالى أن "أصحاب الجنة" لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، إنهم في رحمة الله، ينعمون بجمال الطمأنينة الخالدة والاستقرار الكريم، يقيلون تحت ظلال الجنة الوارفة، تجري من تحتهم الأنهار، سالمين آمنين، مكرَّمين منعمين، بعيدا.. بعيدا

[65] رواه مسلم.

عن حر الجحيم! فشتان شتان بين المنـزلين! وشتان شتان بين المصيرين! وشتان شتان بين الخلودين!

3- الهدى المنهاجي:

وهو ينقسم في هذه الكلمات إلى ست رسالات هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في أن الداعية الحق إنما هو الذي يقود الناس بتدينه من وسط الابتلاء الاجتماعي، قدوةً صادقةً حقيقيةً. والذي يدخل تحت ربقة الشريعة عبدا لله، مع عامة الناس! فالداعية هو إمام العامة والخاصة جميعا، كلهم عنده سواء. ولا يكون كذلك إلا إذا حقق عبديته لله على أجمل صورة من التواضع، والانخراط في مجتمع العامة. فهو قدوة الخلق بما هو عبد الله الفقير إلى الله. وتلك سنة الله في الأنبياء من قبل، كما ورد في قصة نوح عليه السلام، إذ قال تعالى: (فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ!)(هود: 27).

وقد ذكر الإمام الطبري - رحمه الله - أن نفرا من كبراء قريش جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوجدوه ((قاعدا مع بلال، وصهيب، وعمار، وخباب، في أُنَاسٍ من ضعفاء المؤمنين، فلما رأوهم حوله حقروهم! فأتوه فقالوا: "إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تَعْرِفُ لنا العربُ به فضلَنا! فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العربُ مع هؤلاء الأَعْبُدِ! فإذا نحن جئناك فاطردهم! فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئتَ!))[66] فأنزل الله - جل جلاله - قوله تعالى: (وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ!)(الأنعام: 52)

ولذلك كان من دعائه صلى الله عليه وسلم: (اللهم أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين!)([67])

فالداعية لا يكون على القدوة السوية حتى يكون إماما في الدين لأمثال هؤلاء! ولا يستطيع أن يكون كذلك إلا إذا عاش بينهم! وصلى في مساجدهم، وأكل طعامهم ومشى في أسواقهم! وينبني على ذلك من الهدى:

- الرسالة الثانية:

في أن من التلبيس الشيطاني الذي قد ينحرف بالداعية عن المنهاج القرآني، أن يتوهم بأن عليه أن يحتجب عن الخلق، أو أن ينعزل في برج عالِمِيَّتِهِ بعيدا عن هموم الناس، وبعيدا عن آلامهم وآمالهم، متفرغا للتوجيه والنصح من بُعْدٍ، أو من

---

[66] تفسير الطبري: 201/7. والقصة مختصرة في صحيح مسلم.

[67] رواه ابن ماجه وعبد بن حميد عن أبي سعيد. ورواه الطبراني والضياء عن عبادة بن الصامت. وقال الشيخ الألباني: صحيح. حديث رقم: 1261 في صحيح الجامع.

وارء حجاب! محاطاً بخاصةٍ من أهل المال أو أصحاب الوجاهة الاجتماعية أو السياسية، أو نحو ذلك. ثم يتوهم أنه بذلك مؤد لحق النذارة. بل وجب عليه أن يخالط عامة الناس بذاته! خاصتهم وعامتهم، مثقفيهم ودهماءهم، ليتعرف على أدوائهم وأهوائهم. فالطبيب الذي لا قدرة له على التشخيص لا يمكنه أبدا أن يصف الدواء!

- الرسالة الثالثة:

في التنبيه على عدم الانشغال بمجادلة المنكرين للقاء الله بعثاً ونشوراً، إلا قليلا. وضرورة الاهتمام الأكبر - بدل ذلك - بمن يؤمن بالبعث ابتداء، مهما كان منه من فسوق وضلال، وهم سواد الأمة الأعظم؛ إذ الإيمان بالآخرة يعتبر بذرة خير عظيم، قابلة للإنبات بإذن الله، مهما بدا على صاحبها من انحراف.

- الرسالة الرابعة:

في تنبيه المؤمن إلى عدم الاغترار بما ينجزه الكفار بالله واليوم الآخر، من الأعمال "الخيرية" العامة، في سياق الخدمات المدنية، والمساعدات الطبية والإغاثية... إلخ؛ لأن ذلك كله وما في معناه إنما هو ضرب من تحقيق "الأنا"! والاستمتاع بالأضواء الإعلامية، والتمتع بالبطولات الفردية والجماعية، أو بالمقاصد السياسية والمواقع الاجتماعية...إلخ. تماما كما حقق حاتم الطائي قديما لَذَّتَهُ وذاتَه، في كرمه وجوده؛ بما نال من اشتهاره وانتشار ذكره في الآفاق! وقد ثبت في الصحيح أنَّ مِنْ أول مَنْ تُسَعَّرُ بهم النار يوم القيامة رجالاً فعلوا مظاهر عظيمة من "الخير"، ولكن كل ذلك كان تَسْمِيعاً وشُهْرَةً ورياءً؛ فأبطل الله أعمالهم وكانوا من أهل النار!

وهو قوله صلى الله عليه وسلم: (إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه، رجل استُشهد فأُتِيَ به فعرَّفَهُ نعمَه فعرَفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيكَ حتى استُشهدت! قال: كَذَبْتَ! ولكنك قاتلتَ ليقال جريء؛ فقد قيل! ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار!

ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به فعرَّفه نعمَه فعرَفَها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمتُ العلم وعلَّمتُه، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت! ولكنك تعلمتَ العلم ليقال عالِم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ؛ فقد قيل! ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار!

ورجلٌ وَسَّعَ الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتِيَ به فعرَّفه نعمَه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك! قال: كذبتَ! ولكنك فعلتَ ليقال: هو جواد؛ فقد قيل! ثم أمر به فَسُحِبَ على وجهه، ثم أُلقِيَ في النَّار!)([68]) وفي رواية أخرى زيادة صحيحة، يقول فيها النبي

[68] رواه مسلم.

صلى الله عليه وسلم: (يا أبا هريرة! أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسَعَّرُ بهم النارُ يوم القيامة!)([69])

ـ الرسالة الخامسة:

في أن حجاب الغيب شرط من شروط "التكليف" بمعناه الرسالي الابتلائي! فإذا ارتفع الغيب ارتفع التكليف! فلا قيمة لعمل في الإسلام لم يبن على الإيمان بالغيب؛ ومن هنا كان جوهر التربية الإيمانية معتمدا على ربط المؤمن بالغيب إيمانا وعملاً. (إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ!)(فاطر: 18)، (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ!)(الحديد: 25). والمؤمن مطلوب منه أن يتزود في سيره إلى الله من معين الغيب أبدا. والداعية مطلوب منه أن يسترشد بنفحات الغيب في دعوته إلى الله أبدا.

ـ الرسالة السادسة:

قد تبين أن طلب المؤمن كشف الغيب، والسعي إلى ذلك قصداً، ولو في بعض الجزئيات؛ بدعوى طلب الكرامات أو إظهارها للناس، مخالف لمنهج الإسلام في الدعوة والتكليف! وإنما الكرامة الشرعية هبة من الله، ولا تكون للعبد الصالح عادة إلا عند الضرورة. فهي من المواهب وليست من المكاسب. وأما التعبد بقصدها لذاتها، فهو من خوارم الإخلاص!

4- مسلك التخلق:

فيا قلبي العليل! أمامك الآن تحديان اثنان، هما خلاصة هذا المجلس. الأول: تحقيق العبدية الخالصة لله من وسط المجتمع العام، دِيناً ودَعْوَةً. والثاني: مراجعة عملك كله، على مقياس القَبُولِ الإلهي؛ قصد تصحيحه لله! وإلا فذلك هو الخسران المبين لا قدر الله!

فأما الأول: فمسلكه قرارٌ روحي تتخذه، ونقلة وجدانية تنجزها، وعزمة فاصلة قوية تدخلها؛ للتجرد من أطماع الدنيا؛ حتى تكون عاملا للآخرة فقط! فآنئذ يمكن أن تكون رجل العامة وإمام المستضعفين المؤمنين حقا! تدخل ابتلاء الدين بصلواتك وصيامك وزكاتك، في قلب محيطهم حتى تكون منهم وإليهم. وليس ذلك بالأمر اليسير، فما دامت لك عينٌ تميل إلى ترف الدنيا فإنك لن تستطيع الفكاك! فاقطع حبال التراب يا قلبي وانطلق!

وأما الثاني: فمسلكه أن تشاهد بوجدانك موقفك بين يدي الله يوم القيامة، وقد غضب جل جلاله غضبته الكبرى! فاسأل نفسك: أي عمل تستطيع أن تدعي الإخلاص فيه له وحده؟ لا سمعة ولا رياء مهما قلَّ أو خفي؛ عسى أن يسلم لك؟ ألا تخشى أن يقال لك أنت أيضا: كذبت! وتكون المأساة! فاللهَ اللهَ في عملك! واللهَ اللهَ في دينك قبل فوات الآوان! حَقِّقهُ خَفْقَةً خَفْقَةً، وكَلِمَةً كلمةً، وخطوةً خطوةً، وركعةً

[69] رواه الترمذي والخاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

ركعةً، وسجدةً سجدةً، ودِرْهَماً دِرْهَماً..! عسى أن تكون من الْمُسَدِّدِينَ الْمُقَارِبِينَ. فإذا بَلَغْتَهَا فقد وصلتَ إذنْ؛ فأبْشِرْ! وإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم – هو الذي يبشرك بقوله الكريم: (إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولا يُشَادُّ الدِّينَ أحَدٌ إلا غَلَبَهُ! فسَدِّدُوا، وقَارِبُوا، وأبْشِرُوا، واستعينوا بالغَدْوَةِ والرَّوْحَةِ، وشَيْءٍ من الدُّلْجَةِ!)([70]).

المجلس السابع
في مقام التلقي لمحاذير الندم الأبدي!

1- كلمات الابتلاء:

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً (25) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً (26) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً (29)

2- البيان العام:

هذه كلمات الندم! هذه آهات الألم!.. هذه رسالات النذير الإلهي الرهيب! هذه بشارات النجاة الخاتمة، وآيات الفرصة الأخيرة! تمتد إليك من الرحمن بوصف حقيقة الندم الأبدي عند فوات الأوان! لكنها تأيتك الآن قبل فوات الأوان! جامعة بين مقامات الجلال والجمال! فماذا تراك أنت فاعل بنفسك اليوم يا صاح؟

ههنا يَعْرِضُ الْمَلِكُ العظيم مشهدا رهيبا من مشاهد يوم القيامة! مشهد تشقق السماء وتَفَتُّحِ أبوابها، من كل جهاتها، وفي كل طبقاتها، سماء بعد سماء! إذ يتدفق الغمام بأسراب الملائكة تدفقا عجيبا! يبهت الأبصار ويبهر القلوب! سِرْباً بعد سِرْبٍ، بما يفيده لفظ "التنزيل" من التفويج والترتيب. فَتُنَزَّلُ أفواجُ الملائكة تنزيلا، كتنزل أصحاب المظلات العسكرية من طائراتها، لامعة تحت أشعة الشمس! لكنها خلائق ذات أنوار وجلال، تتنزل على أطراف أرض المحشر، حتى تحيط بالخلائق جميعها من كل جهاتها! قال ابن كثير رحمه الله في تفسير لفظ "الغمام" ههنا: ((هو ظُلَلُ النور العظيم الذي يبهر الأبصار! ونزول ملائكة السموات يومئذ، فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء!)([71]) وروي عن مجاهد أنه قال: هذا كما قال تعالى: ((هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ! وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمُورُ!)) (البقرة: 210)([72]).

---

[70] رواه البخاري.

[71] تفسير ابن كثير: 316/3.

[72] تفسير الطبري: 6/19. وكذا تفسير ابن كثير: 316/3.

فالْمُلْكُ الحقُّ في هذا اليوم إنما هو للرحمن، المَلِكِ الدَّيَّان، وحده دون سواه! لا تفويض فيه لأحد ولا تفويت! فقد انتهى زمن الابتلاء بالحكم والسلطان! هذا يوم جمع الملوك والمملوكين، والحكام والمحكومين، على صعيد واحد، سواسية بين يدي مَلِكٍ واحد، هو الله رب العالمين! ولذلك كان هذا اليوم شديدًا على الكفار، عسيرا على الظلمة! الظلمة لحقوق الله، والظلمة لحقوق الناس سواء! فالقضاء الإلهي اليوم وحده يفصل بين العباد. لا إمكان ولا أمل في التملص أو التخلص من حكم رب العزة الواحد القهار، رب الملك والملكوت! لا غش اليوم ولا رشوة، ولا خلابة ولا خداع! فتلك فتن ابتلائية انتهت بنهاية الدنيا! وانتصبت محكمة الحق العظمى! اللهُ - جَلَّ جَلالُهُ - فيها قَاضٍ والملائكةُ شهود!

هذا يومُ يَعَضُّ الظالم على يديه!.. هكذا في صورة من أبشع صور الشعور بالندم والخسران! فالعَضُّ على اليد تعبير جنوني عن رغبة هستيرية في الانتقام من النفس الأمارة، ندمًا وحسرةً! حيث يندب الظالم - بما فرَّط في جنب الله - مصيرَه المأساوي وحظَّه الخاسر! ويصرخ يائسا: يا ليتني اتخذتُ مع الرسول مسلكاً إلى الله! ويا ليتني اتبعته في اتخاذ الإسلام طريقاً إلى الجنة! ثم يصرخ مرة أخرى باكيا نادبا، وداعيا بالويل والهلاك على نفسه والعياذ بالله: "يَا وَيْلَتَى!.. ليتني لم أتخذ فُلاَناً – تعيينا بالاسم - من أهل الكفر والضلال خليلاً! فقد كان لي رفيقا، وقد كان لي صاحبا، فبئس الصاحب وبئس الرفيق! لقد كان لي خليلاً، أي: ملابسا لي على كل حال، لا يكاد يفارقني، ولكن على غير طريق الهدى والرشاد! فواحسرتاه! لقد أضلَّني هذا الشقيُّ عن الاستجابة لنداء القرآن! بعد إذ بلغني واضحا صريحا! ذلك هو قرين السوء، وصاحب الشر، عميل الشيطان ورسوله! الذي يقوم باستدراج أهل الشهوات والأهواء إلى الهلاك المبين!

ولكن أنَّى ينفع الندم اليوم؟ وأنى يفيد التحسر؟! كيف؟ وها الشيطان كلما أغوى أحدا حتى إذا أيقن بهلاكه أدبر عنه وخذله، وأخلف له كل وعوده الكاذبة! وتلك هي السنة الثابتة في كيد إبليس، كما قررها القرآن الكريم: (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً!) فعجباً لمن يقامر بمصيره الأخروي، وبمستقبله الوجودي، فيجعله رهين غواية الشيطان وغروره!

3- الهدى المنهاجي:

وينقسم إلى خمس رسالات كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في أن استحضار المؤمن لهول القيامة، ومشاهدته الإيمانية ليوم الحساب، حيث يتفرد الرحمن بالملك والقضاء بين العباد، وما يستتبع ذلك من رهبة وجلال، لهو من أهم موارد التزود الروحي لردع نوازع الشهوة في النفس، وقمع خواطر

الغواية الواقعة على القلب. كما أنه من أهم موارد تنشيط سير العبد، والتمكين لقلبه من جمال حاله وعلو مقامه، في دينه ودعوته.

- الرسالة الثانية:

في التحذير من إضاعة سبيل الرسول! فلا مسلك إلى الله إلا خلف رسول الله! عليه الصلاة والسلام. فهو السالك طريق القرآن، الخبير بأبوابه ومعارجه، المتخلق على الكمال بمحامده! عليه تنزل الكتاب كله، بما لم يتنزل على أحد من العالمين، ولا عرفه أحد قبله أو بعده. فهو الإمام الكامل، والقدوة الشاملة، والأسوة الجامعة المانعة! فلا يبتغي الهداية أحدٌ في غير سبيله إلا كان من الضالين! ولا يخرج أحد عن سنته قصداً واستدراكا عليه إلا كان من الهالكين!

- الرسالة الثالثة:

في التحذير من قرين السوء وخليل الشر! وبيان أن مخاللة الأشرار والأشقياء من أخطر وسائل الضلال والإضلال! وهذه قاعدة تربوية عامة في الكبار والصغار والذكور والإناث، فمن احتك بقوم إلى درجة الخلة تطبع بطباعهم. وكثير من الناس يستهين بها في نفسه وفي أبنائه، فلا ينتبه إلى خطورته حتى يكون من الهالكين! ويقابله أن من عاشر أهل الخير ناله من فضلهم وحسن خلقهم الشيء الكثير. وقد نبه الرسول - صلى الله عليه وسلم – على هذا في عدة مواطن من سنته الشريفة. ومن أشهر ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً. وَنَافِخُ الكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً!)([73])

وينبني عليه من الفقه التربوي: استحسان اتخاذ الصاحب الصالح في طريق السير إلى الله، فإنه معين - بإذن الله - في التغلب على أحوال القبض ومنازل الاغتراب، ومنشط في إسراع الخطى في طريق المجاهدات والمنافسات، والتغلب على الوساوس المثبطات. لكن على غير غلو وابتداع، ولا زيغ عن سنة النبي - عليه الصلاة والسلام - وإلا انقلب من دَالٍّ على الله إلى جدار غليظ حاجب عن الله!

- الرسالة الرابعة:

في التنبيه على خطورة الغفلة عن تلاوة القرآن، والانقطاع عن الشرب من ربيعه، والورود من نبعه، بما هو ذكر أساسي للمؤمن، وغذاء ضروري لروحه، وزاد لا غنى له عنه لهداه وثباته! فالبعد عن القرآن مؤد بالضرورة إلى قسوة القلب! تماما كما تقسو الأرض العطشى بانحباس الغيث عنها! فلا يلبث إلا قليلا حتى تتطلع نفسه إلى الشهوات المحظورات، وتلك بداية الانحراف والعياذ بالله! وكثيرا ما يكون ذلك بصورة من الخفاء بحيث قد لا يشعر بها المؤمن في بداية

---

[73] متفق عليه.

الأمر، بل قد لا يكاد يجد بها وعيا حتى يغرق في وحل الفتنة! فيصعب عليه الرجوع وتثقل التوبة والإنابة! ويحتاج إلى عزيمة أقوى مما لو صادفته خواطر السوء وهو قريب العهد بالقرآن، فإنه آنئذ يكون أقوى بإذن الله على طرد وساوس الشيطان، والتخلص من نوازع الأهواء والشهوات، والرجوع السريع والقوي إلى التشبث بحصون مقامه! وإنما المعصوم من عصمه الله.

- الرسالة الخامسة:

في التحذير من الافتتان بآراء الرجال ومصطلحاتهم، سواء كانوا من العاملين في مجال الدين والدعوة أو غيرهم، مهما كان شأنهم! مما قد يصدر عنهم مخالفا لحقائق القرآن وتعابير القرآن، فحذار من الانبهار بالأقدار التي قد تقع بقلبك لفلان أو علان، إذْ يأتيك بالفكرة أو بالعبارة، التي تقتضي أمرا عقديا أو حكما شرعيا، أو توجيها دعويا، لكنه منقوض بمنهاج القرآن، مخالف لسنة النبي عليه الصلاة والسلام، مرفوض بميزان الشريعة! فإنك إنْ يمل قلبك إلى اتباع ما وقع في نفسك من التعظيم لصاحبه، وتركتَ سبيل القرآن من أجله! فإنه لَيُخْشَى عليك أن تكون من الهالكين! (يَا وَيْلَتيَ..! لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً! لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً!)

4- مسلك التخلق:

ومسلك ذلك كله يتلخص في تحقيق الندم قبل الندم! ثم الإكثار من مطالعة أحوال الصالحين من الأنبياء والصديقين، والتشمير عن قدم الرحيل إلى منازلهم عبر سبيل القرآن الكريم.

فأما الندم قبل الندم، فراجع إلى تدبر أيام العمر، ومشاهدة ما ضاع منك من فرصها وهو كثير..! هل تستطيع اليوم استعادة الأمس؟ لقد ضاع مني ومنك إلى الأبد! مضى بحسابه واحسرتاه، ولكل يوم حساب جديد! أيامك في هذه الدنيا رصيدك. فانظر ياقلبي ماذا أنت فاعل برصيدك! وأي شيء يمكن أن تستدرك به ما فاتك منه؟ نَدَمُكَ الآن أَمَانُكَ! فاتخذه زادا قبل الندم العقيم! ندم الآخرة الذي لا ينفع صاحبَه أبدا!

فليس لك اليوم يا صاح إلا أن تفر من نقصان إلى العمر إلى بركة العمر! والبركة فيض الله الكريم على عباده، مرجعه التخلق بأعمال الْمُبَارَكِينَ من الصالحين! و(الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)([74])، فَتَخَلَّقْ بمحبتهم تَرَ من نفسك في الإقبال على الخير عجباً!

المجلس الثامن
في مقام التلقي لمنهاج القرآن، وبيان جريمة هجرانه!

---

[74] نص حديث متفق عليه.

1- **كلمات الابتلاء:**

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِيَ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (30) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنْ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً (31) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً! كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (32) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (33) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً!(34)

2- **البيان العام:**

ههنا صُلْبُ المنهاج الفطري، وروح البرنامج القرآني، وعمود الدعوة الإسلامية! مَنْ تَلَقَّى حقائقَه تَلَقَّى الهدى القرآني كاملا، ومن فاتته فاته خير عظيم! بل خِيفَ عليه أن تصيبه شكوى رسول الله صلى الله عليه وسلم! ولئن أصابته ليكوننَّ من الهالكين!

هذا رسول الله اليوم يشتكي إلى الله! فما أرهبه من موقف وما أخطره! (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِيَ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً..!) الله أكبر! نعم لقد هَجَرَتْهُ قريش حينا من الدهر. لكن الشكوى مستمرة باستمرار القرآن! وما ترك الله شيئا من آياته الواصفة للأدواء يتلى في كتابه، إلا لعلمه سبحانه بأن داءه سيظهر في الأمة يوما من الدهر! فأي هجران للقرآن أفظع مما تمارسه الأمة اليوم؟ أين هي من أحكامه وشريعته؟ أين هي من مصدريته وحاكميته؟ أين هي من أخلاقه وقيمه؟ ثم أين هي من منهاجيته في الدعوة والإصلاح؟ وفي التربية والتعليم؟ وفي السياسة والإعلام؟ وفي الاقتصاد والأموال؟ وفي العلاقات الاجتماعية والأسرية؟ وفي كل مرافق العمران البشري بشتى ميادينه ومجالاته؟ أين الأمة من القرآن؟

أتريد الجواب حقا؟ هذه أصداء النداء النبوي ما زالت متدفقه في الفضاء بحزنها العميق، تجأر إلى الله شاكية! فَأَنْصِتْ: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِيَ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً..!)

ويجيب رب العزة مبينا حكمة الابتلاء بهذه الدعوة، وجريمة هجران القرآن: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنْ الْمُجْرِمِينَ! وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً!) إنها جريمة إذن! لكنها سُنَّةٌ جارية، لها مسارها الثابت عند الله جل جلاله؛ لتتم حكمة الابتلاء بهذا الدين. فليكن من هذه الأمة من يسخر من القرآن العظيم! وليكن من يحارب أحكامه وأهله كما كان في الأمم السابقة! وعلى الداعية إلى الله أن يتمسك بالكتاب في تلك الظروف، ويثبت على حقائقه دينا ودعوةً! فتلك هي سنة الأنبياء من قبل مع أقوامهم تجاه كتاب الله!

ومن هنا قال تعالى لرسوله الكريم تسلية له وتطمينا، على ما اقتضته الآية السابقة: وكما جعلنا لكل نبي من الأنبياء قبلك – أيها الرسول - أعداءً من مجرمي أقوامهم حاربوا دعوتهم، فقد جعلنا لك أعداء من مجرمي قومك هجروا القرآن

وحاربوه! فاصبر كما صبروا! واعلم أن الله وحده هو الهادي والنصير الذي ينصرك وينصر دعوتك؛ لأن هؤلاء الجهلة إنما يحاربون بصنيعهم الإجرامي هذا اللهَ رب العالمين!

وقال الذين كفروا لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على سبيل السخرية: ما بال هذا القرآن يتنـزل عليه مفرَّقا هكذا آيات آيات؟ فهلاَّ نُزِّلَ عيله دفعةً واحدة؟! لقد جعل الله هذا الاستفزاز لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ سببا في إنـزال رد رباني عظيم، رد جاء ببصيرة من أعظم البصائر المنهاجية في كتاب الله! بصيرة ترسم المنهاج الشامل للتربية القرآنية في بضع كلمات! (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً!) أي: كذلك نَزَّلْنَاهُ مُفَرَّقاً؛ لِنُقَوِّيَ به قلبكَ، ولتزداد به طمأنينة، فتعي رسالته وأمانته، وتستطيع حملها بقوة؛ ولذلك ألقيناه عليك على مهل آياتٍ أَرْتَالاً.

فالتثبيت: التقوية للشيء، والتمكين له والتمتين. كما يبني المرء البناء فيثبته بتقوية أساطينه وأسواره؛ حتى يثبت منتصبا قويا شامخاً!

والترتيل هنا: هو الترسيل، أي إنزال القرآن آياتٍ بعد آياتٍ، مُفَرَّقاً لكن على ترتيب دقيق وتنظيم حكيم! حتى إذا جُمِعَ كان أيضا مُرَتَّلاً ترتيلاً، بمعنى جاء على نظام بديع! فمن معاني الترتيل: التنظيم والتنسيق والترتيب([75]). فالقرآن مرتَّل في تنـزيله الأول على حِكْمَةِ بناء الإنسان والأمة، في أول التأسيس لها زمن رسول الله عليه الصلاة والسلام. وهو مرتل بعد ذلك في بنائه التعبدي المحكم، الذي جمعه الله عليه بعد تمام تنـزيله، كتابا مرتبا، بآيه وسوره، على نظامه الذي هو في المصحف اليوم، وإلى يوم القيامة. فكان قوله تعالى: (وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) دالا على حكمة التفريق وجمال التنجيم زمنَ التنـزيل، ودالا أيضا على جمال الجمع وكمال المنع له بعد ذلك!

ومن هنا كان الترتيل بهذا المعنى مرتبطا بالتثبيت ارتباطا وثيقا؛ ذلك أن تقرير منهج الرحمن في تنـزيل القرآن مفرَّقاً؛ قصد بناء العمران الإيماني لقلب الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، ثم بناء النسيج الاجتماعي للمجتمع المسلم، كل ذلك جاء على قَدَرٍ معلوم وحكمة سابقة! اقتضت أن ينـزل القرآن آيات آيات، بصورة منهجية مرتبة تراعي الأولى فالأولى، في المعاني وفي الزمان والأحوال، في سياق بناء الأمة الإسلامية. فكل آية هي كاللبنة توضع بعناية في قلب المؤمن بمكانها، على ما يناسب حاله في زمانه، وعلى ما يناسب اللبنة التي تليها بدقة متناهية! تماما كتناسب خيوط النسيج وهو يُصْنَعُ على عين صاحبه، فهو يرى

---

[75] ولذلك سمي تجويد القرآن "ترتيلا"؛ لأنه تنظيم للحروف عند النطق بها، وترتيب لها عند الأداء، وترسيل للآيات على مهل، الواحدة تلو الأخرى. ومنه قوله تعالى: (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً)(المزمل:4).

تناسق فسيفسائه وألوانه - قبل تركيب جزئياته - كيف سيكون، دون غيره من الجهلة بأسرار الصنعة، الذين لا يرون جمال العمل إلا بعد نهايته!

فالإنسان ههنا هو موضوع العمل، وهو ذاته ميدان البناء! (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ!) وهو المقصود بحمل تكاليف القرآن وشريعة القرآن.

ولأنَّ القرآن بما تضمن من أمانة عظمى قولٌ ثقيلٌ جداً: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً!)(المزمل:5) فقد كان هذا الإنسان – وهو المخلوق الضعيف - في حاجة إلى بناء أساطينه الإيمانية وعمارته الروحية؛ لتستطيع حمل شريعة القرآن! فاحتاج إذن إلى صناعته وبنائه على عين الله، وتزكية روحه بهذا المنهاج الرباني اللطيف المترسل، المنجِّم للآيات على قدر ما يطيقه الإنسان، آياتٍ بعد آياتٍ. لكن على منهج البناء المنظم المحكم! إلى أن يكتمل العمران في الأمة تاما، فرداً وجماعةً! فعلى ذلك النظام الإلهي رُتِّلَ القرآنُ ترتيلاً ورُسِّلَ ترسيلاً! فأكْرِمْ به من منهاج رباني حكيم وأعْظِمْ! وإنه لدرس للدعوة الإسلامية التجديدية في كل زمان ومكان، ما له من ثمن!

فأي حكمة هذه وأي مَثَلٍ!

ولذلك خاطب رسول الكريم بأن الكفار لا يأتونك بشبهة مما يضربونه لك من الأمثال، إلا جئناك بالمَثَلِ الحق، وبالبيان الحق، المتضمن للحكمة الإلهية التي لا يعرفونها ولا يبصرونها؛ بما غشي قلوبَهم من ظلمات الكفر والكبرياء. فَمَثَلُ السَّوْءِ إنما ينطبق عليهم هم بالذات! إذْ هم الذين سَيُجَرُّونَ إلى جهنم، ويُسْحَبُونَ على وجوههم إلى جحيمها! هكذا بصورة منكوسة مقلوبة! كما نكسوا الحقائق وقلَبوا الأمثال في الدنيا! أولئك هم شر الناس منزلةً، وأشدهم بعدا عن الهدى، وأسوؤهم انحرافا عن الصراط المستقيم!

3- الهدى المنهاجي:

وينقسم إلى عشر رسالات كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في أن هجران القرآن جريمة في الدين! سواء كان ذلك استخفافاً به ومحاربةً له وعدوانا عليه، وهذا هو الكفر العقدي الصريح. أو كان إهمالا له واشتغالا بغيره على سبيل اتباع الهوى والتشهي، كما هو غالب أحوال الأمة اليوم، وهذه كبيرة من أعظم الكبائر! وكفى بأوضاعنا المتردية الهالكة دينا ودنيا، دليلا قاطعا على حجم الخسائر المادية والروحية، التي تجنيها الأمة بسبب هجرها لكتاب الله! وقد سبقت بشارة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بما في التمسك بالقرآن من الفضل العظيم، والأمان التام للمسلمين في الدنيا والآخرة. فقد دخل عليه الصلاة والسلام المسجدَ يوما على أصحابه، ثم قال: (أبشروا.. أبشروا..! أليس تشهدون ألا إله إلا

الله وأنـي رسـول الله؟ قـالوا : بلـى، قـال : فـإن هـذا القـرآن سَـبَبٌ، طرفُـه بيـد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به! فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبداً!)([76])

- الرسالة الثانية:

فـي أن الخـروج عـن منهـاج القـرآن فـي الـدعوة والتجديـد ضـرب مـن الهجـر المنهاجي للقرآن! وهو انحراف – لو تدبره الناس - شنيع! وقد يتخذ هذا النوعُ من الهجر صورا شتى، منها عدم الاشتغال بنصوصه تلاوةً وتربيةً وتداولاً في الصف الإسـلامي. ومنهـا عـدم مراعـاة أولوياتـه الدعويـة، ومقاييسـه التربويـة، وحقائقـه الإيمانية، في التعامل مع النفس والمجتمع. فالإعراض عنه إلى البرامج الفكرية المنفصلة، التـي قـد تشتغل حولـه ولكنهـا لا تشتغل بـه! هـو نـوع مـن الانحـراف المنهاجي الخفي، الذي قد يتطور إلى مناقضة حقائقه ومخالفة منطقه وموازينه.

- الرسالة الثالثة:

فـي أن القـرآن يحمـل البرنـامج الكامـل لتطبيقـه، والمنهـاج الشـامل لدعوتـه. وأن ذلك مرتل - بمعنى منظم ومرتب - فلا يحتاج إلى تدخل اجتهادي إلا علـى مستوى تخـريج الحِكَـمِ والمناطـات الدعويـة وتحقيقهـا علـى حسـب النـوازل والمطالـب المرحلية.

وعلى هذا الأساس وجب تجديد الإيمـان بالكتـاب لـدى هذه الأجيـال المعاصـرة! فكأن بعض المسلمين اليوم قد ضعف عندهم التسليم بهذه الحقيقة الإيمانية العظمى! فاشتغلوا في مجال الإصلاح الديني ببدائل عن كتاب الله، وبقـي القرآن عنـدهم فـي الهامش بدل أن يكون في الصلب! كما تقتضيه الكلمات القرآنيـة موضـوع التـدارس في مجلسنا هذا، وكما تقتضيه حقائق السيرة النبوية المتواترة!

فالرسـالة اليـوم هـي تجديـد الإيمـان بالكتـاب، لـيس باعتبـاره مصـدرا للتربيـة فحسب؛ ولكن باعتباره برنامجا لها أيضا، وهذا هو الأساس! فهو البرنـامج الإلهـي للعمل الإسلامي، سورةً سورةً، وآيةً آيةً! وعلى قدر علو قدم المؤمن فـي معراجـه يكون صلاحه وقربه من الله، فرداً وجماعةً. فلا اشتغال إلا بـه وفيـه! فهو الطريـق الواضح إلى الله وما سواه حُجُبٌ عن الله!

وعليه؛ فإن المـادة الأساسية لبنـاء الإنسـان فـي الإسـلام تربيـةً وتزكيـةً وتعليمـاً، إنما هي كلمات القرآن! فالآيـة صـريحة فـي أن "التثبيت" لقلـب الرسـول صـلى الله عليه وسلم - بما ذكرنـا لـه من معنى بنـائي تربـوي - إنمـا هـو واقـع بـالقرآن: (كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ!) فلا يحتاج إلى خلطه بغيره على المستوى المصدري، إلا ما كـان من بياناته النبوية فهي منه وإليـه. وهو معنـى قـول عائشـة - رضـي الله عنهـا - فـي

[76] رواه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شعبه، وابن أبي شيبة فـي مصـنفه، والطبرانـي في الكبير، وعبد بن حميد فى المنتخب من المسند. وصححه الألبـاني فـي السلسـلة الصـحيحة: 713.

حقه عليه الصلاة والسلام: (كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ!)([77]) هكذا على سبيل الاستغراق والشموال!

- الرسالة الرابعة:

في أن الفاعل التربوي في القرآن إنما هو الله جل جلاله! (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ!) فإذا كان القرآن هو مادة التربية والتزكية فإن الله جل جلاله هو المربِّي به وهو المزكِّي به، لكن لمن أقبل عليه بشروطه، حاملا نية الافتقار إلى الله، متلقيا عنه كلماته بمنهج القرآن، ترتيلا وترسيلا! ولذلك فالداخلُ مدرسة القرآن - بهذا المعنى – هو عبدٌ فَتَحَ فؤاده لكلمات الله؛ لِيُصنَعَ على عين الله! حتى إذا تم له التخلق بحقائقه الإيمانية، كان جنديا من جنود الله! وعبدا خالصا من عباده، ومؤمنا من أهله وخاصته! وتلك هي عين الولاية الحق! وهو مقتضى قول الرسول صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه عنه الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: ((إنَّ لله تعالى أهْلِينَ مِنْ النَّاس: أهل القرآنِ هُمْ أهْلُ الله، وخَاصَّتُهُ!))([78])

- الرسالة الخامسة:

في أن أخذ القرآن جملة – مهما تكن له من بركات تعبدية على مستوى الذكر – فإنه مع ذلك يمنع الثمرة التربوية البنائية! حيث لا يتحقق معه التثبيت المنهاجي للقلوب، لا على مستوى الأفراد ولا على مستوى المجتمع؛ لأن فعالية الدواء إنما تكون بأخذه على فترات منتظمة، وعلى أقساط متقاربة. فقوة القرآن وعمق كلماته المرتبطة بعالم الغيب، تجعل الناظر إليه بالكلية عاجزاً عن إدراك دقائق بصائره الكامنة في كلماته! فهذه تحتاج إلى اقتراب شديد من آياته عبارةً عبارةً؛ لتحقيق الإبصار! فمن أبصر الحقائق الإيمانية أدرك آنئذ أنه لا طاقة له بأخذها جملةً، بل من أخذها جملة تركها جملة! فالعمق الروحي للآيات والثِّقَلُ الإيماني للكلمات، أعظم من أن تطيق النفس البشرية تَلَقِّيهِ إلا على مَهَلٍ! ولا يستسهل ذلك ويستصغره إلا جاهل بحقيقة القرآن! وهو مقتضى قوله تعالى: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً!)(المزمل: 5) وذلك ما يتطلب زمنا ليس باليسير! حيث يصير القرآن آنئذ برنامج العمر كله!

وعلى هذا المنهج تنزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، على مدى ثلاث وعشرين سنة! ومن هنا أخذ الصحابة منهج التَّخَوُّلِ النبوي في التربية والإصلاح. فعن أبي وائل قال: (كان عبد الله [يعني ابن مسعود رضي الله عنه] يُذَكِّرُ الناسَ في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن! لَوَدِدْتُ أنك ذَكَّرْتَنَا

---

[77] رواه مسلم.

[78] رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير:2165.

كلَّ يوم! قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكْرَهُ أن أُمِلَّكُمْ! وإني أتَخَوَّلُكُمْ بالموعظة كما كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يَتَخَوَّلُنَا بها؛ مخافة السآمةِ علينا!)([79])

ـ الرسالة السادسة:

في أن فقه الأولويات وفقه المراحل، منهج قرآني أصيل لبناء الدين وتجديده، في النفس وفي المجتمع. فمنهج التثبيت والترتيل المذكور في الآية، بما ذكرنا له من معنى تفريقي، وترسيل ترتيبي على فترات، وعلى مهل مُقَدَّرٍ من لدن الله تقديراً، كل ذلك واضح الدلالة في أن منهج تجديد الدين لا يكون إلا بما بدأ به أول مرة! وهو مراعاة نضج الظروف والأحوال عند كل خطوة، ومراعاة المستوى التربوي والإعداد الروحي، الذي بلغه المتلقون لكلمات الله. فالبناء الشامل للإنسان لا يكون بين عشية وضحاها! بل هو سيرة حياة لجيل كامل، ولعمر كامل! وربما لم تكن الثمرة الأرضية إلا لأجيال لاحقة. والعبد إنما يشتغل في هذا الشأن لنيل ثمرة الآخرة. والله وحده هو الذي يقدر متى ومن سيشهد لحظة النصر الأرضي. والتدخل في توقيت ذلك أو التعسف في تحيينه ظلمٌ وتَعَدٍّ، وافْتِآتٌ على الله!

ـ الرسالة السابعة:

في بيان مفهوم "المرحلية" على موازين القرآن. ذلك أنه قد اختلط معناها على بعض الناس؛ مما أدى إلى اختلافٍ حولها شديد. فاعتبار المراحل له معنيان: تشريعي ودعوي.

ـ فالأول: مرحلية تشريعية، وهي منهج تنزيل أحكام الشريعة على مراحل حسب النوازل والأحوال، وبذلك تعلق النسخ في القرآن، والتأخير لبعض الأحكام إلى المرحلة المدنية. وهذه المرحلية انتهت اليوم، ولا يجوز الرجوع إليها بالتطبيق الحرفي، كما صنعه بعض الجهلة! فسكتوا عن تحريم الخمر مثلا باعتبار أنها إنما حرمت في المدينة! ونحن الآن في مرحلة مكية! وهذا ضلال مبين! فالمرحلية التشريعية قد أُغلقت إلى الأبد! وانقطع العمل بها باكتمال نزول القرآن ووفاة الرسول عليه الصلاة والسلام. وإنما بقي الآن من ذلك الاجتهاد في منهج الدعوة إلى الشريعة، نعم ههنا يحضر المعنى الثاني وهو:

ـ المرحلية الدعوية: وهي الاستفادة من مقتضيات المنهاج القرآني في اعتبار الأولويات التربوية في بناء الإنسان وتأسيس المجتمع، بالتقديم والتأخير الدعوي للقضايا الإيمانية والشرعية على حسب الأولويات البنائية. هذا على مستوى الدعوة لا على مستوى التشريع.

فالمرحلية التشريعية تقرأ ههنا قراءة تربوية لا فقهية، فَتُسْتَفَادُ حِكَمُهَا لا أحكامُها! ثم تُراعى فيما يُجعل في برنامج الدعوة لهذه المرحلة دون تلك، وفيما

---

[79] متفق عليه.

يُتخذ قضيةً لهذه المعركة دون تلك، أو لهذه الفترة دون الأخرى. فالحكم الشرعي ثابت والمعركة حوله متغيرة على حسب الظروف والأحوال!

بمعنى أن بعض القضايا قد يقتضي حجمها وموقعها التشريعي في الكتاب والسنة، أن تجعل في بؤرة العمل الدعوي وفي صلبه؛ نظرا لكونها من الأصول الكبرى، التي إذا سلمت للأمة سلم لها ما ينبني عليها. بينما يكون الاشتغال ببعض فروعها تقديما عليها؛ بأن تجعل هي بؤرة العمل الدعوي، وتؤجج حولها المعارك والصراعات، ضربا من الإلهاء عن العمل البنائي الحق! وضربا من الانحراف عن منهاج القرآن في عرض قضايا الدين دعوةً وإصلاحاً. وذلك يختلف تقديره حسب الزمان والمكان؛ لأنه مرتبط بالتنـزيل التطبيقي للمنهاج الدعوي القرآني! وأهل العلم بالشريعة وبالواقع بكل مكوناته، هم المؤهلون لتقدير ذلك وتحديده.

فإذا كانت قضية بلد ما، أو زمن ما، تدور بالأساس حول صُلْبِ الهوية الإسلامية مثلا، والنـزاعُ الواقع إنما هو حولها، كما هو الأمر في بعض أقطار العالم الإسلامي، فإنه من العبث آنئذ الدخول مع الناس في معارك البدع الإضافية، والانحرافات الجزئية في الدين، بل المعركة ساعتها إنما هي حول أصل الإيمان! دعوةً وتثبيتاً وترسيخاً! ولا يعني ذلك أبدا مباركة البدع، أو تشجيعها! وإنما هي معارك لم يحن أوانها بعد.

كما أنه يمكن تصور ذلك دعويا على المستوى الفردي، في نوازل شتى. فعلى سبيل المثال محاولة إصلاح مسلم مبتلى بآفتين: ترك الصلاة، والإدمان على الخمر! فإذا أمكن الجمع له دعويا بين الحسنيين فعلا وتركا فبها ونعمت؛ أما إذا تبين أنه لا طاقة له في الجمع بين الفعل والترك في الأمرين معا، وأن محاولة ثنيه عن شرب الخمر لن تجعله إلا مستمرا في ترك الصلاة، فههنا يركز له على واجب أداء الصلاة أولا، وتُرْجَأُ معركة الخمر في حقه إلى حين؛ لكن بشرط ألا يعني ذلك إفهامه أن شربها مباح! بل يجب أن يعلم أنها أم الخبائث! ولكن يخاطب بالشريعة دعويا على قدر استعداده، فَيُدْعَى أولا إلى التزام الصلاة والحرص عليها، إلى أن تنبت شجرة الإيمان بقلبه! وحينها سيكون قلع آفة الخمر من حياته – بإذن الله - أيسر بكثير. ولعله يبادر هو إلى التوبة النصوح قبل ذلك!

فالمرحلية الدعوية تستفيد من المرحلية التشريعية حِكَمَهَا على مستوى الإصلاح والتربية، دون التطبيق الحرفي لأحكامها على مستوى التشريع والإفتاء! لأن ذلك الباب قد أُغلق بكمال الدين وتمام نزول الوحي.

وكما يجري ذلك في النوازل الدعوية الفردية على المستوى الجزئي، فإنه يجري أيضا في القضايا الدعوية العامة للمجتمع على المستوى الكلي، مما يقدره فقهاء الدعوة وحكماؤها، على حسب نوازلها ومواقعها من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو من أدق مواطن الفقه في الدين والدعوة معا!

ذلك فرق ما بين المرحلية التشريعية والمرحلية الدعوية، وهو خيط الحكمة الرفيع الذي يُجَلّيهِ لنا القرآن الكريم بمنهاجه الترتيلي. وكذلك الأمر على مستوى جميع أنواع الانحرافات التي تحتاج إلى تصحيح، وجميع الحقائق الإيمانية التي تحتاج إلى إعادة بناء وتجديد، دائما الأولى فالأولى. دون أن يعني ذلك تغيير أي شيء من أحكام الشريعة، كلا وحاشا! ولا حقيقة واحدة من حقائقها المحكمة، أو حكما واحدا من أحكامها القطعية الثابتة!

فمنهج التثبيت للقلوب إنما هو قائم على بناء الفروع على الأصول، والعكس غير صحيح. وعلى حسب حجم الهدم الحاصل في المجتمع لمفاهيم الدين وقيمه، تكون أولويات العمل الدعوي ومراحله.

- الرسالة الثامنة:

في أن الأفئدة والقلوب الإنسانية هي الموضوع الأساس لبناء الدعوة الإسلامية، فرداً وجماعةً.

القلب، أو الفؤاد، هذا المعنى القرآني العظيم، هو محل الخطاب الإلهي في القرآن الكريم. والله - جل جلاله - هو العليم بموقع القلب من الفطرة الإنسانية خَلْقاً وتقديراً. ((أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ!))(الملك:14).

ومن هنا وجب عدم الاستهانة بطرق أبواب القلوب في الخطاب الإسلامي جملة، تربيةً ودعوةً، وأن الإنسان مهما تَعَقَّدَ تركيبُه العقلاني، ومهما تميَّز موقعُه الاجتماعي، إنما هو مجرد إنسان! تحكمه أحوال الخوف والرجاء، ولحظات الرغبة والرهبة، ومواقف الضعف والانهيار، والحاجة الشديدة إلى الفرار الروحي نحو الغيب! ولو كان ينكر ذلك ظاهرا ويجحده استكبارا! فالعقل البشري أنى كان، يصل بسرعة إلى لحظة العجز المطلق في تفسير قضايا الوجود، وكشف طلاسم الموت والمصير! ولا بد أن يقف الإنسان على حقائق ذلك كله في حياته؛ فلا يملك – إن لم يكن من المؤمنين بالله واليوم الآخر - إلا أن يولي هاربا من الاستغراق في تأمله! والخطاب القرآني وحده يقدم الإجابة واضحة وقوية!

فالاعتناء بتثبيت القلب الإنساني، بناءً إيمانياً راسخاً، من شأنه أن يوجه كل تصرفات الإنسان العقلية والمادية، ويجعلها في خدمة تجديد العمران البشري بمفهومه الإسلامي الرفيع، وإعادة صياغة الأمة على منهاج القرآن. (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً)!

- الرسالة التاسعة:

في أن الترتيل الأول للقرآن والترتيب الأول لنزول آياته وسوره - حسب أسباب النزول وتاريخه - كان خاصا بالتأسيس الأول للأمة الإسلامية زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك فإنه لم يُحفظ بحفظ القرآن. وأن الترتيل الثاني للقرآن حسب الجمع النهائي له؛ هو لضمان استمرار الأمة، ولإعادة تجديد دينها

كلما بليت حقائقه في مجتمعها، لا لتأسيسه ابتداءً؛ ولذلك فهو الذي حُفظ بحفظ القرآن الكريم.

ومن هنا فإن الحِكَمَ التي قد تفيد الأمة الآن في حاضرها، ديناً ودعوةً، مما يتضمنه الترتيب الأول، هو موجود في الترتيب النهائي المحكم، إضافة إلى ما أودعه الله - جل جلاله - في هذا الأخير من أسرار.

وهذا لا يمنع الاستفادة الإجمالية، مما أُثِرَ من أحاديث موقوفة على بعض الصحابة، في ترتيب القرآن على حسب النزول؛ استئناساً بها في منهج التعامل مع القرآن الكريم – بصورته الترتيبية التوقيفية النهائية - في المجال التربوي والدعوي خاصة. وكذا في تبين مراحل الدعوة الإسلامية في سياق التدافع البشري، والتجديد الديني للمجتمع الإسلامي.

- الرسالة العاشرة:

وفيها دليل على أن هذه الأمة مهما تُصَبْ بالانكسار والانهيار، فإنها لا تموت أبداً! ولذلك فإنها لن تحتاج بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا إلى تجديد البناء. فكان هذا الترتيب المتواتر للقرآن الذي يقرؤه الناس في المصاحف اليوم، هو المحفوظ المحكم بدقة متناهية، لا خلاف فيه ولا اضطراب.

ومن هنا وجب على الدعاة والمسلمين أجمعين أن يستصحبوا أملا كبيرا – على قدر إيمانهم بالله ويقينهم فيه - في عودة الأمة إلى كامل عزها ومجدها، وعودة الدين وأهله إلى موقع الريادة والشهادة على الناس، متى أذِنَ الله في ذلك. وإنما على المؤمن أن يعمل متعبدا بما أمر الله من الدين والبلاغ. (وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً).

4- مسلك التخلق:

ومَسْلَكُ العمل بكلمات هذا المجلس يكون بالتخلق بأمرين:

- الأول: صحبة القرآن لتلقي محبته، وذلك بدوام تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، قياما بسوره، وتدارسا لآياته، وتعلما لأحكامه، وتلقيا لِحِكَمِهِ. فمن تلقَّى محبة القرآنِ تلقَّى محبة الله تعالى. وتلك هي علامة الولاية، التي نص عليها الحديث النبوي الشريف، مما يرويه أبو هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ اللَّهَ تعالى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ! وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ!))(80).

---

[80] رواه البخاري.

وقد تضافرت الأدلة والنصوص على أن القرآن هو كتاب المحبة!

- الثاني: تثبيت القلب بالدخول في ابتلاء كلمات القرآن! برنامجا مرتلا ترتيلاً. وإعداده لحمل رسالته الربانية، والجهاد بحقائقه الإيمانية، ومفاهيمه المنهاجية، وترويض النفس على الصبر على ثقل أمانته! وهذا لا يكون إلا بالتحقق بالمعنى الأول، وهو القيام بالقرآن للتخلق بمقام المحبة. فالمحب يستصغر النفس والنفيس في سبيل المحبوب! ولذلك قال - جل ثناؤه - لعبده في أوائل بداية الطريق: (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً! نِصْفَهُ أَوُ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً! إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً!)(1-5).

فيا قلبي العليل! ويا خافقي المريض الخامل! إلى متى وأنت هكذا متواكلٌ مُتَمَنٍّ على الله بين زوايا الركود والخمول؟ إلى متى؟ وها قوافل الربانيين قد قَطعتْ فَرَاسِخَ وفَرَاسِخَ من زمن الآخرة، سيراً في طريق المحبة! يحدوها الشوق إلى الله، ويغذيها الأنس به جلَّ عُلاه!؟

ألاَ فَانْفُضْ عنكَ أدْرَانَ الترابِ يَا صَاحِ وطِرْ..!

المجلس التاسع
في مَقامِ التَّلَقِّي لِمَحَاذِيرِ التَّتْبِير!

1- كلمات الابتلاء:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً (35) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً (36) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً (37) وَعَاداً وَثَمُوداً وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً (38) وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً (39) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً (40)

2- البيان العام:

هذا مقام التذكير بأيام الله! والبيان الحق لِمَصَارِع الأمم وقرون الدول!

هذا بيان للناس! وتبصير لهم بحقيقة مهلكهم وأسبابه، مما يجهله قوم كثير، أو لا يؤمن به آخرون! فالتَّتْبِيرُ عذابٌ إلهي رهيب، وعقوبة ربانية شديدة! وهو إهلاك شامل مخيف، يأتي بمصائب عامة وكوارث كبيرة تحصد كل شيء! ولذلك فهو لا يقع بقوم إلا بغضب شديد من الله ذي الجلال، والعياذ بالله! ولا يغضب سبحانه على أهل الأرض إلا بطغيان ذنوبهم، وتواتر ظلمهم، وتظاهر شرهم، وتمردهم على خالقهم! فمعرفة طبائع الذنوب ودركاتها، وحدود خطورتها شيء ضروري للمؤمن العارف بمقام الله!

وما اقترفت البشرية جرما أعظم من التكذيب بكتاب الله وَرُسُلِهِ! وإعلان الحرب عليهما!

ولقد كانت أعظمُ شَكَاةٍ رفعها محمد بن عبد الله – عليه الصلاة والسلام - إلى الله، ذلك النداء المستغيث الحار الذي تُدُورِسَ بالمجلس السابق: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِيَ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً!) فذلك هو بدء سياق مجلسنا هذا، وتلك هي مقدمته، وههنا جوابه ونتيجته! وليعلم الناس خطورة هجر القرآن، وخطورة التكذيب بكتاب الله، فقد أورد سبحانه ذكر الأمم البائدة أمثالاً، لما وقعت في نفس الجريمة، تكذيباً بالكتاب واستهزاءً بالآيات! فنالها بسبب ذلك غضبٌ شديدٌ، وكانوا من المهلكين بقطع دابرهم وَبِتَتْبِيرِهِمْ تَتْبِيراً! وتلك هي أيام الله!

ومن هنا جاء قول الله تعالى بهذا السياق متوعداً من كذَّب رسولَه، محمداً صلى الله عليه وسلم، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه، مما أوقعه بالأمم الماضية المكذبين لرسله. فبدأ بذكر موسى عليه السلام، وأنه بعثه بالكتاب إلى قومه، وجعل معه أخاه هارون وزيراً، أي نبياً مؤازِراً ومؤيِّداً وناصِراً، فكذبهما فرعون وجنوده، فكان ما كان من تدمير لطغيانهم بالإهلاك والإغراق!

وقد ذُكِرَ موسى في هذا السياق قبل نوح عليهما الصلاة والسلام، رغم أن موسى متأخر عنه زمانا؛ للشبه القائم بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم في طبيعة الرسالة، فكلاهما أوتي الكتاب من لدن الله، وإن كان كتاب محمد صلى الله عليه وسلم أجمع وأمنع. إلا أن الرسالة القائمة على "كتاب" تكون أثقل وأعظم! لما يحمله الكتاب عادة من تعاليم إلهية موثقة، وتكاليف ربانية مفصلة، كلها ابتلاءات تعبدية وتشريعية. وقد عانى محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه في بلاغ حقائق القرآن، كما عانى موسى عليه السلام في بلاغ حقائق التوراة. فكان الإهلاك سنة الله فيمن كذب بالكتاب! وهو عذاب كان معلقا على رؤوس الكفار من مشركي العرب، إلا أن يتوبوا إلى الله ويؤمنوا بالكتاب. ثم هو عذاب لم يزل معلقا أيضا على رؤوس البشرية عبر مطلق الزمان، كلما تحدَّت رب العزة، وتظاهرت على حرب الكتاب! إلا أن تتوب إلى الله رب العالمين!

وكذلك فعل - جل جلاله - بقوم نوح من قبل، حين كذبوا رسوله عليه السلام، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً! يدعوهم خلالها إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ، ويحذرهم نقمته وعذابه، ولكن كذبوه جيلا بعد جيل! (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ!)(هود: 40)، فكانوا كأنهم كذبوا عدة رسل، لا رسولا واحدا فقط! ولهذا قال تعالى: (وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ!) ولم يكن قد بعث إليهم إلا نوحا فقط. وهو دليل على أن من كذَّب رسولا واحدا فقد كذب جميع الرسل، أولهم وآخرهم! لأنهم جميعا جاؤوا بحقيقة واحدة من عند الله. ولهذا أغرق الله قوم نوح ولم يبق منهم أحداً، إلا من آمن! حيث إنه لم يترك من بني آدم على وجه الأرض آنئذ سوى أصحاب السفينة!

ولـذلك قـال سـبحانه: (وجعلنـاهم للنـاس آيـة!) أي عِبْـرَةً ودلالـة للأمـم اللاحقـة، يشاهدون فيها أثراً من عظمة الله ـ جل جلالـه ـ وقدرتـه علـى المجرمين وإحاطتـه بالعالَمين.

ثم ذكر عاداً وهم قوم هود، وثموداً وهم قوم صالح، ثم أصحاب الرَّسِّ. فأما أصحابُ الرَّسِّ فقد قال ابن عباس: هم أهل قرية من قرى ثمود. وقال عكرمة: هم أصحاب يس. والرَّسُّ: بئر رَسُّوا فيها نبيَّهم، أي دفنوه فيها!([81]) وكلهم جميعا أبادهم الله وقطع دابرهم بغضبه ونقمته! لما كذَّبوا بآياته ورُسُلِهِ!

فتلك سُنَّةُ الله الثابتة مع الطغاة المكذبين بالدين. ما تحدَّتْ أمةٌ رَبَّ العالمين إلا جعلها من المهلكين! ولو بعد حين! سُنَّةٌ لا تتخلف أبدا، ولذلك قال: (وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً)، أي: وأمماً أخرى كثيرة لم نذكرها لك، أهلكناها أيضا! بناء على السنة الجارية. ثم قال: (وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأمْثَالَ) أي وضحنا لهم الأدلة بأبلغ ما يكون البيان، وأقمنا عليهم الحجة، وأزحنا عنهم الأعذار، (وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً) أي أهلكناهم إهلاكاً! والقرن: هو الأمة من الناس، وحَدَّه بعضُهم بمائة سنة، قال ابن كثير رحمه الله: (والأظهر أن القرن هو الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد، وإذا ذهبوا وخلفهم جيل فهو قرن آخر، كما ثبت في الصحيحين: "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"... الحديث)([82]).

ثم أفرد في نهاية الأمثال قوم لوط بذكر خاص؛ لخصوص جريمتهم المخالفة للفطرة الإنسانية، ولخصوص عقوبتهم المدمرة الرهيبة! (وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ!) يعني قرية لوط عليه السلام، وهي المسماة بـ"سَدُوم"، التي أهلكها الله رجماً بحجارة من سجيل، وقلَّب أرضها خَسْفاً وزلزالاً! وجعل عَالِيَهَا سَافِلَهَا! فكانت بعد ذلك آثاراً وعبرة للمعتبرين. وقد كانت العرب تمر عليها قديما في رحلتها إلى الشام، فلا تبصر من عبرتها شيئا! وهو معنى قوله تعالى في سورة الصافات: (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ؟)(الصافات: 137- 138). ولهذا قال ههنا في الفرقان: (أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا؟) فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنكال؟ ثم قال: (بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً!) يعني المارين بها من الكفار، الذين لم يكونوا يؤمنون بالبعث! ذلك أن المؤمن باليوم الآخر، ولو كفر بما دون ذلك من حقائق الإيمان، فإنه يبصر من خلال ظلمات كفره بصيصا من نور البعث، قد يجعله يستيقظ على مشاهد أصحاب القبور! وعلى مشاهد أطلال الأمم البائدة! أما الْمُنْكِرُ للبعث الجاحد للنشور، فظلماته بكماء عمياء صماء! لا أمل فيها للإبصار والعياذ بالله! إذ المؤمن الحق لا يرى في المقابر انقطاع حياة، أو اندراس وجود بمعنى العدم المطلق المظلم، بقدر ما يرى فيها حضورا ذاتيا

[81] تفسير الآية عند الطبري.

[82] ن. ذلك في تفسير الآية عند ابن كثير. وأما الحديث فمتفق عليه.

للموتى، يطل عليه من عالم الروح، وتجليا لحقيقة الموت، وجوداً واعياً في عالم البرزخ! فتكون الذكرى أرهبَ وأشجَى! ويكون التفكر أعمقَ وأَوْعَى!

تلك قصة الرُّسُلِ جميعا مع أقوامهم لما جحدوا الآيات وكذبوا بالكتاب! نتيجة واحدة ثابتة: دمار شامل وتتبير كامل! فما بال هؤلاء القوم اليوم لا يفزعون من شكاة محمد صلى الله عليه وسلم، وهو يجأر إلى الله: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِيَ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً!)؟

ومن قال إن المعركة الإيمانية قد انتهت بانقطاع الوحي؟ أو بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أو بفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا؟ كيف والقرآن حجة الله القائمة على الأمة، وعلى الناس أجمعين إلى يوم القيامة؟! وها هو ذا لا يزال يُعَلِّمُ الدرس نفسه للأجيال! كيف وها الأدواء والجرائم التي أبيدت بسببها الأممُ الهالكة تتجلى اليوم ظواهرَ مُخِيفَةً في عالم المسلمين؟ من صدود قوم نوح إلى طغيان فرعون، وظلم عاد وثمود، وعدوان أصحاب الرس، إلى شذوذ قوم لوط؟ ذلك هو الإشكال، وتلك هي القضية! فكيف هُدَاهَا من كتاب الله؟

3- الهدى المنهاجي:

وهو ينقسم – حسب كلمات هذا المجلس - إلى سبع رسالات هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في أن حوادث الهلاك الشامل للمدن والقرى الحاصل اليوم – من حين لآخر - في هذا العصر، هو من تلك السنة الإلهية الجارية على القوم الذين تكالبوا على إعلان التحدي لرب العالمين، بشتى أنواع الكفر والفجور! وأن المؤمن الحق الذي يرى بنور الله يشاهد غضب الله في ذلك مشاهدة واضحة لا غبش فيها ولا اضطراب! ويقع بقلبه من الرهبة والخوف ما يقع بقلب المؤمن العارف بالله! المشاهِدِ لعظمة سلطانه، وشمولِ إحاطته بأمره وبجميع شؤون مُلكه وملكوته! تقديراً وتدبيراً!

والمؤمن لا يشوش عليه دجل الإعلام الكبير اليوم، ذلك الدجل الذي يقلب الحقائق؛ بنسبة الكوارث النازلة بالناس إلى فعل الطبيعة، وإلى اختلال حركتها الميكانيكية! وإنما هي في منطق الإيمان مُسَخَّرَةٌ مأمورة! بل إن المؤمن يرى بعين اليقين أن الطبيعة بكل مكوناتها عبدٌ طائع بين يدي الله، وعلى وعي تام بذاتها وبوظيفتها المكلفة بها، تنفذ ما طلب ربها منها، تنفذه كما طلبه بلا زيادة ولا نقصان! فالوجود الطبيعي - بكل مكوناته، الجمادية، والمائية، والهوائية، والنارية، والنباتية...إلخ - كائن حي يسبح بحمد ربه، بلسان حاله ومقاله معاً! ويدور في فلكه سيراً إلى الله!

فما تحرك شيء من الكوارث في الأرض ولا في السماء إلا بعلم الله، وإلا بإذنه، وإلا بأمره! سبحانه جل علاه! (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا

فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ!)(الأنعام: 59) وما كان شيء من ذلك كله إلا لحكمة بالغة، معلومة منه سبحانه، رسالاتٍ تترى إلى الناس أجمعين! فكل ما ترى وكل ما تسمع من زلازل أرضية وبحرية، وعواصف مدمرة، وفياضانات مهلكة، وخسف رهيب، ومن حروب مجنونة تحرق الأخضر واليابس، وتدمر الإنسان والعمران، في هذه القطر أو ذاك وفي هذه القارة أو تلك، إنما هو خطاب الله الغضبي المنزل على أهلها انتقاما! والعياذ بالله! فَتَفَكَّرْ في مشاهدها من المغرب إلى المشرق، ومن الشمال إلى الجنوب، وعبر جميع القارات! ثم انظر إليها عبر تاريخ العالم الإسلامي القريب والبعيد، من مأساة الأندلس إلى سقوط الدولة العثمانية، إلى حروب الاستعمار القديم والجديد! إلى ضربات الزلازل والعواصف وانفجار البحار! تَرَ جنودَ الله القوية تُغِيرُ على هذا الشعب أو ذاك، وعلى هذه المدن والقرى أو تلك؛ فتحصد الآلاف والملايين! وتُلحِقُ بالظلمة الخسائر والبوار! سواء في بلاد المسلمين أو في بلاد الكفار! ويقف الإنسان - مهما أحرز من تقدم علمي – عاجزاً حائراً مبهوتاً، بين يدي عظمة الله الواحد القهار!

سُنَّةٌ جَارِيَةٌ أَبَداً إلى يوم القيامة! وهي صريح قول الله تعالى: (وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ! حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ!)(الرعد: 31).

- الرسالة الثانية:

في أن عَمَى الناس عن هذه الحقيقة اليوم، إنما هو بما ذكره الله تعالى في هذا السياق: أنهم نسوا حقيقة البعث والنشور! فهم بين كافر بها مطلقا فلا يرى من بصيص نورها شيئا! وبين غافل عنها – كحال كثير من المسلمين اليوم - إلى درجة الختم بما يشبه عمى الكفر، والعياذ بالله! وذلك قوله تعالى في سياقنا هذا: (أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا؟ بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً!) فمن نظر إلى الحقائق الإيمانية بعين الآخرة شاهد منها الشيء الكثير، ومن لم ينظر إليها بها عَمِيَ عن كل شيء! فَتَدبَّرْ، ثم أبْصِرْ..!

- الرسالة: الثالثة:

في أن تحدي الناس للقرآن إذا صار ظاهرة غالبة في منطقة ما من الأمة، كان مجلبة للهلاك العام فيها، بما قد يقطع دابر تلك المنطقة بعينها! ولا ينقض ذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسَّنة فأعطانيها [يعني: الجفاف]، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها!)([83]) لأن وعد الله - جل جلاله - ألا يهلك الأمة ههنا بالجفاف وحبس الغيث، وألا يهلكها

[83] أخرجه مسلم.

بالغرق، إنما هو بمعنى الحفظ من الهلاك العام لوجودها كله! لا لبعض أجزائها! فهي محفوظة على الإجمال من كل ذلك ومما في معناه. لكنها معاقبة بكوارث عامة في بعض أجزائها، أو في عمومها لكن بما لا يقطع نسلها ودابرها. ويصححه استقراء تاريخها، فقد أصابها من الدواهي العامة مثل ذلك الشيء الكثير، وما يزال يصيبها! فرَّج الله عنها! وفي ذلك أيضا أحاديث كثيرة صحيحة، منها ما يرويه عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - من قول النبي صلى الله عليه وسلم: أنه يكون (في أمتي خَسْفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ!)([84]) وما يرويه ابن مسعود - رضي الله عنه - من قوله عليه الصلاة والسلام: أنه يكون (بين يدي الساعة مَسْخٌ وخَسْفٌ وقَذْفٌ!)([85]) نسأل الله العافية لنا وللمسلمين آجمعين!

وكل ذلك إنما هو بسبب المجاهرة بالمعصية؛ لما فيه من إعلان الحرب على الله وعلى شريعته، كتاباً وسُنَّةً! وهو التعليل المصرح به في الأحاديث الصحاح، من رواية عدد من الصحابة بصيغ شتى، منها حديث عمران بن حصين في قوله صلى الله عليه وسلم: يكون (في هذه الأمة خَسْفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ، إذا ظهرت القِيَانُ، والمعازفُ، وشُربت الخمورُ!)([86]) ومعنى الظهور هنا: الشيوع والانتشار والغلبة والسيطرة! حيث تصير هذه المنكرات وضعا طبيعيا عاديا!

- الرسالة الرابعة:

في أن فاحشة الزنى وما يلحق بها إذا فَشَتْ في الناس هي أيضا حتى أعلنوا بها وتجاهروا؛ كانت سببا في الهلاك أيضا! بالمعنى الذي ذكرناه قبل. وصح في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (يا معشر المهاجرين! خصال خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فَشَا فيهم الطاعون والأوجاع، التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا! ولم ينقصوا

---

84 أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمرو مرفوعا. وقال الشيخ الألباني: "صحيح". حديث رقم : 4257 في صحيح الجامع.

85 أخرجه ابن ماجه، عن ابن مسعود مرفوعا. وقال الشيخ الألباني : "صحيح". حديث رقم : 2856 في صحيح الجامع.

86 أخرجه الترمذي عن عمران بن حصين مرفوعا. وقال الشيخ الألباني : "صحيح ". حديث رقم : 4273 في صحيح الجامع. وأخرجه الطبراني عن سهل بن سعد مرفوعا. بسند صحيح كما هو في صحيح الجامع أيضا، رقم: 3665. كما أخرج نحوه أبو داود عن أنس مرفوعا، بسند صحيح أيضا كما في صحيح الجامع برقم: 7859. ولكل ذلك أصل في صحيح البخاري في المسخ قردةً وخنازير، بسبب المجاهرة بالمعصية. وهو ما رواه الصحابيان الجليلان أبو عامر وأبو مالك الأشعري، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الخز والحرير والخمر والمعازف، و لينزلن أقوام إلى جنب عَلَمٍ تروح عليهم سارحتهم، فيأتيهم آت لحاجته فيقولون له: ارجع إلينا غدا، فيبعثهم الله، ويقع العلم عليهم، ويمسخ منهم آخرين قردةً و خنازيرَ إلى يوم القيامة!) أخرجه البخاري.

المكيال والميزان إلا أُخِذُوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم! ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعُوا القَطْرَ من السماء! ولولا البهائم لم يمطروا! ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوهم من غيرهم، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم! وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل، ويتحروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم!)([87]) الله أكبر! ألاَ وإنَّ واقع الأمة المعاصر لواضح في صحة كل ما ذكر في الحديث، حرفا بحرف!

- الرسالة الخامسة:

في أن تلقي الكتاب يلزم عنه – فضلا عن واجب الدخول في تكاليفه - حملُ رسالته إلى الناس. إذْ ما أوتي أحد الكتاب إلا أُمِرَ بالبلاغ وُجُوباً! وقيل له كما قيل لموسى وهارون في الآية: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً. فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا...) الآية. وكما مر معنا في بداية السورة بخصوص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً!) وقال له في سورة المائدة: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ! وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالاَتِهِ! وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ. إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ!)(المائدة: 67). وتلك كانت وظيفة الأنبياء والرسل من قبل، لكنها في هذه الأمة موروثة عن محمد صلى الله عليه وسلم، واجبا معلقا في ذمة دعاتها وعلمائها إلى يوم القيامة، وبذلك شهد الله بخيريتها.

- الرسالة السادسة:

في أنه ما حمل راية الدعوةِ الإسلاميةِ العلماءُ الربانيون، ولا المؤمنون الصِّدِّيقُون، أو الحكماء الوارثون، المقتفون أثر الرسول الكريم، إلا جَرَتْ عليهم سُنَّةُ الأنبياء مع أقوامهم، ابتلاءً لهم وبهم! وجعل الله الطبيعة بكل عناصرها سلاحا لهم لا عليهم! وجعل كوارثها دمارا معلقا على رؤوس أعدائهم! وهو من مقتضى الكلمات المتدارسة بهذا المجلس، كما أن شواهده في القرآن وفي التاريخ كثير. فقد قال جل جلاله في حق رسوله يونس عليه السلام: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ!)(الأنبياء: 88) رسالةً مؤبدةً لكل المؤمنين! وقال في حق قوم لوط: (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ. مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ!)(هود: 82-83) رسالةً مؤبدةً لكل الظالمين!

- الرسالة السابعة:

في أن ترك الأمة - في سوادها العام - لما كُلِّفَتْ به من الدخول في أحكام الشريعة وتكاليفها، سواء على مستوى الشعوب، أو على مستوى المؤسسات

---

[87] أخرجه ابن ماجه والحاكم، عن ابن عمر مرفوعا. وقال الشيخ الألباني : "صحيح". حديث رقم: 7978 في صحيح الجامع.

والحكومات، وأن طغيان اللادينية والتيارات العلمانية على صناعة القرارات التوجيهية الإدارية الكبرى، مما تعم به البلوى، في السياسة التعليمية والتربوية، والاقتصادية، والإعلامية، وسائر النُّظُم العمرانية، جعل المسلمين يفقدون موقعهم الذي جعلهم الله فيه، من الشهادة على الناس، فحُرِمُوا بركة التأييد الإلهي العظيم، وصاروا بذلك عبيدا للمشركين والكفار في العالم! بدل أن يكونوا أهل حجة عليهم وشهادة! إذ القاعدة أن فاقد الشيء لا يعطيه!

فتحقيق العبدية الخالصة لله الواحد القهار، هو وحده باب العز في الدنيا ومسلك النجاة في الآخرة. ولكن أكثر الناس لا يعلمون!

4- مسلك التخلق:

وأما مدخل التخلق بهذه الحقائق الإيمانية جميعا، فعبر مسلك واحد، هو: ترويض النفس وتدريبها على مشاهدة النشور والحياة الأخروية، حركةً حيةً في كل شيء، وفي كل وقت! عسى أن ينتعش رجاء الآخرة في القلب، فيفيض شوقا جميلا يحدو مواجيده بحداء الخوف والرجاء إلى لقاء الله! هنالك وهنالك فقط يتحقق الإبصار!

ودون ذلك يا صاح مكابداتُ الروح، ومعاناةُ الوجدان لليالي القرآن! فهلاَّ أشعلتَ قناديلَ الدجى؟ وانتصبتَ بمحرابِ السَّحَر؟!.. ألاَ فَالْبَسْ وضوءَك يا قلبي وانْطَلِقْ! فعند الصبح يَحْمَدُ الْمُدْلِجُونَ السُّرَى!

المجلس العاشر

في مقام التلقي لاستعظام جريمة الهزء بالرسول صلى الله عليه وسلم! والعمى عن حقائق الإيمان والتوحيد!

1- كلمات الابتلاء:

وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (41) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (42) أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44)

2- البيان العام:

"رسولُ الله"! - صفة ووظيفة - لَقَبٌ لكل عبد أرسله الله.. فما أعظمها من سيماء وما أكرمها! وكفى بها شرفا لعبد من عباد الله! إذ اصطفاه الله بها من دون العالمين! ذلك فضل عظيم، لكنه عَامٌّ في كل الرسل والأنبياء.

أما ههنا فله خصوص وأي خصوص! فسيماء "رسول الله" جاءت بهذه "الكلمات" في حق خير خلق الله، محمد بن عبد الله، أفضل عباد الله في الأرض،

وأفضلهم في السماء! إنه إمام الرسل والأنبياء! سيدنا محمد! المرجو شفاعته بين يدي الله، يوم يتأخر عنها الأنبياء جميعا! إلا محمدا بن عبد الله، المأذون وحده من عند الله! قال عليه الصلاة والسلام: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر! وبيدي لواء الحمد ولا فخر! وما من نبي يومئذ - آدم فمن سواه - إلا تحت لوائي! وأنا أوَّلُ شَافِعٍ وأوَّلُ مُشَفَّعٍ ولا فخر!)[88]

ألاَ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، وعلى سائر الرسل والأنبياء!

فمن ذا قدير على إيذاء سيدنا محمد؟ ومن ذا قدير على التطاول على مقام سيدنا محمد؟ ومن ذا قدير على الاقتراب من شعاع سيدنا محمد، أو من وهج نجمه ونور مداره؟ كيف وها هو ذا - عليه الصلاة والسلام – محروس في الأرض وفي السماء، ينعم بالأمان التام في جوار الله!؟ في مقامٍ من الاصطفاء والخُلَّـةِ لا يدانيه فيه نبي مُرْسَلٌ ولاَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ! ألاَ وإنه لا يتطاول على مجده العالي بالله، إلا مجرمٌ جاهلٌ بالله، وبمقام رسول الله! وإذن يكون من الهلْكَى صَعْقاً وحَرْقاً!

ذلكم سيدنا محمد، رسول الله! صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا..!

فما أشنعَها جريمةُ الاستهزاء برسول الله! والسخرية من مقامه العالي بالله! ومن هنا دَانَ القرآن الكريم ذلك الموقف المخزي، وتلك الجريمة الشنعاء، التي عامل بها الكفار - وما يزالون - رسولَ الله إلى العالمين أجمعين! (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً)؟! لقد خاطب الله - جل جلاله - نبيَّه الحبيب عليه الصلاة والسلام مواسيا ومطمئنا بكلمات الرحمة والجمال، مبينا شناعة ما صنع هؤلاء الكفرة الجهلة! المنكرون ليوم البعث، الجاحدون لرسالة الإسلام، وكيف أنهم إذا رأوه استهزؤوا به قائلين: أهذا الذي يزعم أن الله بعثه إلينا رسولاً؟ تنقيصا من قدره، وتسفيها لحِلْمِهِ! بأبي وأمي هو عليه الصلاة والسلام! لكن سخريتهم تحمل نقيضها في نفسها، فهم يعترفون له في الوقت نفسه بقوة الحجة والبرهان! ولذلك قالوا: إنه كاد أن يصرفنا عن أصنامنا بقوة بيانه! لولا أن ثَبَتْنَا على عبادتها! لكن الله جل جلاله يتولى الإجابة بنفسه سبحانه! منذرا بالمآل الرهيب الذي ينتظر هؤلاء الذي سخروا من رسول الله ورسالته! وأن الحقيقة التي ينكرونها اليوم سيرونها غدا، عذابا شديدا يوم القيامة! سيرونها عيانا حينما يكونون في قعر جهنم يتلظون بحقيقة جحيمها الأليم! وآنئذ يعلمون مَن أضلُّ ديناً وطريقاً! ومن أسفه عقلاً وقلباً! هم أم محمد صلى الله عليه وسلم؟

ثم يسأل سبحانه رسولَه سؤالَ تنبيه وتوجيه، في حوار تأنيسي جميل، فيه من إبداء اللطف والود والنصرة لنبيه ما يملأ القلب أنسا بالله، مُعَجِّباً مِمَّنْ أطاع هواه

---

[88] أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد مرفوعا. وقال الشيخ الألباني : "صحيح". حديث رقم : 1468 في صحيح الجامع.

كطاعة الله، فجعل من شهواته وَثَناً يعبده من دون الله: أرأيت - يا محمدُ - هذا الجاهل بالله، المستكبر عن عبادته، المنتشي بتمجيد ذاته وهواه؟ أفأنتَ تكون عليه وكيلا ونائبا حتى تردَّه إلى الإيمان؟ وهل يمكن لأحد أن ينوب عن أحد في اتخاذ قرار الإيمان؟ وإنما الإيمان قضية عقدية ذاتية، ومسألة وجدانية روحية! كلا! فإنما هو هداية من الله!

أم تظن - يا محمد – أن أكثر هؤلاء الكفار يسمعون آيات الله بقلوبهم، أو يَعُونَ ما فيها بعقولهم؟ كلا! كلا! إنهم محجوبون بِكِبْرِهِمْ وكفرهم عن الوعي الوجداني والإدراك الروحي للحقائق والأشياء! فما هم في الواقع إلا كالبهائم، التي لا تسمع بوعي ولا تدرك بعقل! إنهم وإياها - في عدم الانتفاع بما يصل إلى ظواهر آذانهم - سواء! بل هم أضل منها سبيلاً، حالاً ومآلاً! إذ يملكون من المؤهلات - التي جعل الله لهم خِلْقَةً وفِطْرَةً - ما لا تملك هي! لكنهم عطلوها ظلما واستكباراً؛ فكانوا بذلك شَرّاً مكاناً وأضلَّ سبيلاً!

فما قيمة سخرية أو هزء يصدر عن أمثال هؤلاء إذن؟

3- الهدى المنهاجي:

وينقسم في هذا السياق إلى خمس رسالات هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في أن المسلمين اليوم قد غفلوا – إلا قليلا - عن المقام المجيد الذي لرسول الله، عليه الصلاة والسلام؛ فغمطوه حقه العظيم وخانوا رسالته إلا قليلا! فدعك من المظاهرات والمسيرات التي تخرج من هنا وهناك؛ تنديدا بمتعصبي اليهود والنصارى، كلما صدرت عنهم إساءةٌ لسيدنا محمد، فألئك إنما هم اليهود والنصارى!

ولكنْ، ما بالنا نحن المسلمين اليوم نرفع أصواتنا بالدفاع عن سيدنا محمد، ونحن أول من يخون رسالة سيدنا محمد؟! وأول من ينتهك الحرمات التي أسسها سيدنا محمد! والحدود التي حدَّها سيدنا محمد! والشريعة التي جاء بها سيدنا محمد! فأنى لمن خان سيدنا محمداً أن يكون نصيرا لسيدنا محمد؟ وأنى لمن شذ عن قافلة سيدنا محمد أن ينال رضى سيدنا محمد؟ أوليس يوم القيامة يُطْرَدُ قومٌ من أمة سيدنا محمد عن حوض سيدنا محمد؟ ذلك نذيره الواضح الصريح من قوله صلى الله عليه وسلم: (ألاَ لَيُذَادَنَّ رجالٌ عن حوضي كما يُذَادُ البعيرُ الضالُ! أناديهم: ألاَ هَلُمَّ! ألاَ هَلُمَّ! فيقال: إنهم قد بدَّلُوا بعدك! فأقول: سُحْقاً! فَسُحْقاً! فَسُحْقا!)([89])

- الرسالة الثانية:

في أن أداء حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم، إنما يكون باتباع سنته، والوفاء بأمانته، والبلاغ لرسالته! تلك هي النصرة الحقيقية لمقامه، والذود الصادق

---

[89] أخرجه مسلم.

عن شرفه. ومعلوم أن التأهل والتأهيل لذلك كله لا يكون إلا بالدخول في الابتلاء بمنازل أخلاقه، اقتداءً بإمامته صلى الله عليه وسلم في ترقي معارج القرآن! ونيل شرف أُخُوَّتِهِ وجمال مَعِيَّتِهِ! وباب ذلك هو قول الله جل جلاله: (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ! وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ. تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ!)(الفتح: 29). فتَدَبَّرْ يا قلبي! وانظرْ ما حظك من هذه الصفات؛ تعرفْ مقامَك من نصرة سيدنا محمد!

- الرسالة الثالثة:

في التحذير مما تبثه وسائل الإعلام المعادية للإسلام ظاهرا أو باطنا، من دس خفي للمصطلحات المضلِّلةِ للعقول، والمفاهيم المحرِّفة للمعاني، دِيناً وثقافةً وسياسةً! وما تقوم به من قلبٍ للحقائق وتحريف! فذلك دَيْدَنُ الكفار ومنهجهم الثابت في كل عصرٍ وفي كل مَصْرٍ، كلما أعيتهم الحجة في مواجهة الحق. حيث يلجؤون إلى تحريف الكلمات عن مواضعها، واصفين الحق بعبارات الباطل، وواصفين الباطل بعبارات الحق! ثم يصرون على تداول ذلك وفرضه على العالم استعمالا وتوظيفا؛ حتى تنطلي الحيلة تحت التأثير النفسي والإعلامي على كثير من الناس، بمن فيهم من الشعوب الإسلامية نفسها! ولذلك سجله القرآن ليحذره المسلمون، وليفضحه العلماء والدعاة إلى الله! فانظر إلى وصف الكفار لفعل رسول - الله صلى الله عليه وسلم – بـ"الإضلال" وإنما هو جاء بالهدى! (إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنَ آلِهَتِنَا!) فهو عين الأسلوب المستعمل اليوم على المستوى العالمي، حيث تقوم المختبرات اللغوية واللسانية بِسَكِّ أخبث العبارات والأوصاف، وصناعة أسوأ المصطلحات والمفاهيم! ثم تبث ذلك كله وتنشره في الناس، بما تملك من ترسانة إعلامية ضخمة؛ لمحاصرة الدين وأهله في العالم!

- الرسالة الرابعة:

في أن الهوى إذا تمكن من صاحبه واستحكم حتى استعبده، كان ختما على سمعه وقلبه! وتلك هي الوثنية الخفية التي تصيب المرء بالعمى الروحي! فلا تكون له قدرة – بعد ذلك - على إبصار حقائق الإيمان، مهما تلقى من المواعظ ومهما سمع من الآيات!

وتَمَكُّنُ الهوى إلى درجة التأله والسيطرة على القلب راجع إلى الإصرار الدائم على تلبية رغائب الشهوات، والجري وراءها بلا كابح ولا جامح؛ مما يؤدي إلى إتْبَاعِ الذنوب بالذنوب، ومراكمة بعضها على بعض، بلا توبة ولا استغفار! حتى يستحكم نسيجُ حصيرِها الخَشِنِ بالقلب فَيَعْمَى! وذلكم هو الرَّانُ!

فَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: ((كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ: أيكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الْفِتَنَ؟ فَقَالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ. فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَجَارِهِ. قَالُوا: أَجَلْ. قَالَ: تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ.

وَلَكِنْ أَيُّكُمْ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الْفِتَنَ الَّتِي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ، فَقُلْتُ: أَنَا! قَالَ: أَنْتَ؟ لِلَّهِ أَبُوكَ!

قَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوداً عُوداً، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ! وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ؛ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ! وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا، كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَراً! إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ!"))([90])

وفي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن العبد إذا أخطأ خطيئةً نكتت في قلبه نكتة سوداء! فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقِلَ قلبُه! وإن عاد زيد فيها؛ حتى تعلو على قلبه! و هو الرَّانُ الذي ذكر الله تعالى: "كَلاَّ بَل رَّانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ!"))([91]).

ـ الرسالة الخامسة:

في أن الحرب النفسية القائمة على السخرية والاستهزاء بالرسل والدعاة، والتنقيص من شأنهم والتسفيه لدعوتهم، منهج عدواني ثابت في حرب الطواغيت للدعوة وأصحابها! فما من رسول قبل سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم ـ إلا ولاقى من أعدائه من السخرية نفس المعاناة، وإن اختلفت صيغها وتجلياتها؛ وذلك لتحطيم معنويات الرسل والدعاة إلى الله ومن اتبعهم من المؤمنين، وحصار دعوتهم بهذا الأسلوب الخسيس؛ حتى لا تتسع دائرة الخير والصلاح في المجتمع! ومن قبل كان نوح عليه السلام يصنع سفينة الهدى والنجاة، وكلما مر به قومه سخروا منه، فلا يزيده ذلك إلا ثباتا: (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ! قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ!)(هود: 38)

واليوم لا تفتأ كثير من الجهات الضالة المضلة، تسخر من الدين وأهله ودعاته بوسائل شتى، خاصة من خلال الأفلام والمسرحيات؛ إمعانا في التضليل والتجهيل! لكنَّ المؤمن الواثق من ربه ودعوته، لا يزيده ذلك إلا يقينا في نصرة الله، وقرب وعده بالفتح المبين!

4- مسلك التخلق:

أما مسلك تلقي تعظيم قَدْرِ المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتخلق الصادق بمحبته، فلا يكون إلا بمجاهدة النفس في سبيل تحقيق "معيته الروحية" عليه الصلاة والسلام! وهي مشروطة بشروطها العملية الواضحة فيما أسلفناه من

---

[90] رواه مسلم. وقوله: أَسْوَدُ مُرْبَادًّا: يعني فيه لمعَانٌ من شدة السَّوَادِ! والْكُوزُ: الإناء كالإبريق. وكونه مُجَخِّياً: يعني مَنْكُوساً، بحيث لا يمسك ما فيه.

[91] أخرجه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي. وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، حديث رقم : 1670.

قوله تعالى: (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ! وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ. تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ!)(الفتح: 29). تلك بصائرهم التي بها يتعرفون إلى الله تعالى، وبها يتعرفون على قَدْرِ نبيه - صلى الله عليه وسلم – بوصفه أَعْبَدَ الخلق لله! فقوله تعالى: (وَالَّذِينَ مَعَهُ) هو مقام المعية الروحية والإيمانية! بما يقتضيه ذلك من نصرة شديدة له ولرسالته - عليه الصلاة والسلام - ضد المحاربين من الكفار من جهة، ومن رحمة داخلية بين المؤمنين تعضد رابطة المحبة في الله من جهة أخرى. وإنه لمقام عال رفيع! وإنه لمستمر إلى يوم الدين! وإنما ناله من ناله من أهله المتحققين به، بما وصفهم الله به بَعْدُ من كونهم: (تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ!) فمن أحرز على ذلك الشرف الرباني، وجد في قلبه محبة الرسول - صلى الله عليه وسلم – صدقا خالصا، وشوقا ملتهبا! وذاق معنى قوله عليه الصلاة والسلام: (لاَ يُؤْمِنُ أحدُكم حتَّى أكونَ أَحَبَّ إليه من وَلَدِه ووَالِدِه والنَّاس أَجْمَعِينَ!)([92])

وأما مسلك حفظ النفس من وساوس الإعلام وخطاياه، فإنما يكون بالاشتغال الدائم بتنظيف أجهزة التلقي الروحي، من سمع وبصر وفؤاد! مما تُلْقِيه وسائله من الترهات والأكاذيب! والاشتغال اليومي بتنقية القلب من الذنوب؛ بالأذكار والاستغفار! ومقاطعة الزلات، ومجاهدة الغفلات؛ حرصا على بقاء القلب موصولاً أبداً بالله! وحفظا لصفاء إبصاره للحقائق أبداً.

فيا قلبي الضعيف! ويا نفسي الأمارة المغرورة! هذه الشهوات تُلقى عليك ليل نهار، فهل تقدرين على كبح جماح الشهوة الخبيثة وغض لجام الطرف بقوة الفرسان إلى الأرض؛ إعراضا عن مفاتنها الشيطانية؟ أم أنك تتساقطين عليها كما يتساقط الفراش على اللهيب؟! ذاك امتحانُكِ، فادخلي كلمات الابتلاء! وهؤلاء هم الملائكة يكتبون! ألاَ كتب الله لنا العفو والعافية!

المجلس الحادي عشر
في مقام التلقي لكونية القرآن وجهاديته ولعظمةِ فُرْقانِيَّتِهِ!

1- كلمات الابتلاء:

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً (46) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً (47) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ نُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا

[92] متفق عليه.

مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً (49) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (50) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (51) فَلا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (52)
وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً (53) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً (54) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً (55).

2- **البيان العام:**

رَبٌّ واحدٌ، وحركةٌ واحدةٌ، من السماء إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء.. الكونُ كله مشدودٌ بأنوار الأسماء الحسنى إلى مولاه، خَلْقاً وتقديراً، ورعايةً وتدبيراً. سلسلة واحدة: من إنزال الماء إلى إنزال القرآن! ومن إحياء الأرض والحيوان إلى إحياء الروح والوجدان! ربٌّ واحد يتصرف بقدرته وبحكمته في شؤون مملكته!

هو الحيُّ، سبحانه، يُنَزِّلُ لكل شيء ما يحييه: ماءً أو قرآناً! ويحرك كلَّ شيءٍ رعايةً؛ بما يحفظ وجوده وحياته، من الظل في حركته الجزئية مَدّاً وقبضاً، إلى الشمس في حركتها الكلية وهي تَسْبَحُ في فَلَكِهَا العظيم! ومن حوادي الرياح إلى قوافل الغمام، ومن النبات إلى الحيوان إلى الإنسان! فالرسول المبعوث والقرآن المنـزل، كلاهما لا يخرج عن هذا النظام الكوني العظيم، ولا عن هذا التدبير الرباني الحكيم! فأي تأمل في حركة الظل، مهما كانت جزئية، تقود الإنسان البصير إلى أعلى..! إلى مشاهدة أنوار القرآن وهي تتنـزل من السماء بسم الله الرحمن الرحيم!

ومن هنا كان هذا الخطاب من الله - جل جلاله - لرسوله صلى الله عليه وسلم، في سياق الرد على المستهزئين به، وبما جاء به من الآيات: ألم تَرَ يا محمد إلى ربك ذي الجلال كيف مدَّ الظل بشروق الشمس؟ حتى انتشر في كل مكان تحت الجدران والأشجار والأجراف والجبال، وعلى سفح كل مرتفع. ولو شاء لجعله ثابتاً مستقراً لا تزيله الشمس ولا تنسخه. ثم جعلنا الشمس علامةً يُستَدَلُّ بأحوالها على أحواله. ثم قَبَضَهُ ربُّه – بعد ذلك - إليه قبضاً يسيراً، أي بصورة هادئة خفية، شيئاً فشيئاً، فكلما ازداد ارتفاع الشمس أول النهار ازداد نقصان الظل، حتى يملأ ضياؤها كل مكان؛ فلا يكاد يبقى له في العراء وجود! ثم إذا زالت الشمس عن كبد السماء قليلا، بدأ الظل يولد من جديد، شيئا فشيئا، حتى إذا كان العصر امتدت الظلال مرة أخرى في كل مكان! وهكذا يدور الظل مع الشمس في حركة متوازنة هادئة؛ تبعا لحركة الفَلَكِ، في دورة الأرض حول الشمس، بصورة تفتح بصيرة المؤمن على مشاهدة القيومية العظمى لرب العالمين، وربوبيته القائمة على شؤون

مملكته! في حركة دائمة مستمرة، لا تعرف اضطراباً ولا خَلَلاً ولا انقطاعاً! فمن ذا غيره سبحانه يستحق العبادة والتقديس؟ ألاَ جل جلاله وعلاه، هو الله الواحد القهار! لا إله إلا هو!

وكيف لا؟ وهو الذي جعل للبشرية الليل لباساً يسترها بظلامه المحيط بكل شيء، وجعل لها النوم راحة شاملة، وسكينة مطلقة لأبدانها وأنفسها. ثم جعل لها النهار لتنتشر خلاله في الأرض؛ طلبا لما قَدَّرَ لها من الأرزاق والمعاش. في حركة عمرانية، متداولة بين الليل والنهار سكونا ونشورا، في توازن عجيب، كما تُتَدَاوَلُ الشموسُ والظلالُ قبضاً ومدّاً!

وهو سبحانه الذي أرسل الرياح – من أجل الإنسان - تسوق له قوافل السحاب المحملة بالأرزاق.. تنشر الرحمة بإذن الله غيثا نافعاً، وتبشر الناس بالخصب والنماء! ثم إنه تعالى أنزل - تبعا لذلك - من السماءِ ماءً طَاهِراً مُطَهِّراً؛ ليبعث به الحياة الطاهرة في الأرض الميتة، ويجري به العيون والغدران، كما تجري الروح في الأبدان، فَيُخْرِجُ به النبات والأشجار والزروع، ويُحيي البلد الجدب القاحل بعد يأسه المميت! كما يُسْقِي به كلَّ من تكفل سبحانه برزقه من خلقه، من الحيوان والإنسان جميعاً! وهكذا تتدفق الحياةُ هبةً ربانيةً، وعطاءً رحمانيا من الله!

فالذي أنزل تلك النعم جميعا هو سبحانه نفسُه الذي أنزل القرآن، ولذلك قال بَعْدُ مباشرةً: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إلاَّ كُفُوراً!) فالضمير في قوله: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ) يعود على القرآن، الذي هو موضوع هذه السورة([93])، أي: ولقد صرفنا هذا القرآن بينهم، وما فُصِّلَ فيه من الأحكام والمَشَاهِدِ وضروبِ المَعَارِضِ، من مَدِّ الظلال وقبضها، وتعاقب الليل والنهار، وإرسال الرياح وإنزال الأمطار، ما يجعل حقائقه الإيمانية قاطعة البرهان. كما أن تصريف القرآن هو أيضا بمعنى تفريق نزول آياته على فترات، وتنويع مواضعها على حسب المقاصد والغايات، وترتيب أحكامها على حسب النوازل والحاجات. كل ذلك قصد تزكية الإنسان وتربيته على أقوم منهاج، وتيسير حصوله على الهدى والذكرى؛ بما صُرِّفَ له في هذا القرآن من الآيات البَيِّنَاتِ. ولكن أكثر الناس – رغم ذلك - تَعْمَى بصائرُهم عن هذا الهدى الرباني العظيم؛ بسبب ما رَانَ عليها من الأهواء والشهوات؛ فيكفرون جحودا بحقائقه!

وقد ذَكَرَ سبحانه تصريفَ آيات القرآن بعد ذكر إنزال المطر، لبيان أن آثار القرآن على القلوب التي تستقبله هي كآثار المطر على الأرض الميتة، بما يكون له من بعثٍ وإحياءٍ لها من بعد موات!

---

[93] وهو اختيار القرطبي، والبقاعي، والبيضاوي، والشوكاني، وقال: هو مذهب الجمهور. فتح القدير: 114/4.

ويجوز أن يعود الضمير في قوله: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ) على آخر مذكور في السياق وهو المطر([94])؛ فيكون المعنى أن كل ذلك التقدير للأرزاق بين الناس، وكل ذلك التصريف والتقسيم للماء بينهم؛ إنما هو ليتذكر الذين أنزل عليهم المطر؛ فيشكروا نعمة الله عليهم. ثم ليتذكر الذين مُنعوا النعمة؛ فيسارعوا بالتوبة إلى الله؛ عساه يرحمهم ويسقيهم، كما سقى غيرهم. ولكن يأبَى أكثر الناس إلا جحوداً لنعمة الله، وكفراً بمولاها – سبحانه جل علاه – وإنكاراً لحقه العظيم عليهم!

هذا، وإنه لو شاء اللهُ ـ جَلَّ جلالُه ـ لَفَرَّقَ الرسالة كما يفرق المطر، فجعل لكل قرية، ولكل بلدة، حصتَها من النذارة الخاصة بها. ولكن حكمته تعالى في هذا الزمان الخاتم، اقتضت أن تكون الرسالة واحدة وعالمية! ولذلك جعل رسولَه محمدا – صلى الله عليه وسلم ـ مبعوثاً إلى أهل الأرض جميعاً، وأمره أن يبلغهم هذا القرآن، وألا يطيع الكافرين في ترك شيء من شريعته! وألا يقبل منهم صرفا ولا عدلا، ولا مساومة في التخلي عن أي شيء من أحكامه وحدوده! بل أمره أن يبذل جهده الكامل في تبليغ رسالة الإسلام، وأن يجاهد الكفار بسلاح القرآن وبحقائقه الإيمانية جهاداً كبيراً!

ثم يستأنف ـ جل وعلا ـ عرض مَشَاهِدِ قدرته الفرقانية في الطبيعة، لتطمين عبده على قوة فرقانية القرآن، وعظمة سلاحه! فبين كيف أنه سبحانه خلق البحار متلاطمة الأمواج، ومَرَجَ بعضَها ببعض، أي: وَصَلَ بعضَها ببعض. وقد يكون منها البحر ذو المياه العذبة، والبحر ذو الملوحة الشديدة، ثم تتكسر أمواج بعضهما على بعض، دون أن يؤدي ذلك إلى اختلاط مياههما كليا! لِمَا جعل ـ سبحانه وتعالى ـ بينهما من الحِجْر، أي المنع والفرق، وهو الحاجز المائي الذي يفرق بين البحرين المتجاورين المتداخلين، فيحفظ لكل مياه خصائصَها وبيئتَها، فلا يؤثر بعضها على بعض سلبا!

ثم يبين فرقانيتَه العظيمة في مشهد تكويني آخر، وهو خَلْقُهُ سبحانه بشرا سويا، مِنَ الماء المهين الذي يمنيه الإنسان، حتى إذا أتم خلقه وتكوينه في بطن أمه، أخرجه إلى الوجود على أعلى ما يكون الخَلْقُ دِقَّةً وصِنْعَةً وجَمالاً! بما يبهر العقول ويحيرها! فيجعل منه ذريةً تتناسل، لتكوين قرابة النسب وقرابة المصاهرة، ويجعل ذلك كله أساسا متينا لتكوين الأرحام، ثم يجعل سبحانه لكل رحم أسرةً خاصة؛ بما يحفظ لها خصائصها الوراثية خِلْقَةً وطبيعةً على مدى السنين! رغم تداخل تلك المياه البشرية بالزواج من ههنا ومن ههنا! تماما كاحتفاظ كل بحر من البحار بخصائصه رغم مَرْجِ بعضها ببعض! وذلك من أعظم مظاهر قدرة الله الفرقانية! ولذلك قال: "وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً!"

---

94 وهو اختيار الطبري وابن كثير.

فكذلك هذا القرآن سلاح فرقاني، يفرق به الله - جل جلاله - بين الحق والباطل! فما أخذه عبدٌ مؤمن بالله، مجاهدا به الكفر والضلال! إلا وكانت له هذه الخصائص الفرقانية العظيمة التي عُرض مثلها في مشاهد القدرة الإلهية في المياه البحرية والإنسانية! تفريقاً وتمييزاً، وكذا خلقاً وإنتاجاً وتقديراً!

ولكن الإنسان مع كل هذه الدلائل العظيمة على قدرة الله وإنعامه على خلقه، يُشرك بالله، ويَعْبُدُ مِنْ دونه مَنْ لا قدرة له البتة! ومَا لا ينفعه إن رجا نفعه بعبادته، ولا يضره إن تركها! إلا ما يتوهمه من تلبيسات الشيطان! وبهذا يكون الكافر بالله ظهيراً على ربه، أي: متحالفا مع الشيطان بالتواطؤ معه على الشرك بالله والكفر به! ومُظَاهِرًا له على التمرد على مولاه جل وعلا!

ومن هنا تَعَيَّنَ على المؤمن أن ينصر ربه، وأن يجاهد حِلْفَ الشيطان! وهذا سلاح الفرقان بين يديه كفيل بتحطيم هياكل الكفر ومظاهره!

3- الهدى المنهاجي:

وينقسم إلى أربع رسالات هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في أن التوحيد في الإسلام لا يكمل إلا بتوحيد المشاهدة! وهو مشاهدة توحيد الإثبات بعد النفي، وذلك بأن تشاهد أن كل شيء في الوجود هو له، وله وحده! وهو مقتضى شهادة أن: "لا إله إلا الله". فنفي الشريك متبوع بإثبات ربوبيته لكل شيء، تفريداً وتوحيداً. وهذا معنى عظيم قد تغفل عنه النفس على مستوى الشهود، فتقف عند حد النفي دون الإثبات. والمقصود هنا هو مشاهدة تجليات أسماء الله الحسنى على كل شيء، خلقا وتقديرا ورعاية وتدبيرا، مشاهدة تجعل المؤمن يحقق توحيد الألوهية في سيره إلى الله، رَغَباً ورَهَباً، بما ينبغي له سبحانه من كمال الجمال وعظمة الجلال! ولذلك فقد تواتر عن - النبي صلى الله عليه وسلم - ذِكْرُهُ لربه وتوحيده له بعبارة فيها من مشاهدات الإثبات ما يملأ النفس خوفاً ورجاءً ومحبةً؛ توحيدا لله الواحد الأحد. وذلك بعبارة: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير!) فهذه الصيغة وردت عنه - صلى الله عليه وسلم - بطرق شتى ومناسبات شتى بلغت حد التواتر. وذلك لما فيها من مشاهدة وحدانيته تعالى، في ربوبيته لكل الملك والملكوت! وهذا التوحيد هو الذي يملأ أغلب سور القرآن الكريم.

فهذا المعنى العظيم أنفع في تزكية النفس وإيقاظها من غفلتها؛ ولذلك بادر الله - جل ذكره وثناؤه - رسولَه الكريمَ بهذا السؤال الإرشادي الجميل، كما سبق بيانه، فقال: (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً..) الآيات، فقال: (إِلَى رَبِّكَ!) أي إلى جمال فعله، وكمال نعمه، وعظمة قيوميته! فجعل سبحانه يعرض

على عباده دقة صنعه، وكمال إحسانه؛ ليشاهدوا وحدانيته تعالى في كل شيء؛ فلا يتجهوا بالعبادة لأحد سواه في أي شيء!

- الرسالة الثانية:

في أن القرآن روح ما نزل ببلدة إلا أحياها! وما أُشْرِبَتْهُ نفس إلا أيقظها! وكان لها نورا وبركات. إن القرآن هو ماء القلوب وحياتها. ولقد كانت مشاهد الغيث المعروضة في الآيات وهي تتنـزل بالرحمة على العباد، صورةً حسية؛ لتقريب مشاهد الأنوار القرآنية وهي تتنـزل على القلوب المنشرحة لكتاب الله، تلاوةً وتزكيةً وتعلماً. أنوار تهطل بالبركات وبالحياة! فعجبا لمن يغلق أبواب صدره دونها، فيبقى قلبه أرضا مَواتاً! يرزح تحت صدأ الذنوب، ويقبع في ظلمات العَمَى!

فيا صاحبي في طريق الآخرة! هذا باب الهدى من كتاب الله فتحه لك سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم – فادخلْ! إنه باب فسيح يرفعك الله به عبر معراج النور إلى أعلى مقام! قال صلى الله عليه وسلم: ((مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ. وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا. وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً! فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ!)([95]). فانظر من ذلك لنفسك يا صاح، ماذا تختار!؟

- الرسالة الثالثة:

في أن الصبر على حقائق الإيمان في هذا الزمان، زمان الفتن اللاهب الشديد، والقبض على جمر الدين، مشروط بالتمسيك بالقرآن الكريم في مواجهة الكفار، وتيارات الزندقة والأشرار، ودجاجلة السياسة والثقافة والإعلام! ومجاهدتهم بمفاهيمه وحقائقه الإيمانية جهاداً كبيراً! وتحدي ما يصرون عليه من فتنة المسلمين في دينهم ومعتقداتهم، وفي أخلاقهم وأعراضهم وقيمهم!

فالقرآن هو سلاح المؤمن في هذا العصر، سلاح ولا كأي سلاح! إن عبد الله الحق إذا أخذ كتاب الله بحق، وتلقّى كلماته بحق، كلمةً كلمةً، كان في يده كـ"عصا موسى"! تحطم سحر هذا العصر من كل ضروب الدجل الإعلامي والثقافي والسياسي، وتبطل آثاره المدمرة في النفس وفي المجتمع! وإن كلمات القرآن لَتَبْهَتُ دجاجلة العصر، كما بَهَتَتْ عصا موسى سحرةَ فرعون قديما! فعجبا لمن يدخل معركة الإيمان مغتربا في زمان القبض على الجمر، ويخوض حربا من أجل البقاء بإيمانه، ضد أعداء الله، الذين تجردوا لمحاربة الدين وأهله، في هذا الزمان

---

[95] متفق عليه.

الشرس، ثم يغفل عن حمل السلاح الحق، سلاح القرآن! ويتدرع بأسلحة أخرى هي أوهى من خيوط العنكبوت!

فيا صاح! هذا رب العزة - جل جلاله - يتوجه إليك تكليفاً برسالة القرآن عبر قضيتين اثنتين: نهي وأمر، ولا يتم لك أحدهما إلا بالدخول في الآخر. وبيان ذلك كالتالي:

- أولا: النهي، وهو متعلق برفض الطاعة الثقافية للكافرين، وإعلان التمرد على قيمهم وأخلاقهم وثقافتهم! فإذا تحققتَ من ذلك فاعلم أنك محارَب لا محالة! ولذلك جهزك الله تعالى بأمر، وهو:

- ثانيا: مجاهدة الكفار وأذيالهم بحقائق القرآن ومفاهيمه جهاداً كبيراً! وذلك هو المجموع نَصّاً في الآية المنهاجية العظيمة: (فَلا تُطِعْ الكَافِرِينَ! وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً!) والسياق واضح في أن هذا الجهاد هو جهاد معنوي كبير، وهو - لمن عرفه وعاشه - أشد على النفس من الجهاد المادي؛ ولذلك أكده بهذا المفعول المطلق توكيدا موصوفا بالكِبَرِ؛ زيادةً في التوكيد والتعظيم! فقال: (جِهَاداً كَبِيراً!)

- الرسالة الرابعة:

في أن شرط عمل القرآن بيد العبد المجاهِدِ به - بما هو سلاح فرقاني - هو تحقيق اليقين في فرقانيته! يقين مُشاهَدة، تماما كما تشاهد عظمة الله - جل جلاله – عيانا في معجزة البحار والأنساب! خَلْقاً وتقديراً! وما يتضمن ذلك كله من قوة، وحكمة، ومنفعة، وخير، وبركة! فمتى وجد المؤمن هذا اليقين اشتعل نور القرآن في قلبه وأضاء كل جوانجه، فيصعد بمقامه حتى يصله بنور الملأ الأعلى! وآنئذ تشتغل معجزة القرآن الفرقانية بين يديه، سلاحا كونيا لا يرى منه إلا عجبا! تماما كما وصف الله جل جلاله: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ! وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ!)(الأنبياء: 18).

4- مسلك التخلق:

وبيان مسلك الفوز بمقام هذه الكلمات والتحقق بأخلاقها، متعلق ببيان كيفية "الجهاد بالقرآن"، وبيان المدخل العملي للتخلق بمقام ذلك الجهاد! وهو كما يلي:

للجهاد المعنوي بالقرآن - أو "المفهومي" - خطان اثنان: عمودي وأفقي.

فأما العمودي: فهو راجع إلى الدخول الفردي، لكل نفس في نفسها، في ابتلاءات القرآن دخولا ذاتيا؛ حتى تكتسب من منازل العبدية الخالصة لله يقينا عاليا يؤهلها لولاية الله! ودون ذلك صدق عزيمة وانطلاق مسيرة. أي لا بد للمؤمن أن يتخذ قراره الذاتي الباطن، بالرحيل إلى الله، والهجرة إلى منازل الإخلاص واليقين، والالتحاق بقافلة الصديقين! بتلقي كلمات القرآن، تهذيبا وتشذيبا لنفسه وتخليصا لها من العلل والأدواء، حتى تتجرد لله وتصفو له وحده؛ لأن الذي لم يجاهد زوائد نفسه من الشهوات والهفوات لن يستطيع جهاد غيره أبداً!

- وأما الأفقي: فهو الدخول في بلاغ كلمات القرآن، عبر الإسهام الفعال في نشر حقائقه الإيمانية في المجتمع، في سياق مجاهدة مفاهيم الباطل، ومدافعة برامجه المخربة للدين. ولا أبلغ في إنجاز ذلك من تأسيس مجالس القرآن في كل منطقة وقطاع. إن العامل لله حقّاً، الخادم لكتاب الله صدقاً، يحمل هم البلاغ القرآني دائما أبدا. يسأل عن أحوال المسلمين هنا وهناك، فإذا ما بلغه خبر موقع معلول بادر بالرحيل إليه – كما رحل أصحاب رسول الله إلى كل الآفاق! - حاملاً معه الدواء الرئيس، ألا وهو تأسيس مجلس قرآني، بَذْرَةً تتناسل جذورُها - بعد ذلك - لِتُنْبِتَ مجالسَ قرآنيةً أخرى، تملأ البيئة بنور الله، فتدفع بذلك المنكر الزاحف على البلاد والعباد، وتستقيم الوجهة لله. وإن دون ذلك لمعاناة! وإن دون ذلك لمجاهدة! وإن دون ذلك لمكابدة! ولكن، كل معاناة، وكل مكابدة، وكل مجاهدة في سبيل ذلك، تصبح لذة روحية، لا تنتهي حلاوتُها في حلق صاحبها إلى يوم القيامة!

المجلس الثاني عشر
في مقام التلقي لعزائم التوكل
وأن نجاح الدعوة والداعية لا يكون إلا بالتجرد الكامل لله
والتزود الدائم من أسرار اسم الله: "الرحمن"!

1- كلمات الابتلاء:

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (56) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (57) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً (58) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (59) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً (60) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً (62)

2- البيان العام:

هذه مدرسة التأهيل، وههنا فَصْلُ التخرج منها! وإن مستقبل الداعية الصادق، والمؤمن الواثق، رهين بالنجاح في هذا الفصل! فإما أن يكون من "عباد الرحمن" فيكون من الأولياء الربانيين! ديناً ودعوةً. وذلك شرط القيادة والريادة وإمامة المتقين! وإما أن يكون من سائر المسلمين. والجنة - على كل حال - منازل ومقامات! جعلنا الله جميعا من أهل منازلها العُلَى! آمين!

فبعد التجهيز السابق من الله سبحانه لرسوله عليه الصلاة والسلام، بما يلزم الداعية من بيان طبيعة الجهاد بالقرآن، تكليفاً وأمانةً ورسالةً وفرقانيةً، وما سيلقاه من صدود وعناد وأذى من الكفار، تكرم عليه - صلى الله عليه وسلم – وعلى كل

داعية خلفه، ببيان طبيعة وظيفته في كل ذلك، وما ينبغي له أن يلتزمه في هذا السفر الشاق الطويل، وما وجب أن يتزود به من زاد؛ من أجل الوصول!

فبين له أولا أن طبيعة هذه الرسالة إنما هي بلاغ لحقيقة الدين، بشارةً ونذارةً! وأنه ما أرسله إلا مبشراً للمؤمنين بالجنة، ومنذراً للكافرين بالنار! بناء على موقف هؤلاء وهؤلاء من الاعتراف بحقوق الله أو التمرد عليه! تلك هي خلاصة الدين، وجوهر قضية سيد المرسلين. والداعية لا يخرج عن هذا السنن القويم في بسط دعوته للناس، ولا مشروعية لوسيلة لا تخدم هذا الأصل العظيم، بله أن تكون مما ينقضه ويهدمه!

ومن هنا وجب البيان للداعية في نفسه أولا، ولمن هم محل خطابه من الناس أجميعن أن هذه الوظيفة الدعوية لا تقوم على قصد أي حظ دنيوي! من المكاسب المادية والمعنوية على الإطلاق! وأنها إن دخلها شيء من ذلك بطلت! وإنما الدعوة تضحية كاملة تامة! والداعية عبد مؤمن متفرغ للدلالة على الله، وبيان سبيل الوصول إليه جل علاه؛ قياما بحق ربوبيته على العالمين، وخالقيته للناس أجمعين. يعلن ذلك إعلانا! ويرفع به صوته حالاً ومقالاً! (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً!)

فإذا كان من صَدٍّ، ولا بد هو كائن! وإذا كان من عَدَاءٍ، ولا بد هو كائن! وإذا كان من كيد، ولا بد هو كائن! وإذا كان من أذى، ولا بد هو كائن! فاعتصم بالله! وادخل منازل التوكل والتعرف الدائم إلى الله بالذكر، تسبيحا بحمده تعالى، بما هو الحي الذي لا يموت سبحانه! تجد عنده آنئذ جوار السلام، وضمان الأمان، وتَرَ النصرة تتنزل عليك من السماء! فهو سبحانه لا يخذل عبده أبداً! ذلك ما قضاه في أمره القَدَرِيِّ منذ الأزل! وإنما عليك أن تختار لنفسك موقعها! كما هو منصوص في سورة "الصافات": (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ: إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ! وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ!)(الصافات: 171-173). فإن يظهر لك شيء من تخلف هذه القاعدة فالخلل قطعا في صدق الجندية!

أما هو، فهو الله جل جلاله، له صفات الكمال متنزه عن النقص والمحال! هو الحي الذي لا يموت! ما يزال مستويا على عرشه يدبر أمر مملكته، بعظيم قدرته وجلال سلطانه وشمول علمه! لا يُخْلِفُ وعداً ولا ينقض ميعاداً، سبحانه! وكفى به ربّاً خبيراً بذنوب عباده وخلقه، سواء منهم أعداؤه المجاهرون أو من هم محسوبون في الظاهر على جنده. لا يخفى عليه شيء من ذلك مهما دق، ولا خوالج النفس الخفية من المقاصد المذمومة الباطنية، التي تهلك الأعمال وتحصد الحسنات! وسيحاسبهم عليها جميعاً.

فالكفاية حاصلة بالله وحده! القوي الخبير الذي لا يعجزه شيء! وكيف لا؟ وهو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام! ثم استوى على العرش- أي

علا وارتفع- استواءً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه! إنه الرحمن! فاسأل عنه خبيراً به! يعني بذلك سبحانه نفسَه الكريمة، فلا خبرة بالله إلا لله وحده! هو الذي يعلم حقيقة صفاته وعظمته جلاله وجماله. ثم لا أحد من البشر - بعد ذلك - أعلم بالله ولا أخبر به من رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. ولذلك فإنما يُعْرَفُ اللهُ باللهِ، ثم ببيان سيدنا محمد رسول الله.

وهنا يمن الكريم سبحانه على عباده ببيان جمال اسمه العظيم: "الرحمن"! وما يكتنزه من أنوار وأسرار! و"الرحمن" اسم من أعظم أسماء الله الحسنى وأجمعها! فقد ورد في غير ما موطن من كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - دالاً على ذات الله، على سبيل العَلَمِيَّةِ المستقلة بالتسمية إطلاقاً، بما يقارب لفظ الجلال: الله! كما هو في هذا السياق نفسه من سورة الفرقان، وكما هو في غيرها كثير. وذلك على نحو ما ورد في سورة "مريم" من قوله تعالى: (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً. وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً. لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً. وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً. تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً. أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً. وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً. إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً.)(مريم: 86-96).

ولولا خصوصية هذا الاسم العظيم لما كان معطوفا على اسم الجلال "الله"، على سبيل الترادف في المحبة الإلهية! كما وردت به السنة النبوية الصحيحة! قال عليه الصلاة والسلام: (أحب الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن!)([96]).

فـ"الرحمن" اسم له من الإحاطة والشمول بمعاني الربوبية، جلالها وجمالها، ما ليس لسواه من الأسماء الحسنى منفرداً، إلا اسم الجلال الأعظم: الله"! ولذلك قال تعالى - على سبيل البيان والتعريف - في سياقنا هذا من سورة الفرقان: (الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ: الرَّحْمَنُ!) وفي ذلك من الجمال والجلال ما يجعل المؤمن بالله يتقرب إلى مولاه بهذا الاسم العظيم، ويجتهد عسى أن يناله من أنواره ما يجعله من "عباد الرحمن"، ولكن بعد أن يتعرف إليه تعالى من خلاله - أي من خلال هذا الاسم الكريم - ويسعى إليه بما يقتضيه من أعمال!

ومن هنا كان أجهل الخلق هو من جهل ذلك عن الله، وأبى أن يسير إلى جماله جل علاه! كما هو مبين في السياق، حيث كلما قيل للكافرين: "اسجدوا للرحمن!" عبادةً وتوحيدا وإخلاصا. قالوا: ما نعرف ما "الرحمن"! ثم قالوا على سبيل الإنكار والتجهيل والاستكبار: أنسجد لما تأمرنا بالسجود له؛ طاعةً لأمرك أنت يا

[96] أخرجه مسلم.

محمد؟ فما زادهم دعاؤهم إلى السجود للرحمن إلا بُعْداً عن الإيمان ونفورًا منه؛ بسبب الكبرياء الذي طمس على بصائرهم! ولقد خسروا خسرانا مبيا، وهلكوا هلاكا مكينا؛ إذ ضيعوا فرصة العمر في التعرف إلى الله باسمه العظيم جل جلاله: "الرحمن"!

ثم شرع - عز وجل - يفيض على عباده من بركات اسمه "الرحمن" ومن جمال أنواره؛ جوداً منه وكَرَماً! فقال جل ثناؤه: (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً! وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً!) بمعنى: عَظُمَتْ بركات الرحمن وكثرت خيراته؛ بما جعل في السماء من النجوم الكبار الشامخة بمنازلها، والدائرة في أفلاكها، وبما جعل فيها من شمس مشتعلة تضيء النهارَ أبداً، وقمرٍ ينير ما قُدِّرَ له من ليالٍ ومنازلَ سرمداً. وبما جعل - بناء على ذلك - من ليلٍ ونهارٍ متعاقبَيْن، يَخْلُف أحدُهما الآخر، في صورة كونية عجيبة دائبة، لا اضطراب فيها ولا اختلال! بما يدل على عظمة قيوميته تعالى على مُلْكِهِ، خَلْقاً وتقديراً، ورعايةً وتدبيراً. كل ذلك تسخيراً من "الرحمن" لعباده، ونعمةً منه وفضلاً؛ عسى أن يتفكروا في جلال مُلكه، وجمال ملكوته، وما يحيط بهم من مُسَخَّرَاتِهِ من إفضال وإنعام! وعسى أن يكونوا بذلك من الشاكرين!

3- الهدى المنهاجي:

وينقسم إلى خمس رسالات هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في ضرورة الحفاظ على الجوهر الأخروي للرسالة الإسلامية، في مجال العمل الدعوي، بشارةً ونذارةً. وأن مراجعة الدعوة نفسَها في ضوء ذلك، خطاباً وسلوكاً وبرنامجاً، هو من أهم الموازين التي تصحح بها مسيرتها.

- الرسالة الثانية:

في أن مقام الزهد هو من أول مقامات الإيمان، التي وجب على الداعية إلى الله أن يتخلق بها ويدخل ابتلاءها. وهو تحقيق التجرد من حظوظ الدنيا في العمل الدعوي! وإفراد قصد التعبد الخالص بكل خطوة ينجزها في سبيل الله، خالصة لله وحده دون سواه. وما دام شيء من الحظوظ الدنيوية، المادية أو المعنوية، يخالط العمل الدعوي فإنه لا يصفو لصاحبه منه شيء، ولا يثمر في الواقع بركة ولا إصلاحا!

- الرسالة الثالثة:

في أن مقام التوكل هو ثاني مقام وجب على الداعية أن يدخل عزيمته، بعد مقام الزهد. والتوكل: هو تحقيق الكفاية بالله! وذلك بالاستناد إلى أسمائه الحسنى على كل حال، في الخوف والأمن، وفي الفقر والغنى، وفي الصحة والمرض، دون

مراعاة شيء آخر سواه. ويكون ذلك بمداومة المشاهدة لتجليات ذِكْرِهِ تعالى على النفس؛ بما يزيد القلب معرفةً بالله. فإن من عرف الله بما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وَثِقَ به كِفَايَةً، أي وحده دون سواه. والثقة بالله كِفَايَةً هي جوهر التوكل؛ لما تتضمنه من التوحيد الكامل والإخلاص في وقت الشدة، حيث تزل الأقدام وتضطرم الأوهام! خاصة في السياق الدعوي؛ لِمَا فيه من تدافع! قال تعالى: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ؟ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ! وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ!)(الزمر: 36). وقال سبحانه: (وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ! وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً!)(الأحزاب: 48). وقال أيضا: (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ! وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً!)(النساء: 81).

ويجتمع كمال الأمان وجماله الدائم بهذا المقام، هنا في سورة الفرقان. وذلك بالتوكل على الحي الذي لا يموت! مما يبعث الثقة والحيوية والحياة في قلب العبد أبدا! وهو من أعظم الزاد للمؤمن الرباني في سيره الدعوي إلى الله. ذلك، وإنما الموفَّق من وفقه الله!

- الرسالة الرابعة:

في أن مقام الذِّكْرِ هو ثالث مقام وجب على الداعية أن يتخلق به، أوراداً معنويةً ولفظيةً على الدوام. وهو المقام المغذي لمقام التوكل كما بيناه؛ ولذلك وَرَدَا معاً في سياق واحد من الآية المتدارسة بمجلسنا هذا، في قوله تعالى: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ!) فالداعية الذاكر منصور، بينما الداعية الغافل مخذول! وقد أرسل الله رسوله موسى وأخاه هارون إلى فرعون، فَوَجَدَا مَا وَجَدَا من الخوف بادئ الأمر؛ فزودهما الله جل جلالُه بالذِّكْرِ! فقال سبحانه: (اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي!)(طه: 42) أي لا تَفْتُرَا ولا تَضْعُفَا ولا تنقطعا عنه! وقال لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ! وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ!)(الحجر: 97-99). ومثل هذا في القرآن كثير جدا؛ بما يجعله كُلِّيَةً قطعيةً في أن النصرة والنجاح للداعية - في وظيفته الربانية - رهينٌ بمداومة الذكر بشتى أنواعه المشروعة، مقاماً لازماً على كل حال!

- الرسالة الخامسة:

في أن التعرف إلى اسم الله: "الرحمن" والتزود من أسراره وأنواره، هو المدخل التأهيلي للداعية؛ إذا أراد أن يتخلق بإمامة المتقين ويتحقق بها!

ذلك أن أمامنا مدرسة "عباد الرحمن"، تنتظرنا برامجها العالية. وهي خاصة بشهادة "الإمامة" في التقوى، لا بمجرد التقوى! كما سترى بحول الله. إنها مدرسة الحكماء الربانيين، والدعاة الرحمانيين. لكن ليس كل الناس بمؤهَّلٍ لولوج الدراسة بها! ولذلك فالمؤمن في حاجة - قبل الولوج إلى مدارجها - أن يدخل مدرسة

تأهيلية قبلها! هذه المدرسة هي مدرسة التعريف بالاسم العظيم: "الرحمن"! حتى إذا عرف العبدُ ما قَصَدَ هان عليه ما وجد! كما تعبر الحكمة التربوية.

والمدرسة: دراسةٌ وبرامجُ وعملٌ؛ ولذلك فلنجعل هذا التأهيل الدراسي مخصوصا بـ"مسلك التخلق" بهذا المجلس العظيم!

4- مسلك التخلق:

وأما مسلك التأهيل للدخول في مدرسة "عباد الرحمن" فإنما ابتلاؤه راجع إلى ترويض النفس على التحلي بمقامين اثنين:

- الأول: مَقَامُ التَّذَكُّرِ، وهو تحصيل الذِّكْرَى للقلب، إيماناً يعمره بنور الله، ويملؤه معرفةً به؛ مما يزيد العبد شوقاً إليه تعالى، رَغَباً ورَهَباً. والتَّذَكُّرُ يحصل بأمرين هما: التفكر والتدبر.

فالتفكر: متعلق بسياحة الفكر في ملكوت السماوات والأرض، مشاهدةً لدلائل الإيمان، وتزودا من تجليات نور الرحمن! كما في قوله تعالى من سورة آل عمران: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ!)(آل عمران: 190-191).

وأما التدبر: فهو متعلق بسياحة القلب في مَشَاهِدِ القرآن ومَعَارِضِهِ، والورود من ربيعه العذب رحمةً وسكينةً وجمالاً. (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا؟!)(محمد: 24) فإذا فعل انفتح له باب التعرف على اسم الله "الرحمن"، والتلقي من جمال نوره العظيم؛ إذ القرآن هو كتاب التعريف بالرحمن، قال تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ!)(الرحمن:1). فالداعية إلى الله ملزم بوردين اثنين دائمين: ورد التفكر وورد التدبر. فهما خلوتان: الأولى في ملكوت الله، والثانية في كتاب الله. وبذلك يكتمل مقام التَّذَكُّرِ للعبد، ويجني ثمرةَ ذِكْرَاهُ، مَقَاماً رَحْمَانِيّاً راسخا إن شاء الله.

- والثاني: مقام الشكر، وهو يحصل بكثرة السجود. وقد أُمِرَ الكفارُ أنفسُهم في الكلمات المتدارسة بالسجود للرحمن! لكن المقصود التربوي بالنسبة للداعية ههنا إنما هو قيام الليل! وقد قال سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم – لزوجه عائشة - رضي الله عنها - لما عذلته في كثرة القيام وطوله؛ حتى تفطرت قدماه الشريفتان: (أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟!)[97]

فهذان مقاما نَيْلِ شرفِ التعرف إلى اسم الله "الرحمن"، والتزود من بركاته وأسراره: (لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً). فمن جمع الاتصاف بهما كان -

[97] متفق عليه.

بـإذن الله – مؤهلا لولـوج مدرسـة "عبـاد الـرحمن" بمـا أبـرق لعينيـه – فـي تـذكره وتشكره - من أسرار هذا الاسم العظيم!

المجلس الثالث عشر
في مقام الانتساب إلى مدرسة "عباد الرحمن"
وهو في ثلاثة فصول
الفصل الأول: في تحقيق الأخوة الملائكية وتعميق المعرفة بالله

1- **كلمات الابتلاء:**

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً (66)

2- **البيان العام:** في التعريف بمدرسة "عباد الرحمن"

هذا مقام العبدية العالي! مَقَامٌ ولا كأي مقام! مقامٌ عظيم بالذلة، غني بالفقر! مُكْتَفٍ بالله جمالاً وجلالاً!

"عباد الرحمن"، إضافة ولا كأي إضافة! وانتساب ولا كأي انتساب! فالخلق كلهم عباد الله طوعا أو كرها! أما هؤلاء فإنما هم "عباد الرحمن"! رَغَباً ورَهَباً، وشَوْقاً ومَحَبَّةً!

"عباد الرحمن"، إنه تعبير خاص، وسمة خاصة! فيها من التقريب الرباني والتحبيب الرحماني، ما ليس في غيرها من الإضافات العَلَمِيَّةِ والوصفية إلى الأسماء الحسنى! فهو لم يرد في القرآن إلا مرتين اثنتين فقط! الأولى في وصف هؤلاء السادة العظام! والثانية في وصف الملائكة الكرام! قال جل جلاله: (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ!)(الزخرف: 19). وعبادة الملائكة لله - كما سيأتي في كلام ثمين لابن القيم رحمه الله – عبادةٌ متذللة، تلقائية مسترسلة، مستمرة بلا انقطاع ولا فتور، كالنَّفَسِ لبني آدم! وذلك لِمَا يجدون في فِطَرِهِمْ من الشوق والمحبة! لا كَلْفَةَ فيها ولا مشقة! فهي مُتْعَتُهُمْ، وهي راحتُهم، وهي حياتُهم ومعنى وجودهم! ((لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ!))(التحريم: 6). لا يذوقون للمعصية معنى! طاعة تامة وخضوع كامل! قال تعالى عن الملائكة العِنْدِيَّةِ: (وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ. يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ!)(الأنبياء: 20/19)

وهذا لا يكون للإنسان – بما هو إنسان - إلا ابتلاءً وتكليفاً! فمن ذا قدير على الدخول في ابتلاء هذا المقام الملائكي العالي؟ إنهم "عباد الرحمن"! هؤلاء هم

وحدهم الذين شاركوا الملائكة في هذه السيماء الرفيعة! فسبقوا بخرق موانع الشهوات التي ليست للملائكة؛ فكانوا بذلك أئمة في الأرض وفي السماء!

قال العالم الرباني محيي السنة الإمام الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت: 516) رحمه الله: ((قوله عز وجل: "وعباد الرحمن"، أي: أفاضل العباد. وقيل: هذه الإضافة للتخصيص والتفضيل، وإلا فالخلق كلهم عباد الله!))([98])

أي أن منهم من هو عبدُ ربوبيةٍ فقط، خاضع قهرا لسلطان الله، ومنهم من هو عبدُ إلهيةٍ، خاضع خوفاً ورجاءً ومحبةً لجلاله تعالى وجماله! ووصف "عبد الرحمن" خاص بالنوع الثاني فقط. قال ابن القيم رحمه الله في التمييز بينهما: ((والله تعالى جعل العبودية وَصْفَ أكمل خلقه وأقربهم إليه (...) وهذا يبين أن الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء: "وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" ههنا. ثم يبتدئ: "وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ. يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ!"([99]) فهما جملتان تامتان مستقلتان. أي: إنَّ له مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض عبيداً ومِلْكاً. ثم استأنف جملة أخرى، فقال: "وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ"، يعني أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته. يعني: لا يأنفون عنها ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون! يقال: حَسِرَ واسْتَحْسَرَ، أي: إذا تَعِبَ وأعْيَا. بل عبادتُهم وتسبيحُهم كالنَّفَسِ لبني آدم! فالأول وصف لعبيد ربوبيته، والثاني وصف لعبيد إلهيته. وقال تعالى: "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا..." إلى آخر السورة!"))([100])

ونقل الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية، كلاما رفيعا للإمام الحسن البصري رحمه الله: ((في قوله: "وعباد الرحمن" الآية، قال: "إن المؤمنين قوم ذُلُلٌ، ذَلَّتْ منهم والله الأسماع، والأبصار، والجوارح! حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض! وإنهم والله أصحاء، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم! ومنعهم من الدنيا عِلْمُهُمْ بالآخرة! فقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزَن! أمَا والله ما أحزنهم ما أحزن الناس! ولا تعاظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة! ولكن أبكاهم الخوف من النار! إنه مَنْ لم يَتَعَزَّ بعزاء الله، تَقَطَّع نفسُه على الدنيا حسراتٍ! ومن لم ير لله نعمةً إلا في مطعم أو مشرب، فقد قَلَّ عِلْمُهُ وحَضَرَ عذابُه!))([101]).

ذلك تعريف مجمل عام بهذه المدرسة الرحمانية العالية، فلنبدأ حصتنا الأولى فيها إذن من البداية!

---

[98] تفسير البغوي: 6 / 93.

[99] الأنبياء: 20/19.

[100] مدارج السالكين: 102/1.

[101] تفسير ابن كثير: 325/3.

شيءٌ ما وَقَرَ في قلوبهم! فما بالهم يمشون على الأرض هونا؟ (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً) أي بسكينة ووقار، من غير تجبر ولا استكبار! لكن لا تَمَاوُتاً ولا تصنعاً ولا رياءً، فقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا مشى كأنما ينحطُّ من صَبَبٍ، وكأنما تُطْوَى له الأرض طيا! وإنما القصد أنهم يمشون بمشاعرهم الإيمانية من العبدية الكاملة لله، يطأون الأرض بأقدام المحبة، ويسلكون مسالكها بخطوات الخوف والرجاء، ينثرون السكينة التي فاضت على أجسامهم من بعدما ملأت معرفةُ الله قلوبَهم، فكانوا أعرف بعظمته وجلاله، وكانوا أعرف بضعفهم وحاجتهم الشديدة إليه. فعَلاَمَ يستكبرون؟ وعلامَ يتبخترون ويتجبرون؟ ونتيجة الامتحان لما تعلن بعد؟! إنهم مشغولون بِهَمِّ النبأ العظيم! مشغولون بمآلاتهم في المصير الأخروي العظيم! فلا وقت لديهم للالتفات أو الاشتغال بهموم الأرض! ولا بأهلها الغارقين في أوحالها! ولذلك فإنهم يَرُدُّونَ أذى الجهلة بالسلام! (وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً)، أي: إذا تعدى عليهم الجُهَّالُ بالقول السيء السفيه لم يردوا عليهم بمثله، بل يعفون ويصفحون ويكظمون، ولا يقولون إلا خيراً! لأن الهم أعظم وأكبر، ولكن الجهلة بالله لا يعلمون! أما هم فهم عباد الرحمن في الأرض، الحاملون رسالاته إلى الناس، عِلْماً وحِلْماً وخُلُقاً! وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حِلْماً؛ دعوةً إلى الله وتعريفاً به تعالى.

ذلك نهارُهم: سلوكٌ مع الله ذلة وخضوعاً، وسلوكٌ مع الناس دعوةً وسلاماً!

وأما ليلهم فخير ليل! أحياء غير أموات، يوقدون أنوار القلوب الضارعة إلى الله قياما! في حركة سائرة إليه تعالى عبر معارج الروح، ركوعا وسجودا لا يفترون! (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً) هكذا بصورة دالة على الحركة المستمرة النشيطة! ملتحقين بقوافل الأنبياء والصِّدِّيقِين في رحلة الشوق إلى الله. وقد وضعوا نصب أعينهم مشاهد الخسران واحتمالاته! فتوهجت مصابيح قلوبهم بلهيب الخوف! وجدَّت الأقدام في قطع المسافات ركوعا وسجودا! وليس كل سائر بمضمون الوصول! فلِمَ يستعجلون الفرحَ الكاذب والسرور المغرور! ذلك هو فص العبادة لله الواحد القهار! فلا يرحل إلى مولاه بحادي الحَذَرِ إلا عارفٌ بالله حقا، عالم بقدره ومَقامه جل علاه! ولذلك قال تعالى في سورة "الزمر":(أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ. قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ!)(الزمر:9)

وقال سبحانه ههنا في "الفرقان": (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً! إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً!) وكأنهم وهم يقطعون مفاوز الدنيا، يشاهدون مضارم النار من بعيد! فيسألون مولاهم الرحمن سؤال استغاثة باكية وتضرع حار! (رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ! إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً!)

والعذاب الغَرَامُ: هو العذابُ المؤبَّدُ أبداً! لا ينقطع ولا يزول ما دامت السماوات والأرض! فكيف إذا كان ذلك التأبيد الرهيب في قعر جهنم وجوف جحيمها؟ عذاب ولا كأي عذاب والعياذ بالله! أوَليس هذا مما لا يطيق الخيال تصوره؟ ولا يستطيع القلب تحسسه لما يحمله من هول عظيم؟ ولذلك قالوا: (إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً!) أي بئس المنزل هي! وبئس القرار وبئس المصير! فبأي عين يستحلي النومَ والسباتَ أصحابُ مثل هذه المشاهَدات؟! وإن لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ذلك لبيانا جليلاً! قال: (مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ. أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ! أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ!)([102]).

ذلك هو السِّرُ الذي وَقَرَ بقلوبهم؛ فمشوا على الأرض هونا، ونشروا المحبة والسلام في الناس، متحملين لكل أصناف الأذى في الله! حتى إذا كان الليل هرعوا - خُفْيَةً - إلى مواعيدهم الحضراء مع الرحمن! وأشعلوا سُرُجَ القلوبِ بكاءً وتضرعاً!

فيا قلبي الكليل الثقيل! أين أنت من كل هذا الجلال والجمال؟

3- الهدى المنهاجي:

وينقسم إلى أربع رسالات هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

الذلة لله أول درس!

من هنا تبدأ أولى دروس التزكية بمدرسة "عباد الرحمن": إنه درس تحقيق الذلة لله! والافتقار الكامل إليه جل علاه! حيث يشرب المؤمن من هذا المورد حتى تخشع قدماه! ويطيب ممشاه!

فاعلمي يا نفسي المغرورة! أن الشيطان قد يلتف على الإنسان استدراجا؛ فيملؤه كِبْراً بالدين! فيكون - من حيث لا يدري - من الهالكين! وكيف يكون الكِبْرُ بالدين؟ ألا ترى أن بعضهم قد يشعر بالتميز بتدينه والتفرد بصلاحه؛ فيملؤه الغرور بربه، ظنا منه أنه قد اعتلى، وما هو في الحقيقة إلا قد استكبر واستعلى! فيحبط عمله والعياذ بالله!

فمقاربة الذلة والافتقار لله رب العالمين شرط الصلاح في كل المؤمنين. لكن كمال الذلة له تعالى وتمام الافتقار؛ حتى لا يرى العبد من عمله شيئا إلا بالله، وحتى تئن خطوته خوفا من الله، هو أول مفتاح النجاح بمدرسة عباد الرحمن! ولا تستقيم دعوة إلى الله بغير ذلك! فاشْهَدْ سجدةَ القلبِ بين يدي مولاك! مقاما لا تَزِلُّ عنه أبداً!

- الرسالة الثانية:

---

102 رواه الترمذي والحاكم. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

في أن اشتغال اللسان بمجادلة الجهلة والسفهاء، والرد عليهم بما قالوا سَفَهٌ مثلُه! وأن للسان أولويات في وظيفته الكلامية، رأسها زرع بذرة الهدى في القلوب! ونشر كلمات الله هنا وهناك. فتلك هي كلمات الخير، كلمات السلام، الداعية إلى دار السلام! فليس له من الخطاب غيرها مهما جَهِلَ عليه الجاهلون!

- الرسالة الثالثة:

في أن قيام الليل أكبر معين على جهاد النهار، وأكبر زاد على الاستمرار في الطريق إلى الله، وأسرع مركبة إيمانية في قطع المسافات الروحية إلى الله! عروجا إلى المنازل العلى في الجنة! وأضمن أمان عند الله في النجاة من النار! فلا يتركه مطلقا إلا جاهل بالله وباليوم الآخر! ولا ينقطع عنه من المؤمنين إلا منقطع عن مدرسة عباد الرحمن! وإنما الموفق من وفقه الله! قال صلى الله عليه وسلم في حديث جامع لكل ذلك: (إنَّ اللهَ يُبْغِضُ كُلَّ جُعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ، سَخَّابٍ في الأَسْوَاقِ، جِيفَةٍ بِاللَّيْلِ، حِمَارٍ بِالنَّهَارِ، عَالِمٍ بِالدُّنْيَا، جَاهِلٍ بِالآخِرَةِ!)([103]) وإنما يُجَيِّفُ القلبُ بالليلِ ويَنْتُنُ إذا انقطع صاحبُه عن القيام أمداً طويلاً! فإذا حصل صار بذلك جُعْظَرِيّاً جَوَّاظاً! أي رجلا غليظ القلب خَشِناً! لا يهدأ له صوتٌ في طلب الدنيا وأوساخها، مُضَارِباً ومخاصماً! وهو عن الآخرة عَمٍ!

فصلاة الليل – ولو ركعتان - هي حياة القلب! وإنها لترتقي بصاحبها شيئا فشيئا؛ حتى ينال منزلة المحبة ومقام الولاية الحق، فضلا من الله ونعمة! ولا نجاح في مدرسة عباد الرحمن بغير درجات عالية الإخلاص في حصة ناشئة الليل!

- الرسالة الرابعة:

في أن الخوف من النار! وتدبر مشاهدها في القرآن، من أهم المعارف والدروس المعرفة بجلال الله وعظيم سلطانه! وأن ذلك أكبر حَادٍ للعبد في توبته من ذنوبه على الإطلاق، وهو أكبر معنى إيماني يزرع الفقر والذلة في أولياء الله! كما أنه أكبر منبه للقلب للاستيقاظ من مضاجِع الخمول، وشهود تجليات النور بمحراب السَّحَر!

ثم إن الزعم المتداول في كتب بعض القوم من أن اشتغالهم بالمحبة أو بذات الله، أنساهم الخوف من الله ومن عذابه لهو من أخطر الضلال، ومن أشد فتن

---

[103] رواه البيهقي. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع. والجعظري الجواظ: هو المتكبر الغليظ، الخَشِنُ الأخلاق! والسَّخَبُ والصَّخَبُ، كلاهما بمعنى، وهو: رفع الصوت المنكر كصوت الحمار! والحديث كناية عن الرجل همه الدنيا والكسب المادي، حيث يظل النهار كله في صراع الأسواق والصفقات لا يحرم حراما ولا يحل حلالا! ولا يعرف لله حقا ولا مقاما! حتى إذا كان الليل خَرَّ على فراشه فنام نوما ثقيلا، فَتَنْتُنُ روحه كالجيفة؛ بما يعقد عليه الشيطان من عُقَدِ الغفلة عن الصلاة والقيام!

الشيطان، واستدراجه للعبد السائر إلى الله! فلن يكون أحدٌ أعلم بالله من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم! وقد كان - بأبي وأمي هو - أخوف عباد الله من الله، وأخشعهم له وأتقاهم! وقد بكى عليه الصلاة والسلام حتى اخضلت لحيته! بل حتى بَلَّ موضع سجوده! لما قرأ في قيامه بالليل: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ! رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ! وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ!)(آل عمران: 190- 192).

فعن عبيد بن عمير - رضي الله عنه - أنه قال لعائشة رضي الله عنها: ((أخبرينا بأعجب شيء رأيتِه من رسول الله صلى الله عليه وسلم! قال: فسكتتْ، ثم قالت: "لَمَّا كان ليلةٌ من الليالي، قال: "يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي!" قلتُ: والله إني أحب قربك! وأحب ما يَسُرُّكَ!" قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي. قالت: فلم يزل يبكي حتى بَلَّ حِجْرَهُ! - قالتْ: وكان جالساً - فلم يزل يبكي صلى الله عليه وسلم حتى بَلَّ لحيتَه! قالت: ثم بكى حتى بَلَّ الأرض! فجاء بلال يُؤْذِنُهُ بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: "يا رسول الله! تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: "أفلا أكون عبداً شكوراً؟! لقد نزلتْ عليَّ الليلة آيةٌ، وَيْلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها! "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ"...)الآية.([104])

فلا يدعي الأمانَ من النار إلا مغرورٌ جاهلٌ بالله! بَلْهَ أن يكون من أهله وخاصته! وإنما على قَدْرِ خوف العبد من عذابه تعالى يكون مقامُه عنده! وقد رأيتَ ما تواتر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من هذا المعنى العظيم! وإنه لمن أعظم دروس "عباد الرحمن" التي يبيتون الليلَ على مواجيدها يبكون ويتضرعون! ذلك، فإذا عرفتَ يا صاح فالزم!

4- مسلك التخلق:

ومسلك النجاح في تعلم هذه المعارف والتخلق بها، راجع إلى ترتيبين منهجيين اثنين:

- الترتيب الأول: ضرورة الاندماج الدراسي! الاندماج في البيئة المؤمنة لعباد الرحمن؛ إذ مدرسة هؤلاء القوم – ككل المدارس - تحتاج ممن يدخل فصولها، بما هي مدرسة، إلى مصاحبة تلاميذها وأشياخها؛ إذ بغير ذلك يكون الطالب وحيدا، ويُخشى عليه من الانقطاع! والتمدرس الجماعي أضمن للطالب في المثابرة والاستئناس، والمنافسة والاجتهاد! فلا بد من رؤية الأقران ماذا يفعلون؟ ولا بد من رؤية الأشياخ كيف يسلكون؟ فالطريق شاق وطويل! فكذلك كان

---

[104] رواه ابن حبان في صحيحه، وعبد بن حميد في تفسيره. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع أنفسهم فيما بينهم، ومع معلمهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام! رحلة واحدة، وسرب واحد، وأمة واحدة! في السفر والحضر، وفي الخوف والأمن، وفي الرخاء والشدة، مُتَوَادِّينَ مُتَراحِمِينَ كالجسد الواحد فعلا!

وإنما وصف الله أعمال "عباد الرحمن" بوصف الجمع، في الأفعال، وفي الضمائر، وأسماء الموصول، ونحو ذلك، سيراً واحداً، لا اختلاف فيه ولا اضطراب! وفيه إشارة إلى ما ذكرنا من ضرورة الاجتماع على البر والتقوى، والتعاون على التخلق بمنازلهما.

وبذلك يستطيع المؤمن أن يصبر على مشاق الطريق، ويداوم على قيام الليل، ويأنس في وحشة الغربة، ويعيش مع الله مجتهدا في قطع مفاوز السفر؛ بما يرى من شوق السائرين وعجيب اجتهادهم.

- الترتيب الثاني: تلقي معارف الروح بتدرج، شيئا فشيئا، ذلك أن المدرسة مستويات، فلا تغامر بدخول الأقسام العليا في بداية الطريق، والولوج إلى حلقات الراسخين من أول أيام الانتساب! فلأن تقتصر على قيام ركعتين اثنتين مرة في الأسبوع ابتداءً، مع الحفاظ على الفرائض في مواقيتها وجماعاتها، خير لك من قيام يومي طويل، يدوم أسبوعا أو عدة أسابيع، ثم ينقطع بك عن أداء الفرائض في مساجدها أو في مواقيتها! فهذا إنما هو انتكاس شنيع والعياذ بالله! وقد نبه المعلم الأول بهذه المدرسة سيدُنا محمد صلى الله عليه وسلم على هذا! في مناسبات شتى من أحاديثه النبوية الشريفة؛ لِمَا يعلم من أن ذلك من أكبر القواعد المنهجية، لتلقي معارف الروح والترقي بمنازلها الإيمانية العالية! من أخطأه كان من الهالكين!

ويكفيك من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (إن هذا الدين متين؛ فأوغلوا فيه برفق!)([105]). وقال عليه الصلاة والسلام: (إن الدين يُسْرٌ، ولا يُشَادُّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه! فسددوا، وقاربوا، وأبشروا..! و استعينوا بالغَدْوَةِ والرَّوْحَةِ، وشيءٍ من الدُّلْجَةِ!)([106]). فقوله: "الغدوة" و"الروحة" كناية عن صلوات النهار والمساء من الفرائض. و"الدلجة" كناية عن قيام الليل. لكنه عبر ههنا عن القيام بعبارة (شَيْءٍ) للتقليل! والمقصود أن يبدأ المنتسب الابتدائي بقليل النوافل، ويستمر على ذلك القليل زمنا؛ حتى إذا صار له كالعادة المُطَّرِدَةِ أو كالنَّفَسِ التلقائي، زاد على قدر عزيمته ونشاطه، وانتقل بذلك إلى المستوى الأعلى الذي يليه، وهكذا إلى أن يصل مقام التخرج العالي بإذن الله، فلا يكون إلا لله وبه!

---

[105] أخرجه أحمد عن أنس مرفوعا. وحسنه الشيخ الألباني. حديث رقم : 2246 في صحيح الجامع.

[106] أخرجه البخاري.

ولا بد في هذا وذاك من استشارة أهل العلم والخبرة بالطريق ومفاوزها، من المعلمين الربانيين. فإنما المدرسة مدرسة. وإنما الله هو الموفق للخير والهادي إليه.

المجلس الرابع عشر
في مقام الانتساب إلى مدرسة "عباد الرحمن"
الفصل الثاني: في الاقتصاد المادي والمعنوي

1- كلمات الابتلاء:

وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً (67) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً (69) إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً (71)

2- البيان العام:

هذه إحدى ثمرات دروس التهجد، ومقامات الخوف والخشية. من نجح هناك أمكن أن يدخل ابتلاءات هذا المقام. فمن اكتحل في ظلام الليل بدموع القرآن أبصر معالم الطريق وحقائقها بالنهار، إبصارا يؤهله للثبات على صراطها المستقيم. ورأى أشباح الشهوات على حقيقتها وبشاعتها، فلا تسحر عينيه كما تسحر أهلَ الغفلة؛ إذ يرون فيها من الحسن والبهاء ما لم يجعله الله فيها! بل يراها كما هي في قبحها وبشاعتها؛ فينفر منه ويستقذرها!

إنها ثمراتٌ عملية تمنع صاحبها من سلوك طريق المسرفين في المعيشة وفي الذنوب! فعباد الرحمن بما وَقَرَ في قلوبهم من معان ربانية، يكونون فقهاء في طبيعة الدنيا، وأنها ليست للاستغراق في الشهوات ولو كانت من المباحات، بقدر ما هي للحرث الأخروي! إنهم أهل اقتصاد عام في المال وفي الأعمال! بالمعنى الشمولي الإسلامي لكلمة "اقتصاد"، الراجعة إلى معنى التوسط والاعتدال.

والمال في الإسلام - على الإجمال - هو ثاني شيء يُعبد به الله بعد الصلاة! ولذلك كثيرا ما تعطف الزكاة على الصلاة في القرآن الكريم عند تحديد شروط التوبة والصلاح، أو تحديد علامة الدخول الجاد في الإسلام. كما في قوله تعالى عن المشركين المحاربين: (فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)(التوبة: 11).

والعبادة المالية أنى كانت، سواء في مجال الزكاة أو مجال الصدقة بالمعنى العام، أو في مجال التدبير والنفقة على النفس والعيال، والمشاريع الاقتصادية، مرتبط أشد الارتباط بأصل التوحيد في الإسلام! حيث هنالك يقع ابتلاء المؤمن في

كيفية التصرف في ماله، هل هو بشعور التملك الحقيقي الأناني؟ أي على وزان قول قارون لما قيل له: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ! قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي!)(القصص: 77-78) أم أنه يتصرف بشعور الابتلاء التعبدي الذي تترجمه قاعدة الاقتصاد الإسلامي القاضية بأن (المال مال الله والبشر مستخلفون فيه!)؟

فالذي صلى حقا وقام وتهجد إنما هو الذي نال شرف المعرفة بالله توحيدا له وإخلاصا! فوجد أن المالك إنما هو الله! وإنما الإنسان في ماله - الذي ابتلي به - عَبْدٌ لله! كما هو عبد له في ركوعه وسجوده! بلا تناقض ولا اختلاف، شعور واحد يصحبه بالليل والنهار! وذلك هو الدين الخالص والتوحيد الكامل! ومن هنا فاض هذا السلوك الرباني العجيب على أهل الله هؤلاء، من عباد الرحمن! فكانوا كما وصفهم القرآن الكريم: (إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يُقْتِرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً)! أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم وعلى أهل الحقوق عليهم، فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل هم وسط في كل ذلك. وخير الأمور أوسطها. كما قال تعالى في سورة الإسراء: (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً! إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)(الإسراء: 29-30) الآية.

والضابط الاقتصادي التعبدي في الإسلام لذلك الميزان الرباني، إنما هو الإنفاق على قدر الحاجة! "الحاجة" بمعناها الشرعي، لا بما تخيله وسائل الإعلام اليوم، القائمة على تكريس ثقافة الاستهلاك المدمر للبلاد والعباد! وقد صح في السنة النبوية الشريفة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (اللهم اجعل رزق آل محمد قُوتاً!)([107]) والقوت: هو الرزق الذي يسد الحاجة ولا يزيد! فكذلك كان وسط عيشه - صلى الله عليه وسلم - وسيرته في أهله وأصحابه. فعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم – قال: (قد أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، ورُزِقَ كَفَافاً، وقَنَّعَهُ اللهُ بما آتَاهُ!)([108])

ودون هذا ما دونه من مكابدات الليل وسبحات النهار! فمن لم يعرف ذلك ولم يشاهده، فلا سبيل له للدخول في ابتلاءات هذا الفصل الرفيع! وإنما الموفق من وفقه الله!

وبذلك كانوا منزهين عن إتيان أمهات الكبائر في الإسلام، آمنين من الانجذاب إلى لهيبها وفتنها. وعلى رأسها: الشرك بالله بدعاء غيره، وقتل النفس بغير حق،

---

[107] متفق عليه.

[108] أخرجه مسلم.

والزنـى والفواحش! فقال تعـالى: (وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً!)

وقد استشكل بعض المفسرين أن يُسْنَدَ تَرْكُ ذلك إلى عباد الرحمن، وقد وُصِفُوا بما وُصِفُوا به من المقامات الإيمانية العالية؛ باعتبار أنهم منـزهون عن هذه الكبائر، فليس مثلهم من يمدح بتركها! فأوَّلُوا الآية وأخرجوها عن ظاهرها إلى معان إشارية![109] والحقيقة أن الآية هي على ظاهرها – كما هو مذهب جمهور المفسرين - ولا إشكال فيها البتة. ذلك أن الله جل جلاله يضع بنفي هذه القبائح عن "عباد الرحمن" فاصلاً بينهم وبين أهل الكفر والشرك! وذلك ببيان بُعْدِ المسافة وعمق الاختلاف! من حيث إن المؤمنين متحكمون في نزواتهم الشهوانية والغضبية، منقادون لله فيها انقياداً، خالصون له تعالى في كل ذلك، فلا خيانة ولا إشراك! لا تستفزهم النداءات الشيطانية من هنا وهناك، ولا يلتفتون لغير الله! على عكس أحوال المشركين والكفار. ومن هنا فقد أخرج الإمام الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية: (نزلت في أهل الشرك!)[110] في سياق مدح عباد الرحمن. وإنما ذلك كان لبيان المقامات العالية لأهل الإيمان! من باب قولهم: "وبضدها تتميز الأشياء!"

وأما الحكمة التربوية من كل ذلك فهي: بيان أن المسلم مهما كان مقامه الإيماني مُعَرَّضٌ للفتنة ببشريته! فلا ينبغي له أن يغتر بالله، فيهلكه العُجب والمن على الله! إذْ لا عصمة لأحد بعد رسول الله! ثم - وهذا هو الخصوص المنسوب إلى عباد الرحمن ههنا – إن الحفظ من هذه الكبائر وأضرابها إنما هو نعمة من أكبر النعم التي لا تكون إلا بالله! فتستوجب شكرا لله لا حد له! وحقا له على عباده الصالحين لا نهاية له! وعبادُ الرحمن إذْ يشاهدون ذلك، يشاهدون ما أكرمهم الله به من العصمة والأمان، من هذه الفتن جميعها؛ فيزيدهم خشوعا نَدِيّاً، وبكاءً سَخِيّاً، يروي جمال لياليهم الخضراء!

فآلت الآية إلى أنها ضرب من التأمين الرحماني لعباد الرحمن، من أن يقعوا فيما يقع فيه غيرهم من المشركين أو من عصاة المسلمين! وكفى بذلك تكريما لهم وتشريفا! وهو في الحقيقة من أجمل ما وُصفوا به في هذا المقام العظيم! إذ جاء سيرهم إلى الله متوازنا بين مقامي التحلي والتخلي. والعظمةُ بالله إنما تكون لمن تعرض للفتنة فثبتَ وأمَّنَهُ الله! لا لمن لم يعرفها قط، ولم يُبْتَلَ بها على سبيل العرض والإغراء! والأول هو مقام عباد الرحمن، فانظر أي جمال وجلال في هذا الوصف الرباني العظيم لمدرستهم! وإن في ذلك لرسالات من "الهدى المنهاجي" عظيمة، نذكرها بعد قليل في محالها بحول الله.

---

[109] ذكره القرطبي رحمه الله في تفسيره نقلا عن غيره، ورَدَّهُ. الجامع: 75/13.

[110] تفسير الطبري: 219/5.

ثم وجَّه سبحانه الوعيد الشديد للمشركين ولأهل المعاصي، من المتمردين على الرحمن! المصرين على جرائمهم إصراراً، بلا توبة ولا أوبة ولا استغفار! فوصف مشهد عذابهم يوم القيامة؛ بما يملأ القلب هولا وفزعا! وبما يُلَمِّعُ ويُعلي مشهد تمتع عباد الرحمن بما سيأتي وصفه من جمال "الغُرْفَةِ" العالية في الجِنَان!

قال تعالى: (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً!) قال عِكْرِمَةُ في معنى " أثام ": هي أودية في جهنم يُعَذَّبُ فيها الزناة! وقال قَتَادَةُ: "يَلْقَ أثاماً": نَكَالاً! وقال السُّدِّي: جَزَاءً.([111]) وكلها أقوال في جميع الأحوال تؤول إلى معنى واحد، لا يخرج عن كونه جزاءً رهيباً من العذاب، من مثل ما فعلوا في الدنيا من الاستجابة لشهوات الحرام والفساد في الأرض، من شرك وقتل وزنى. لكنه جزاء أخروي على وزان ما جعل الله في جهنم والعياذ بالله! ولذلك قال تعالى: (يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً!) أي يُغَلَّظ عليه (وَيَخْلُدْ فيهِ مُهَاناً)، أي: حقيراً ذليلاً في عذابٍ سَرْمَدِيٍّ لا نهاية له!

ويأبى الله خلال هذا الترهيب إلا أن يتجلى على عباده برحمته! فيفتح باب التوبة للناس جميعا، كافرهم ومسلمهم! ممن سقط في وحل المعاصي والذنوب، من مثل هذه الكبائر المذكورة وغيرها. فمقام "عباد الرحمن" ومدرستهم مفتوحة في وجه كل من رغب إلى الله بالتوبة التامة النصوح! وجاء إلى مولاه يحمل مواجيد الندم ومشاعر الألم! يرجو رحمته وغفرانه! فله الحمد من رب رحيم! وله الحمد من مَلِكٍ كريم!

فمدرسة عباد الرحمن ليست من المدارس الدنيوية التي يطرد منه الفاشلون طرداً!.. كلا! كلا! فالأمل في الولوج إليها والانتساب لها مفتوح في وجه جميع المؤهلات إلى يوم القيامة، تشجيعا على الاشتغال الدائم بمحاولة التحقق من شروط الالتحاق أبداً. إننا لم ننقض ما ذكرناه قبل من كلام في خصوصية مدرسة عباد الرحمن، نعم هي مدرسة عالية عالية! لكن تحقيق التأهل لها ممكن في وجه كل من وفقه الله، فالمقاييس المادية الحسية ههنا تفشل في تقدير الإمكانات. المقياس الروحي وحده يتحكم! ففي مجال الدين والتزكية الروحية لا يكون الجهد العملي وحده المؤهل للنجاح، بل هناك التسديد الإلهي والتوفيق الرباني، المبني على ما يستبطنه المؤمن من إخلاص القصد في العمل، وكمال الصدق في الطلب! هذا هذا..! إنه المؤهِّلُ الحاسم في ولوج كل مقامات الدين!

فمن كان على ذلك الوزان من الإخلاص والمحبة والشوق – مهما بدا عليه من العجز والضعف – وقد تحقق بالمحبة الكاملة والإخلاص التام؛ كان الله له معينا؛ فأنجز بعد ذلك ما تتعجب منه العقول من جلائل الخطوات والأعمال! إن النجاحات في الدين لها صلة كبرى بموازين الغيب، أكثر مما لها من ارتباط بمقاييس

---

[111] تفسير الطبري وابن كثير للآية.

الشهادة! فلا تنس هذا! ولك أن تتأمل هذا الحديث النبوي الشريف، حيث قال صلى الله عليه وسلم: (لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ! قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّـهِ؟ قَالَ: وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّـهُ بِرَحْمَـةٍ! سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ! وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا!)([112])

ومن هذا الباب الرحماني العظيم تجلت توبة الله عَرْضاً كريماً على عباده، كل عباده! قال سبحانه: (إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّـهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً!)

أي إلا من تاب الآن في الدنيا دار الابتلاء، وأقلع إقلاعا عن هذه الصفات القبيحة، بالشروط المذكورة في الآية، فإن الله يتوب عليه. ويجازيه بما هو تعالى أهله من جمال الكرم والجود! وهو قوله تعالى: (فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ! وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً). وقد ذهب المفسرون في معنى ذلك مذهبين: أحدهما أنهم كانوا قبل توبتهم على فعل السيئات فحولهم الله إلى فعل الحسنات، وأبدلهم بالعمل السيء عملا صالحا. أي أنه تعالى أبدلهم بالشرك إخلاصاً، وبالكفر إسلاماً، وبالفجور إحصاناً.. إلخ.

والمذهب الثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات! وقد ثبتت السنة بمعنى ذلك، لكن في سياق آخر قريب. فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا: رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا! فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا، وَكَذَا كَذَا وَكَذَا! وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا! فَيَقُولُ: نَعَمْ! لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ! وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ! فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً! فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لاَ أَرَاهَا هَا هُنَا؟! [قال أبو ذر:] فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ!)([113]). وهذا أمر مرتبط برحمة الله وكرمه، ولا علاقة لها بحتمية حسابية! ولذلك فليس ببعيد عن رحمة الله الواسعة، أن يعامل من يشاء من عباده التائبين في الدنيا، بما يجعل سيئاتهم حسنات بهذا المعنى؛ فلا يدخلون النار أبداً، ولو لحين من الدهر! نجاني الله وإياك من عذابه كل عذابه! وأدخلنا في رحمته برحمته!

إلا أن التوبة المذكورة ههنا لها شروطها، هي: نفس التوبة أولا، ثم الإيمان، ثم الدخول في العمل الصالح تَوّاً! فالتوبة هي: ذلك القرار النفسي المتخذ على مستوى العزيمة والإرادة الذاتية؛ بقصد الانتقال من حال السوء إلى حال الصلاح، قرارا واعيا عميقا، يصحبه الندم على الماضي! فهذه خطوة أولى ضرورية. والخطوة

---

[112] متفق عليه.

[113] أخرجه مسلم.

الثانية: أن يكون ذلك القرار قد وقع في النفس بدافع الإيمان بالله واليوم الآخر! لا بدافع أرضي أو مصلحي، أو عقلاني مجرد من كل معاني الدين! فكثير من الناس يقلع عن عادات سيئة لكن ليس تعبدا، وإنما استجابة لقوانين العادة والطبيعة؛ حفاظا على سلامتهم الصحية، أو مكانتهم الاجتماعية، أو نحو هذا وذاك! وكل ذلك باطل في ميزان الله! إنما التوبة عبادةٌ محضة، إذا خلت من عمقها الإيماني بطلت! ولذلك عطف شرط الإيمان ههنا على شرط التوبة نفسها؛ على سبيل البيان والتعريف! وسواء كان مفهوم "الإيمان" هنا متعلقا بإيمان الدخول في الإسلام ابتداءً، أو كان متعلقا بالخروج من المعصية بالنسبة لعصاة المسلمين، بمعنى تجديد الإيمان، فهو في ضرورة استحضاره سواء! ولذلك - قال صلى الله عليه وسلم - في نص واضح في هذا: (لاَ يَزْنِي الزَّانِي حَينَ يَزْنِي وهو مُؤْمِنٌ! ولاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حينَ يَسْرِقُ وهو مُؤْمِنٌ! ولاَ يَشْرَبُ الخمرَ حينَ يَشْرَبُهَا وهو مُؤْمِنٌ! والتوبةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ!)([114]). فوجب لها تجديد الإيمان! وليس معناه أنه قد كفر بهذه الذنوب مطلقا، ولكن ضَعُفَ إيمانُه حتى لم يعد له من أثر على سلوكه! وأشبه أحوال الكفار في تمرده على الله! فلا بد له من عمران إيماني جديد، ينقله إلى أحوال الإيمان الحق!

وأما الخطوة الثالثة المذكورة نصا ههنا في الآيات موضوع مجلسنا هذا، فهي العمل الصالح. وهو بمواصفات معينة أيضا! قال تعالى: (وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً!) فقد جعل له مفعولا مطلقا؛ للدلالة على عمقه واستمراره واتصاله! وانقطاعه التام الكامل المطلق عن ماضيه، وانفصاله الكلي عنه! يستقذر الكفر والشرك والمعاصي بشتى أنواعها استقذاراً! ويتلذذ بالطاعة والعبادة تلذذا! فهو الآن إنسان آخر تماماً! إنه - بميزان الله - إنسان صالح ظاهرا وباطنا! فاستحق بذلك الدخول في رحمة الله الواسعة الفياضة، وفي كرمه وجوده العظيم، بما وصفنا في هذا المقام من خصوص: (إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً!) وكيف لا؟ وقد كان من العبد ما كان من الموبقات والذنوب، فغفرها الله له جميعا، جميعا! ثم، رفعه إلى أعلى مقام! فأي جود هذا وأي كرم؟ وأي رحمة وأي غفران؟ إنه الله رب العالمين، الرحمن الرحيم! فسبحانه وبحمده من ملك غفور رحيم!

وإن هذا لبابٌ عظيم! باب من أوسع أبواب الرحمة الإلهية! ولذلك فالشيطان يقف على طريقه، مترصدا بالتوابين والمقبلين! يلقي في خواطرهم وساوس التثبيط والتعجيز! إما تأجيلا للتوبة إلى حين، وإما تعجيزا عنها وتيئيسا من رحمة الله رب العالمين! ولذلك أعقب اللهُ سبحانه ذلك الوعدَ الكريم السابق، بآية أخرى توكيدية عجيبة حق عجيبة! تعتبر أصلا من أصول التربية الإيمانية في الإسلام، وقاعدة من أهم قواعدها الكبرى، وألا وهي المبادرة إلى التوبة قبل تدخل الشيطان! وجَعْلِ

---

[114] أخرجه مسلم.

قرارها النفسي مرتبطا بإنجازها العملي، دون أدنى أي فارق زمني بين القرار والتطبيق! بل بالمسارعة إلى الدخول في حصن العمل والتنفيذ والتحول الكلي حالا! فالزمن ليس في صالح الإنسان على كل حال، وفي هذه الحال على الخصوص! وهو ما يزال في برزخ بين الكفر والإيمان، أو مترددا بين الهدَى والضلال! وما تزال روائح الشر ونتونة المنكر تملأ قلبه! والقضية قضية مصير كوني أخروي! ولا فرصة لعيش اللحظة أي لحظة إلا مرة واحدة! فما يدريه أن تضيع منه حال اليقظة تلك، إلى غفلة لاحقة يغط معها في نوم عميق!؟ لا يستيقظ منه إلا على شفير القبر!؟

ذلك هو قوله تعالى بَعْدُ مباشرة: (وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً!) أي من قرر ذلك نيةً وعملا؛ فإنه ينطلق إليه بقوة وبسرعة! ويبادر الشيطانَ إلى باب الغفران مبادرةً تقطع خواطر الوساوس والتردد! فيتوب إلى الله متاباً! فأكد التوبة ههنا بالمصدر، ولم يؤكد العمل كما في الآية الأولى؛ لأن العمل هنا ما يزال في مرحلة برزخية، فاحتاج إلى مبادرة الانطلاق، وسرعة تنفيذ القرار؛ ومن هنا أكد التوبة بما هي عزيمة وجدانية، وهجرة روحية إلى الله تعالى! وجعل ذاته تعالى غايتها، فقال سبحانه: (فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً!) وهذا معنى آخر غير الذي في الآية الأولى. إنه متعلق ببيان كيفية التوبة وبمنهجية تطبيقها على المستوى النفسي خاصة! بما يضمن سلامتها من النقض والتردد! فله الحمد بما أكرمنا به من بيان لمسالك التوبة والغفران! وكل ذلك إنما هو من فيض رحمته جل علاه!

فماذا تنتظر بعد ذلك يا صاح؟ ماذا تنتظر؟ وها الزمن يتفلت من بين يديك! وها الشيطان لك بالمرصاد! والروح على وشك الغرق! والرحمن - جل جلاله - مِنْ عَلُ يناديك، ويمد لك أسباب النجاة! فعجباً لماذا لا تمد يدك؟!

3- الهدى المنهاجي:

وينقسم إلى خمس رسالات هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في أن محاربة النفسية الاستهلاكية بقوة! من أهم البراهين العملية والعلامات التصديقية، على حقيقة التحول الإيجابي للمؤمن، وعلى استيعابه لدروس القرآن، وتقدمه الفعلي في فصول مدرسة "عباد الرحمن". فثقافة الاستهلاك الشيطانية تزينها وسائل الإعلام العالمية اليوم للمسلمين، في إطار الحرب العولمية الكبرى على عالم المستهلكين، الذي يتشكل في معظمه من الشعوب الإسلامية بالدرجة الأولى! وإن ذلك التزيين الشيطاني لمن أخطر وسائل إبليس الاقتصادية والثقافية؛ لتدمير الدين والأخلاق في الأمة، ومن أكبر أسباب الانقطاع عن السير إلى الله! سواء لدى الأفراد أو لدى الجماعات! ولذلك جعل الله للإنفاق في الإسلام مقاييس

إيمانية خاصة، حدها بحد الحاجة الشرعية. وجعل ذلك من أهم خصائص "عباد الرحمن" في مقابل خصائص "إخوان الشيطان"! وهو الذي فسرته الآية الأخرى من سورة الإسراء، في قوله تعالى: (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً! إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ! وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً!)(الإسراء: 26-27). والمفسرون على أن ما أُنْفِقَ في طاعة الله ليس من التبذير، وإنما التبذير ما أُنْفِقَ على الشهوات والإسراف في المباحات! فقوله: (وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً) أي: بالإنفاق العابث على غير أولي القربى والمساكين وأبناء السبيل!

والغزو العولمي اليوم يرسخ في الذهنية الإسلامية العامة منطق الاستهلاك بدافع "الجديد" فقط! أي ما يسمى بـ"الموضة". وهذا من أخطر المصائد الاقتصادية الشيطانية، ومن أسوأ صور الاستهلاك المذموم في الإسلام! فاقتناء "الجديد" الذي لا حاجة لك به هو الإسراف الممنوع ذاته، والتبذير الشيطاني عينه! فالتزيين الاقتصادي في منطقه العولمي المعاصر، يعرض على الإنسان زيادةَ الخدمات فيما جَدَّ من تصنيع الآلات والمقتنيات بشتى أنواعها، ميكانيكية، وإلكترونية، ونسيجية، إلى غير ذلك من سائر المركوبات والملبوسات والمفروشات، وجميع الآلات والأدوات...إلخ. كل ذلك يعرضه لك السوق الشيطاني اليوم بما جد فيه من إغراءات الرفاهية الزائدة عن الحاجة! فيقع الشهوانيون في الفخ؛ بشراء الجديد والتخلص من القديم! مع أن ذلك القديم ما يزال في جِدَّتِهِ؛ لأن الجِدَّةَ في الحقيقة إنما هي الكفاية في الخدمة. وهذه ما تزال حاصلة في تلك السلعة التي عندك، ولا حاجة تدفعك إلى هذا الجديد الكاذب، إلا كونه "موضة" اللحظة! نعم، قد تكون فيه خدمات جديدة وكثيرة، لكن لا حاجة لك بها، ولا وظيفة لها عندك! فيكون شراؤها آنئذ من صميم التبذير الشيطاني، والإسراف الشهواني! وقد لقي عمر بن الخطاب – رضي الله عنه - أحد الناس يوما وهو يقلب دينارا بيده، فقال له: ما أنت فاعل بذلك الدينار؟ فقال الرجل: اشتهيت لحماً؛ فأريد أن أشتريه. فنطق عمر - رضي الله عنه - بحكمته الرفيعة، التي هي ترجمة لقاعدة من أهم قواعد الاستهلاك في الإسلام، قال: (أَكُلَّمَا اشْتَهَيْتُمْ اشْتَرَيْتُمْ؟) مفرقا بذلك بين منطق "الشهوة" ومنطق "الحاجة" في الاستهلاك والتدبير.

فالمنتسب لمدرسة "عباد الرحمن" إنما يشتري ما يشتري؛ بناء على منطق الحاجة الشرعية، مما هو سيوظفه فعلا في منافعه الدينية والعمرانية، المادية والمعنوية، من أكل وشرب ولباس وسكن، أو غير ذلك مما يحتاجه في مجال المهن والاختصاصات والتجارات والوظائف المختلفة، مما لا تقوم حاجته ولا تتيسر حياته إلا به.

وإنما وجب التنبيه إلى أن استعمالنا لمصطلح "الحاجة" هنا ليس بالمعنى الأصولي المقاصدي الدقيق للكلمة، وإنما هو بالمعنى الفطري العام، الذي يلبي

الحاجة الفطرية للإنسان، والذي يتضمن المراتب المقاصدية الثلاث: الضروريات والحاجيات والتحسينيات. فكل ذلك داخل في معنى "الحاجة الشرعية" بالمعنى الاقتصادي في الإسلام. وما تَجاوَزَهُ كان داخلا في معنى التشهي المذموم والتبذير الملعون! فالتحسينيات والجماليات مثلا، حاجة فطرية في الإنسان، لها قَدْرٌ مشروع، هو قدر الحاجة إلى الجمال التحسيني الذي فُطِرَ عليه الإنسان، فما جاوزه كان إسرافا. والثقافة العولمية اليوم تدمر مقاييس الفطرة في الإنسان؛ بأن توهمه بأنه في حاجة إلى كذا وكذا؛ بما تعرض عليه من إغراءات وخدمات زائدة، مما لا حاجة له فيه بالفعل! ولذلك فقد يشتري الإنسان ما لن يستعمله أبدا، أو ربما يستعمله لمرة واحدة أو مرتين، وهو إنما صُنِعَ أصلا للاستعمال اليومي! والأدهى من ذلك أن يكون لديه من هذا المقتنىَ مثلُه، مما لا يزال يلبي حاجته كاملة بلا نقصان! فيهدر منافعه هدرا! وهو أمر واقع في حايتنا اليومية كثيرا! وهذا هو الضلال عينه! وقد نزه الله عنه "عباد الرحمن".

- الرسالة الثانية:

في أن من علامات النجاح والتقدم في فصول مدرسة عباد الرحمن، الوصول إلى مرتبة استقذار الشرك والكفر وكبائر الذنوب وسائر المعاصي، استقذارا يجعل المؤمن في أمان من الوقوع فيها وحفظ من ملابستها! وهذا في الحقيقة مقام إيماني رفيع؛ لما له من تحويل الذوق الإنساني من ذوق بَهَمِيٍّ سقيم إلى ذوق إيماني سليم. وقد أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجَدَ حلاوةَ الإيمانِ: أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحَبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحِبَّ المرءَ لاَ يُحِبُّهُ إلاَّ لله، وأن يَكْرَهَ أن يَعُودَ في الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أن يُقْذَفَ في النَّارِ!)([115])

فانقياد الذوق لله لهو من أكبر علامات عمق الصلاح! ومن أهم العلامات فيما قطعه العبد السائر من المسافات إلى الله! ولذلك فمن ما زالت نفسه تشتهي الحرام وتتوق إليه، ولو لم يقترفه فهذا ما يزال مهددا بالمرض. وليس معناه أن المؤمن لا تتحرك نوازع الشهوة في نفسه، كلا طبعا! وإنما القصد أنه يستقذر صورها المحرمة، ولا تتوق نفسه إلا إلى حقائقها الطيبة المباحة، في المشرب والمطعم والمنكح، وغير هذا وذاك. وهو معنى من معاني قوله صلى الله عليه وسلم: (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ!)([116])

- الرسالة الثالثة:

---

[115] متفق عليه.

[116] قال ابن رجب الحنبلي: "حديث حسن صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح" جامع العلوم والحكم: 386. وقال ابن حجر في الفتح: "أخرجه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات. وقد صححه النووي في آخر الأربعين" فتح الباري: 289/13.

فـي عـدم المجازفـة والمغـامرة بـالترخص فـي انتهـاك المحرمـات الكبـرى؛ بتحليلٍ غير سليم! وأن على المؤمن الصادق أن يـتهم الفتـاوى الصـادرة بـذلك، وأن يقف منهـا موقـف الاحتيـاط الشـديد، خاصـة منهـا مـا تعلـق بالـدماء! فـإن بعـض مـن سلكوا طريـق الـدين قـديما وحـديثا، قـد اسـتدرجهم الشيطان إلـى ارتكـاب كبـائر مـن عظـائم الأمـور، قـتلا وتشـريدا، وانتهاكـا لحرمـات الله، ولأعـراض المسـلمين باسـم الدين! ومـا واقـع الأمـة الحـي بـين أيـدينا اليـوم ببعيـد! نـاهيك عـن تجربـة الخـوارج فـي التـاريخ القـديم، ومـا ورد فيهـا مـن أحاديـث نبويـة صـحيحة، حكمـت علـى صـلاحهم المزعـوم بالنـار والعيـاذ بـالله! منهـا مـا رواه أَبُـو سَـعِيدٍ الْخُدْرِيَّ – رضـي الله عنـه - قـال: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ - وَلَمْ يَقُلْ مِنْهَا - قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ! يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ، أَوْ حَنَاجِرَهُمْ! يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ!)[117].

فالحذَرَ الحذَرَ من فتاوى تتجرأ علـى أمهـات الكبـائر فـي الإسـلام! وتجـازف بهـدر دمـاء المسلمين تكفيراً لهم بغير حق! فتبوء بإثم عظيم وعذاب أليم! ولقـد نـص النبـي علـى حرمـة الـدم المسـلم فـي نصـوص شـتى، منهـا قولـه صـلى الله عليـه وسـلم: (لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا! الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا - وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ - بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ! كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ: حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ!))[118]

- **الرسالة الرابعة:**

في أن من علامات فقه المؤمن، وصحة معرفته بالله عدم الاغترار بالله، بمعنـى أنـه لا يأمن نفسَه أن تُبَدِّلَ وتُغَيِّر، وتنحـرف عـن طريـق الله! فـلا ثبـات إلا لمـن ثبتـه الله، ولا عصـمة إلا لمـن عصـمه الله، ولا حفـظ إلا لمـن حفظـه الله! ولا شـيء مـن الصلاح والهدى إلا بالله! ومن ظن أنه نَاجٍ بمجرد عملـه فقـد اغتـر بـالله! وكـان مـن أكبر الجهلة بربه جل علاه! وقد سبق حـديث رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم فـي أنـه: (لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ! قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ!)[119] ولذلك كان أكثر دعائه - عليـه الصـلاة والسـلام - وهـو من هو في مقام التقوى والورع: (يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ!" فقيلَ لَـهُ

---

117 متفق عليه.

118 متفق عليه.

119 متفق عليه.

فِي ذَلِكَ؟ قالَ: إنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إلاَّ وقَلْبُهُ بينَ إصْبُعَيْنِ مِنْ أصَابِعِ اللهِ، فَمَنْ شَاءَ أقَامَ ومَنْ شَاءَ أزَاغَ!)([120])

وهذا من كمال التوحيد والإخلاص، ومن تمام الافتقار إلى الله!

- الرسالة الخامسة:

في أن من صفات "عباد الرحمن" الشعور الدقيق بضآلة الزمن الأرضي! في سير العبد إلى الله، وتقدير العمر بمقداره القرآني! فلا طول للأعمار قط مهما ظهر أنها طالت؛ لأن العدد الفاني ينتهي بمجرد بداية عده! وكذلك العمر ينتهي بمجرد ولادة صاحبه! إذ يصير الإنسان في حياته الدنيوية إلى عد عكسي لا تصاعدي! لكنه يَعْمَى عن هذه الحقيقة؛ فيغتر بالحياة الدنيا - وإنما هي دنيا - ويلهيه طول الأمل! ولذلك كان عباد الرحمن من التَّوَّابِينَ المُسَارِعِينَ! يَتُوبُونَ إلى اللهِ مَتَاباً!

4- مسلك التخلق:

فأما المسلك العملي للتدرب على حياة الاقتصاد الإيماني، والتخلص من النفسية الاستهلاكية المدمرة، فهو راجع إلى منهج "التعاون"؛ وذلك بمعاشرة ثلة من الصالحين من أولي العزم، الذين يجتمعون على هذا الميثاق، ويتواصون به وبالصبر عليه! فالحياة الاجتماعية لها دور مهم جدا في إشاعة ثقافة الاقتصاد الإيجابية أو السلبية، على حسب طبيعة المجتمعين عليها. ثم ترفع راية الدعوة إلى هذا المعنى الإيماني العظيم في الإسلام، الذي أهمله - رغم خطورته - كثير من الدعاة اليوم! وإنه لمن أعظم معاني الجهاد الاقتصادي، لو كانوا يعلمون! له ما له من آثار تربوية تعبدية على الفرد والجماعة في الأمة، ثم له ما له من آثار على جبهة التدافع العولمي بين الأمة وأعدائها!

ثم لا بد لك - في خاصة نفسك يا صاح - أن تقوم بمراجعة حياتك الاقتصادية، فيما يتعلق بطريقة عيشك الخاص، لتراجع حاجاتك الحقيقية، تمحصها واحدة واحدة؛ حتى تميز بين حقها وباطلها. فَتُسْقِطَ من قائمةِ مشترياتِكَ الزوائدَ كلَّها، الواحدة تلو الأخرى، حتى تصفو نفقتك لله، بما يَفِي بحاجاتك المعاشية جميعا، ولا يضيع منها شَيْءٌ هَدْراً.

ثم لا بد من مداومة النظر في سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - في نفسه وأهله، ومشاهدة أحوال الصحابة رضي الله عنهم في مطعمهم ومشربهم وملبسهم؛ فإن ذلك من أكبر الزاد المعين على تحدي ثقافة الاستهلاك الغربية الغازية للبلاد والعباد.

---

[120] أخرجه الترمذي عن أم سلمة مرفوعا. وصححه الألباني في صحيح الجامع. وقد روي بطرق أخرى صحيحة عن غير واحد من الصحابة في كتب السنن.

وأما استقذار الذنوب كبائرها وصغائرها، فيكفي أن تواظب على مشاهدة نعم الله من الطيبات من الرزق، وتعيش حلاوتها متعبدا لله بها، فمن ذاق الحلال متعبدا لم يجد للحرام بعد ذلك في نفسه إلا البغض والاستقذار!

ثم تلزم الإكثار من التوبة والاستغفار! وتدخل في أورادهما صباح مساء. فذلك من أهم العواصم من موبقات الخطايا والذنوب! والاستغفار وقاية وعلاج. ما ينبغي لمؤمن أن يهمله أبداً! فهو زاد أساسي لا غنى عنه لراكب الطريق إلى الله.

ثم لا تنس - بعد هذا وذاك - خلوات التقويم والمحاسبة! فإن إهمالها من أخطر الثغرات المنهجية في بناء عمران الروح!

المجلس الخامس عشر
في مقام الانتساب إلى مدرسة "عباد الرحمن"
الفصل الثالث: في معارج التخرج

1- كلمات الابتلاء:

وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً (72) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً (74) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً (76) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً (77).

2- البيان العام:

هذا مَنْـزِلٌ من منازلِ الأتقياءِ الكُمَّلِ! غايةٌ في مقامات الجلال والجمال، ونهاية في مراتب الورع والكمال! غاية عزيزة غالية ولكنها ممكنة! وقد (كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ!)([121]) وإنما دونها مجاهداتٌ وطولُ مسير! ومن التزم جادة الطريق مستهديا بالله، غير متخذٍ سوى القرآن الكريم منهاجاً وَصَلَ إن شاء الله!

إنها إذن صفة من صفات أهل الله، الأولياء الأتقياء، والصِّدِّيقِينَ النُّجَبَاء! (وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً!) إنها البراءة التامة الكاملة من الزور! الزور بشتى معانيه، من كل صور الباطل وضروب المنكر قولا وفعلا! لا شهود له من لدن هذه الثلة المؤمنة! ليس بمعنى أنها لا تقترف شهادة الزور عند استشهادها فحسب، فهذا من بدهياتهم! بل إنها لا تحضر مواطنه أصلا، ولا تشهد نواديه وتجمعاته! فالشهادة هنا هي بمعنى الحضور والشهود والمعاينة والمخالطة، كما في قوله تعالى: (فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ!)(البقرة: 185). بمعنى مَنْ كان حاضراً عند دخول الشهر في بلده، ولم يكن مسافراً.

---

[121] متفق عليه.

فشهود الزور هنا: حضوره وملابسة مجالسه، ومصاحبة أهله وهم متلبسون به. والزور: جامع لكل ضروب الباطل، من شركيات وخرافيات، وكذب وبهتان، وفسق وفجور! فكل ذلك يقاطع عبادُ الرحمن مجالسَه مقاطعةً تامةً! بَلْهَ أن يشاركوا فيه بشهادة أو قول! فشهادة الزور القضائية هي من أعظم الموبقات! وقد صح قول النبي - صلى الله عليه وسلم – فيها لأصحابه، مما رواه الشيخان عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ. وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ! وَشَهَادَةُ الزُّورِ! أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ! فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ: لاَ يَسْكُتُ!)([122]) وفي رواية: (حتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ!)

وهذا المعنى داخل طبعا في مقتضى الآية من باب أولى! لكن سياق الدلالة قاض بعموم الأول، وهو نفي حضور الزور بإطلاق! وهو الذي رجحه ابن كثير رحمه الله؛ بدلالة ما بعده من قوله تعالى: (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً!) أي: وإذا اتفق مُرُورُهُمْ بهِ صُدْفَةً مَرُّوا كما يمر عابرُ السبيل، ولم يتدنسوا منه بشيء! لاَ الْتِفَاتاً، ولا نظراً، ولا وُقوفاً، ولا افْتِتَاناً، ولاَ مُشارَكةً! فكانوا كِرَاماً حقاً، على أعلى ما تكون منازلُ الكَرَمِ!

واللغو: كل كلام أو قول باطل! بدءاً بما كَبُرَ من ذلك وعَظُمَ، مما فيه الضرر على الدين، من تداول الشركيات والكفريات، وسائر التعابير المنكرات، إلى خوارم الأخلاق من عبارات البذاءة والفحش، إلى ما دَقَّ من ذلك، مما لا فائدة منه أصلا من عبث الكلام ولهوه الباطل! كل ذلك لغو. وقد ورد النهي الشديد عن حضور مجالس الكفر والفجور، مما يُسْخَرُ فيه بالدين أو يستهزأ فيه بالآيات! قال تعالى: (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ! إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ! إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً!)(النساء: 140). ويلحق به قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ!)(لقمان: 6).

ويَدِقُّ النهي عن ملابسة اللغو واللهو إلى درجة التنبيه على التنزه عن كل ما لا فائدة فيه من القول أو الكلام أو اللعب! فعن عطاء بن أبي رباح قال: (رأيت جابر بن عبد الله، وجابر بن عمير الأنصاري يرميان، فمَلَّ أحدُهما فجلس، فقال له الآخر: كسلت؟! سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كُلُّ شيءٍ ليسَ مِنْ ذِكْرِ الله - عز وجل - فهو لَهْوٌ، أو سَهْوٌ! إلاَّ أربعَ خصالٍ: مَشْيُ الرَّجُلِ بين

---

[122] متفق عليه.

الغَرَضَيْنِ، وتأديبُه فرسَه، وملاعبتُه أهلَه، وتعليمُ السِّباحَةِ!")[123] وقد أخذ منه الصحابي الجليل معنى الرماية قياسا؛ فيدخل فيه كل لهو قاصد، أو رياضة هادفة، أو غير ذلك مما يرجى له نفع مشروع.

وأما ما تحقق ضرره من القول فهو الزور عينه! وأما ما لا فائدة فيه منه فهو اللغو! وعباد الرحمن منزهون – بما أكرمهم الله به من جلال وجمال - عن كل ذلك! لا يشهدونه ولا يلتفتون إليه ولا يأبهون به! بل إذا مروا به مروا كراما! اللهم إلا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، مدافعين عن حدود الله. فيصير شهودهم لذلك إذن ضربا من ضروب الجهاد بالقرآن! فَلِلَّهِ دَرُّهُمْ!

ولكن؛ أليس للإنسان - مهما كان - سهوات وغفلات؟ وكيف لا؟ وها (كُلُّ بَنِي آدمَ خَطَّاءٌ وخيرُ الخطَّائِينَ التَّوَّابُونَ!)[124] ولذلك أورد الله - جل جلاله – مشهدا عجيبا لهم، وهو في بيان حال رجوعهم إلى الله كيف يكون؟ أي عند لحظات الضعف الآدمية كلما اعترتهم. لكنها لحظات تَعْبُرُ ولا تقيم، وتُلِمُّ ولا تدوم! تمر كما تمر الخواطر والأشباح في مخيلة الإنسان، فإذا صادفت فترةً أو غفلةً ألهبتْ بسوطها عينَه أو سمعه أو لسانه، أو يده! فإذا به يستيقظ تَوّاً على لسعها! فيبادر إلى ربه مستغفرا تائبا! وبذلك لا يمسهم من فتنة الشيطان إلا اللَّمَمُ! وهو صغائر الذنوب وهَنَاتُ القلوب. كما قال الله في حق المحسنين من المؤمنين، في سورة النجم: (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ! إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ!)(النجم: 32).

فلا يكون ذلك كله بالنسبة لعباد الرحمن ههنا، إلا فرصة للعودة السريعة إلى الله، على أجمل ما يكون العود، وألطف ما يكون الأوب! فكان مشهد تذكرهم وتذللهم بين يدي ربهم، من أجمل مشاهد الذكرى وأجلها! ومن أوقعها على القلوب العارفة بالله جل علاه! وأنه لمقام وأي مقام! فتدبر هذا ثم أبصر: (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً!) الله أكبر! إحالة عجيبة ومقابلة لطيفة بين حال الكفار في سجودهم وركوعهم لآلهتهم، في عبادة جاهلية مظلمة، صَمَّاءَ بَكْمَاءَ عَمْيَاءَ! لا عقل لها ولا سمع ولا إبصار! عَمَى في عَمَى، وضَلال في ضلال! وبين هؤلاء المؤمنين الربانيين في سجودهم وركوعهم لربهم الرحمن، بما لهم من معرفة بالله الحي القيوم! (الرَّحْمَنُ! فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً!) قد ملأت قلوبَهم معرفةُ الله، وانبهروا بجماله جل علاه، وخضعوا لسلطانه العظيم، فلا تملك القلوبُ بين يديه تعالى إلا تقديم مواجيد الرغب والرهب! وعيا منها بمقامه العظيم! وعي

---

[123] قال المنذري في الترغيب: رواه الطبراني في الكبير بإسناد جيد. وصححه الألباني في تعليقه عليه. ن. صحيح الترغيب.

[124] أخرجه أحمد والترمذي، وابن ماجه، والحاكم عن أنس مرفوعا. وحسنه الألباني. حديث رقم: 4515 في صحيح الجامع.

علـى أتـم مـا يكـون الـوعي، وعـي يملـؤه السـمع والبصـر، ويـزوده القلـب بالشـوق، وتنيره الروح بمشاهد الجلال والجمال، ليجتمع ذلك كله سجودا بين يدي الرحمن! فأكرم به وأعظم من مقام! كذلك قال الملك الكريم – في موطن آخر - في وصف المُذكَّرِينَ بآيات الرحمن من الأنبياء والصِّدِّقِينَ: (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً!)(مريم: 58). هكذا يخر عباد الرحمن لربهم، كلما وقعت الذكرى بقلوبهم! يخرون كما تخر الجبال الرواس إذا ازَّلْزَلَتْ الأرضُ من تحتها وانهارت من أعلاها! خشوعا وخضوعا لله الواحد القهار! فلا يملك العباد عند ذلك إلا البكاء! البكاء الحار العميق؛ لِمَا وقع في مواجيدهم من المعرفة بِقَدْرِ الله العظيم وبمقامه العلي الكريم! ولِمَا تنـثره أسماؤه الحسنى على قلوبهم المتضرعة من أنوار التسبيح وجمال التقديس! وما يقتضيه ذلك كله من المشاهدة لحقوق الله - جل وعلا - على عباده! فيهرع العبدُ إلى منازلِ البَوْءِ بالنعمة والبَوْءِ بالذنب معاً، تائباً منيباً، تسبقه دموعُه إلى حدائق السجود! ومن ذا قدير على حبس عيون الروح أن تتدفق بأشجان الذكرى؟! إلا من كانوا صُمّاً بُكْماً عُمْياً فهم لا يفقهون!

أما عباد الرحمن فقد عرفتَ احتياطهم وورعهم، وقد عرفتَ توبتهم وإنابتهم! وقد شاهدتَ ما شاهدتَ من أنوراهم وأسرارهم، وما يكابدونه من مجاهداتٍ في أنفسهم وفيما حولهم، سيرا إلى ربهم على طريق الآخرة، لا اختلاف ولا التفات، سيرا واحدا راشدا. تلك هي الطريق لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا!

لقد اتبعوها صادقين، كما رسمها لهم الله في كتابه، وسلكوها متفقهين، كما بيَّنَها لهم رسول الله عملاً بسنته. فما بقي إلا أن يرسموها هم أيضا لِخَلَفِهِمْ تربيةً ودعوةً ووصيةً تخلفهم بالعمل الصالح، والأثر الطيب، ذِكْراً بالخير، ودعاءً بالرحمات والغفران، أجراً لا ينقطع إلى يوم القيامة! ولذلك كان من تمام النعمة عليهم أن ختم الله لهم مَدَارِجَهُم العالية؛ طَبْعاً على شهادة تخرجهم من مدرستهم الرفيعة، بهذا الدعاء الحكيم الكريم: (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً!)

وهو دعاء مركب من أمرين عظيمين في الإسلام!

- الأمر الأولى: صلاح الأسرة. والأسرة هي ضمان استمرار الدين في المجتمع! ولذلك فقد أولاها القرآن الكريم الحظ الأوفر والمساحة الأوسع من تشريعاته، تفصيلا وتبيينا لأدق أحكامها؛ بما لم يفصله في غيرها من أصول الإسلام وأركانه! وبينت السنة من ذلك تفاصيل أخرى ودقائق وحِكَماً؛ بما لم يكد يدع مجالا للاجتهاد! لما له تعالى من علم - وهو العليم الخبير – من أن سلامة الأسرة يعني سلامة مستقبل الإسلام والمسلمين، وأن خرابها يعني خراب كل ذلك جميعا! ولذلك كان الدعاء بهذه الصيغة الإيمانية الجميلة: (رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ!) هكذا: "رَبَّنَا هَبْ لَنَا!" لأنها نعمة من النعم الكبرى؛ فلا تكون

إلا هِبَةً من الرب الكريم! فمهما بذل الأبوان من جهد واجتهاد في التوجيه والتربية – وواجب عليهما أن يبذلا - فإن الأمر بعد ذلك وقبله بيد الله! لأن صلاح القلوب وفسادها - في نهاية المطاف - إنما هو بيد الله وحده! والقضية قضية هدى! وقد سبق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله: (إنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إلاَّ وقَلْبُهُ بينَ إصْبُعَيْنِ مِنْ أصَابِعِ اللهِ، فَمَنْ شَاءَ أقَامَ ومَنْ شَاءَ أزَاغَ!)([125])

وكمال العطية وتمام المنة وجمال الهبة في هذا، أن يجعل الله للمؤمن من كامل الأسرة أزواجاً وذريةً "قُرَّةَ أعْيُنٍ"! لأن انخرام البنيان الأسري من داخله بانحراف أي عنصر من عناصره مؤد إلى انخرام الكل، أو على الأقل إلى اضطراب تناسق البنيان؛ بما يجعل ثمرته الإيمانية في المجتمع ناقصة عن أداء دورها الرسالي، وعاجزة عن تعقيب الدين وتوريثه دعوةً وإصلاحا في الأجيال! ولذلك كان الدعاء شاملا بأن تكون الأسرة كلها بكامل تركيبتها وبجميع عناصرها "قُرَّةَ أعْيُنٍ"! أي: تَقَرُّ العين وتطمئن إلى أحوالهم الإيمانية؛ بما تشاهده فيهم من صلاح الدين وجمال الإيمان، توحيدا لله وعبادة له، وتمسكا بالإرث الإيماني الذي عليه الأبوان. الإرث الإيماني العالي الرفيع الذي تلقاه هؤلاء الآباء في مدرسة عباد الرحمن، وتخرجوا به وعليه. هكذا في أعلى منازله يورثونه للأبناء والحفدة! ذريةً بعضها من بعض!

- والأمر الثاني: إمامة المتقين!

وهذا هو ختم شهادة التخرج! (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إمَاماً!) وإنه والله لختم عظيم! فإنه لا يكون إلا للكُمَّلِ المُتمِّينَ، وللنَّاجِحينَ السَّابقين الأولين! وإنه لم يكن على مستوى النبوة – أي بمعنى الإمامة النبوية - إلا لبعض الأنبياء والرسل، من أولي العزم! وعلى رأسهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، سيد الأولين والآخرين، الذي تَوَّجَهُ الله بإمامة الأنبياء والمرسلين بَلْهَ عموم المتقين! ولم ينلها سيدنا إبراهيم – عليه الصلاة والسلام - إلا بعد إتمامه ما ابْتُلِيَ به من كلماتٍ إتماما! قال تعالى: (وَإذِ ابْتَلَى إبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأتَمَّهُنَّ قَالَ إنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَاماً! قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِيَ الظَّالِمِينَ!)(البقرة: 124). فقوله: (إنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَاماً) إنما هو جزاء على ما أخبر به تعالى عن إبراهيم من أنه إذ ابتلاه بالكلمات أتمهن! وجاء فيهن بكمال النجاح! بدءاً بما ابتلاه به من البحث عن الحقيقة نظراً في النجوم، ثم ما ابتلاه به من تحطيم أصنام الطغاة! ثم ابتلاؤه بإلقاء الكفار له في النار! ثم ابتلاؤه بترك زوجه وطفلها الرضيع بوادٍ غير ذي زرع في مهالك الصحراء! ثم ابتلاؤه الرهيب بذبح ابنه إسماعيل!..إلخ. كل ذلك جميعا كان سيدنا إبراهيم – عليه السلام - فيه على أتم ما يكون الفوز والتوفيق! بما لا يستطيعه إلا خُلَّصُ الكُمَّلِ من أولي العزم من الرُّسُلِ! فمن ذا قدير على اقتحام مثل هذه العقبات الجسام بلا تَلَكُّؤٍ

---

[125] أخرجه الترمذي عن أم سلمة مرفوعا. وصححه الألباني في صحيح الجامع. وقد روي بطرق أخرى صحيحة عن غير واحد من الصحابة في كتب السنن.

ولا تردد؟ ولذلك لما سأل إبراهيمُ "الإمامة" لذريته أيضا قال له تعالى: (لاَ يَنَالُ عَهْدِيَ الظَّالِمِينَ!) إنها مشروطة بشروطها! إنها للأوفياءِ المُوَفِّينَ فقط! وهو قوله تعالى في موطن آخر: (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى!)(النجم:37).

فإنما الإمامة كمالٌ! ولا كمالَ إلا بتمامِ النجاح بأعلى درجات الامتياز! كذلك هي في النبوة. وكذلك هي في الدعوة والداعية، لكن على المستوى البشري الاجتهادي النسبي! فهو كمال دون كمال النبوة طبعا. ولكنه سَيْرٌ على أثرها، والتزام بنهجها، تدرجا بمراتب الصِّدِّيقِينَ، وتخرجا من مدرسة رب العالمين، بما جعله لمنازل "عباد الرحمن"، من نجاح تام وصلاح كامل! وهو متاح لمن وهبه الله إياه! وقد (كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ)([126]) كما سبق تقريره في الحديث النبوي الصحيح.

تلك "إمامة المتقين" وهو معنى مصطلح "الداعية"، الذي كثيرا ما نستعمله اليوم على غير وجهه الحقيقي السليم! وإن العبد لو ينال شرف هذا المقام حقا، ويفوز بهذه الصفة الربانية صدقا، ليكونن إذن من السابقين الأولين! ولك أن تتدبر إن شئت حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الواضح الصريح في هذه الوظفية الغالية! لترى فرق ما بين الحقيقة الناقصة في واقعنا، وما بين المثال الكامل! قال عليه الصلاة والسلام: (إنَّ العَالِمَ ليستغفر له مَنْ في السموات ومن في الأرض! والحيتان في جوف الماء! وإنَّ فَضْلَ العَالِمِ على العَابِدِ كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب!)([127]) الله أكبر! فأي عَالِمٍ هذا وأي إمام؟ ألاَ إنما العالِمُ هنا هو الحائز على إمامة العلم والدعوة! كما بيناه في موضعه([128]). وكما يبينه – بصورة كافية شافية - هذا الحديث النبوي الآخر! وهو قوله صلى الله عليه وسلم: (فَضْلُ العَالِمِ على العابدِ كفضلي على أدناكم! إن الله عز وجل، وملائكتَه، وأهلَ السموات والأرض، حتى النملة في جُحْرِهَا! وحتى الحوت! لَيُصَلُّونَ على مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ!)([129]) فتأمل عُلُوَّ الفرق وبُعْدَ المسافة في قوله صلى الله عليه وسلم: (فَضْلُ العَالِمِ على العابدِ كفضلي على أدناكم!) إنها الصِّدِّيقِيَّةُ إذن! وإنما كان ذلك لصاحب هذا المقام؛ بما أخلص لله وخَلُصَ له! فدَعَا إليه بمقامه هذا وأرْشَدَ وعَلَّمَ! وإنه لمنزلٌ عزيزٌ جد عزيز! وقد صحت عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه

---

[126] متفق عليه.

[127] أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة وابن حبان، عن أبي الدرداء مرفوعا. وصححه الألباني: حديث رقم : 6297 في صحيح الجامع.

[128] ن. "مفهوم العَالِمِيَّةِ" للمؤلف.

[129] أخرجه الترمذي عن أبي أمامة مرفوعا. وصححه الألباني، حديث رقم: 4213 في صحيح الجامع.

- حِكْمَةٌ ذهبيةٌ في هذا، قال: (الْمُتَّقُونَ سَادَةٌ، والفُقَهَاءُ قَادَةٌ، ومُجَالَسَتُهُمْ زِيَادَةٌ!)([130])
فكيف إذا تعلق الأمر بسَادَةِ السَّادَةِ؟! وهم "أئمة المتقين"! أليس ذلك إذن هو غاية المثال وتمام الكمال؟ بلى والله! وإنه لا يكون إلا فضلا من الله ونعمة! ولا يحصل لصاحبه – مع كده واجتهاده - إلا بِعَطَاءٍ رَبَّانِيٍّ وَهِبَةٍ منه تعالى!

ذلك شعاع واحد من أنوار هذا الدعاء الرباني، الخاتم لهذه الرحلة الرحمانية العظيمة! فانظر ما جمع الله فيه من الخير العظيم! الخير الذي لا ينقطع فضلُه ولا تَبِيدُ بَرَكَتُهُ! وليس عبثا أن مدح الله به "عباد الرحمن" بما أتموا من مجاهدات، وبما أكملوا من عبادات، وبما حققوا من نجاحات؛ فكانوا أئمةً في الدين والدعوة جميعا! فلم يزالوا يقولون: (رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً!)

فَأَعْظِمْ بِهِ من دعاء! وأَكْرِمْ به من عطاء!

أما الآن؛ فهذا وعد الله بمقام الجِنَانِ، ووعيده بمصير النيران! خاتمة عامة لهذه السورة العظيمة! خطابا للفريقين: من هؤلاء السادة القادة، ومن أولئك الطغاة المَرَدَةِ!

(أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً. خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً! قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً!)

" أُولَئِكَ! " هكذا خاطبهم باسم الإشارة الدال على البعد، والمفيد – في هذا السياق - لمعاني العلو والرفعة! جوابا على الابتداء الواقع في قوله تعالى من بداية السياق: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً..) الآية، فلما حققوا ما حققوا من كمال الفوز، وأحرزوا ما أحرزوا من تمام النجاح، فيما تعرضوا له من ابتلاءات، قال تعالى: (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً!)

والغرفة منزلة عالية، عالية جدا، من منازل الجنان! فلو تدري ياصاح ما منازل "أهل الغُرَفِ"؟ ولو تدري ما معنى علوها؟ استمع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقربها لك تقريباً، ولكن بهذا المثال! قال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ أَهْلَ الجنةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ في الأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أو الْمَغْرِبِ؛ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُم!)([131]) الله أكبر!.. هناك بذلك المقام العالي من الجنة الواسعة العريضة.. تتلقى الملائكةُ المضيفةُ عبادَ الرحمن

---

[130] رواه الطبراني في الكبير. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله موثقون. كما رواه ابن النجار عن أنس رضي الله عنه بلفظ: (العلماء) بدل (الفقهاء). وقال العجلوني في كشف الخفاء: رجاله ثقات. كما روى نحوه الديلمي عن علي رضي الله عنه.

[131] متفق عليه.

بتحيات السلام، أنواراً من جمال السكينة، وأنداءً من أريج المحبة، تملأ الجوانحَ متعةً لا تفنى لذائذُها في مواجيد الروح أبداً! (وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً. خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً!) خلودا ممتدا إلى الأبد بتلك المتع كلها! وبتلك النعم كلها! على أحسن ما يكون الاستقرار وأجمل ما يكون المُقَام! وإنه لمشهدٌ لا يملك القلب منه إلا الشوق إلى رضوان الله وفضله! وإلا فما للخيال إلى تصور جماله الخارق من سبيل!

أوَ تدري أي منـزل هذا وأي مَقام؟

إنه "مَقَامُ الصَّبْرِ" يا صاح! فكل ذلك الفوز العظيم، وكل ذلك النجاح الكبير، عبر تلك الأشواط الشاقة، وعبر تلك المسافات الطويلة! إنما كان لهؤلاء السادة الكبار (بِمَا صَبَرُوا!) نعم، بما صَبَرُوا!.. فليست فصول مدرسة "عباد الرحمن" بالأمر الذي يصبر عليه ضعفاء العزائم، ممن لم يقطع بَعْدُ صلتَه بأهل التراب، وبشهوات التراب، ورغائب التراب! لا قدرة لجناح الروح على الطيران العالي؛ مَا عَلِقَتْ بريشه أطْيَانُ الذنوب ووَحَلُ الخطايا والآثام! وهو ما تنـزه عنه عباد الرحمن، وتخلصوا من أدرانه وأثقاله؛ عندما دخلوا تحت شلالات مدارس عباد الرحمن، بكاءً بالليل ودعوةً بالنهار! فنالوا ما نالوا من مقامات التوبة والغفران! وأحرزوا ما أحرزوا من منازل الرحمة والرضوان!

فيا قلبي المغرور! إن الإمامة ابتلاء! وإن الابتلاء صبر واصطبار..! فهل كنتَ فعلا من الصابرين؟

الصبر! تلك هي القضية وتلك هي خلاصة السورة كلها! كلمةً كلمةً، وابتلاءً ابتلاءً!

وأخيراً..

جاءت الكلمةُ الخاتمة في هذه السورة، بيانا نهائيا موجها إلى البشرية جمعاء! ليختم سبحانه السورة بما بدأها به! نذارةً شاملةً للعالمين وبلاغاً عاما للناس أجميعن! (قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ! فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً!) لكنه عموم يتبعه خصوص. عموم للناس نذارةً وبياناً، وخصوص لمن كذَّب منهم وعيداً بالعذاب اللازم الحتم. فهو تعالى في الخطاب العام يقرر أنه ما خلق البشرية إلا لعبادته. فلا معنى لوجودها أصلا إلا هذا! وهو معنى قوله تعالى: (قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ!) أي قل للناس أجمعين – أيها الرسول المبلغ نذارةَ الرحمن – إن الله لا يكترث بكم ولا يحفل بكم إن أنتم لم تؤدوا الوظيفة التي خلقكم من أجلها، وهي التوجه إليه تعالى بالتوحيد والإخلاص، إيماناً وعملاً، وذلك حقه العظيم عليكم! وعبَّر سبحانه عن ذلك بـ"الدعاء"، وفيه من الدلالة اللطيفة أن المستفيد من الإيمان والعبادة - في نهاية المطاف - إنما هو أنتم! أنتم الذين في حاجة إليه؛ فتدعونه رغباً ورهباً. وإنما الفقير ذو الحاجة هو الذي يدعو. وذلك هو مخ العبادة:

التذلل والافتقار إلى الله! وكل الدين إنما يدور حول هذا المعنى. أما هو سبحانه فهو الغني الحميد.

فما قيمةُ عَبْدٍ شَرَدَ خارجَ مَدَارِهِ الطبيعي، الذي خُلِقَ من أجل الدوران فيه، فجعل يصطدم بالنظام الكوني كله، إفسادا وتخريبا؛ إذْ ضل عن فَلَكِهِ الحكيم!؟ ما قيمتُهُ بعد ذلك إلا أن يُطرد من هذا المدار بالإهلاك والتتبير! ولذلك كانت العبارةُ الأخيرةُ التفاتةً ترهيبيةً من جلال الله العظيم! ألقاها الملك الجبار وعيداً شديداً إلى الكفرة المردة، دون أي تسمية لهم ولا تكنية، لا باسم صريح، ولا باسم إشارة! وإنما أهملهم إهمالا، وأذلهم إذلالا! فجعلها كلمةً واحدةً! وحُكْماً نهائيا واحداً: (فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً!) أي: أما أنتم - أيها المكذبون - فقد استوجبتم الهلاك والعذاب لزوما؛ بما تمردتم على حقوق الله جل وعلا، وعلى سلطانه العظيم!([132])

ذلك هو "الفرقان" الذي جاءت هذه السورة بأجمعها تحمله: نذير واقع من السماء بالحق! ثم صراع ناشئ في الأرض بينه وبين الباطل! ينتهي دائما بالفصل الفرقاني ما بين فريقين، وما بين نموذجين، وما بين طريقين، وما بين مدرستين، وما بين مصيرين! ببيانٍ شافٍ كافٍ، يحمل من النذارة للعالمين ما لو تدبره الإنسان واستثمره توبةً نصوحاً، لجعل اللهُ له نوراً يمشي به، وفُرْقَاناً يَتَبَصَّرُ بِهِ!

ذلك، وإنما الموفَّقُ مَنْ وَفَّقَهُ الله، ولاَ حَوْلَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ بالله.

3- الهدى المنهاجي:

وينقسم إلى خمس رسالات هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في ضرورة مقاطعة مجالس المنكر ونواديه، وسائر القنوات الإعلامية التي تصنع الزور وتنتج اللغو، وتُسَوِّقُ الباطل! واستصحاب قوله تعالى: (وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً!) خُلُقاً راسخاً في النفس على كل حال! فهو من أهم ما يعصم المؤمن من الوقوع الساهي في شباك الإعلام المضلل، ومن الانجذاب إلى صوره الكاذبة، وتخييلاته السحرية! فالنجاح في إتمام كلمات هذا الابتلاء القرآني يجعل عبد الله على يقظة روحية مستمرة، ووعي نقدي دائم. ثم إن الفشل فيه إنما هو فشل في الانتساب إلى مدرسة "عباد الرحمن"، الذين اشتغلوا بالله، وانصرفوا عما سواه، فلم يكونوا إلا به وله!

- الرسالة الثانية:

---

132 جعل الإمام البقاعي: الضمير في قوله تعالى: (قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم) يعود على الكفار. فقال رحمه الله مفسرا: أي: ((ما يعتد بكم شيئا من الاعتداد لولا دعاؤكم إياه وقت الشدائد، فهو يعتد بكم لأجله نوع اعتداد، وهو المدة التي ضربها لكم في الدنيا لا غيرها، بسبب أنكم قد كذبتم!) ن. نظم الدرر. وقال الشوكاني: (والخطاب لجميع الناس، ثم خص الكفار منهم فقال: "فقد كذبتم") فتح القدير: 131/4.

في أن التذكر الدائم بالقرآن تلاوةً ومدارسةً، لهو من أهم الوسائل الأساسية؛ لدحض ما خلفته وسائل الإعلام في النفس من وساوس وشبهات، وعلاج ما تركته مخالبها على جدران القلب من أمراض وجراحات! ذلك أن كلمات الإعلام السحرية وصوره الشيطانية، ورسائله الفيروسية، ولو مما وقع بالعين أو بالسمع صدفةً، أو اتفاقاً، أو عبوراً، هو وَسَخٌ يقع بالنفس الإنسانية! فإذا لم يتداركه المؤمن بالغسل والتطهير خُشِيَ عليه أن تتوالد جراثيمُه في القلب! ثم تتناسل خَطْرَةً، فَفِكْرَةً، فَسُلُوكاً منحرفا وسقوطا! والعياذ بالله!

والقرآن بما جعل الله فيه من أسرار وأذكار - مما بينا قبل – كفيلٌ وحده بتحصيل الذكر للمؤمن، كلما تلاه بحقه الفرقاني أو تدارسه بمنهاجه الرحماني. فلا يمكن إلا أن يخر على مواقع الذكرى بكل جوارحه ومواجده، خاشعا لله، تائبا له. وإن ذلك لمن أكبر بركات القرآن الكريم. فلا تغبن نفسك بإهماله يا صاح! وأنت تعيش زمن الفتن بشتى ضروبها! وإنما فرقانية القرآن هي خلاصك الوحيد من لهيبها!

- الرسالة الثالثة:

في الاشتغال الدعوي ببناء الأسرة المسلمة وحفظ هويتها، وإعطائها الأولوية في تجديد الدين على المستوى الاجتماعي. ومعلوم ما يبذله الغرب اليوم من مجهودات جبارة في سبيل تحريف مسار الأسرة المسلمة، وتدمير خصوصياتها الحضارية، وانتمائها الإسلامي، بما يجعلها قابلة للابتلاع العولمي الاستعماري المتوحش، والمدمر للبلاد والعباد!

فالعمل الأسري اليوم على مستوى الدعوة والإصلاح يعتبر من أهم المواقع الجهادية بمفاهيم القرآن وكلماته! فذلك حصن الأمة الأعظم اليوم لو ينهار في موطن ما - لا قدر الله – فلن تبقى للمسلمين في ذلك الموطن بقية! فما أعظم أن يشتغل الدعاة والعاملون في الصف الإسلامي ببناء مجالس القرآن الأسرية! وإن في ذلك ما فيه من الضمان والأمان للأسرة، والتجديد لنسيجها العمراني على موازين القرآن؛ بما يحفظها محميةً محصنةً، ويجعلها أقوى من أن تدمرها وسائل الإعلام؛ أو تخرقها قيم الغرب، وأفكاره المدمرة للنسيج الاجتماعي ولسائر القيم والأخلاق!

- الرسالة الرابعة:

في ضرورة تكثير نماذج القيادات العلمية الصادقة، من أهل "الإمامة الدعوية"، واختيار معادنها الرفيعة، وبثها في الأمة. ذلك أن من أهم الوسائل المنهاجية لتجديد الدين في البلاد، تخريج أعداد وفيرة من "أئمة التقوى". فهم وُرَّاثُ الأنبياء، وهم المعلِّمُون الربانيون، وهم الأقوياء الأمناء. وإن الواحد منهم بمائة ألف من غيرهم! فالرهان على إنتاج هذه العبقريات الإيمانية يعتبر من صلب المنهاج

القرآني، في الدعوة إلى الله وتجديد الدين في الأمة! وإن عدم الانتباه إلى ذلك أو إهماله لهو من أهم أسباب الفشل والانحراف عن المنهاج الفطري السليم، ديناً ودعوةً!

- الرسالة الخامسة:

في أن الاشتغال بأداء حقوق الله ورعايتها عبادةً ودعوةً، هو صمام الأمان للنجاة في الدنيا والآخرة. وإن سلامة السير الإيماني والدعوي رهينة برضى الله - عز وجل - على السائرين! وتلك هي خلاصة الخلاصة، من كل ابتلاءات هذه السورة، مقدماتٍ ونتائجَ! ولا تنس كلمة الله الخاتمة: (قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ!) وتَلَقَّ فرقانَها كاملا؛ بمداومة مشاهدة أحوال الجهة الأخرى: (فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً!) ففي تجديد التلقي تجديدٌ لعزائم الروح!

4- مسلك التخلق:

ومسلك التخلق بثمار هذا المجلس الكريم راجع إلى الاستعانة بالتزام عملين اثنين:

- الأول: عَدَمُ الْمُشَاحَّةِ على حدود التقوى. وذلك بالتحرز من الاحتكاك بأطراف المباحات مما يلي مناطق الحرام، وإن لم يكن منها. وهو معنى "الورع". والورع مقام إيماني عظيم، معناه: ترك ما لا بأس به خشية الوقوع فيما به بأس! وهو أصل الاحتياط للدين والاستبراء له، الذي أوصى به سيد المرسلين، عليه الصلاة والسلام. فقد ورد في الحديث الصحيح عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ - رضي الله عنه - قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: - وَأَهْوَى النُّعْمَانُ بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ – (إِنَّ الْحَلاَلَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ! وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ! فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ! كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ! أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ! أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ! وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ! أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ!)([133]) وذلك هو بيان معنى الورع. وهو خير الدين، على ما ورد في السنة الصحيحة، من قوله صلى الله عليه وسلم: (وَخَيْرُ دِينِكُمُ الوَرَعُ!)([134])

فهذا الاحتياط من أهم المسالك العملية، التي تخرج المؤمن من فتنة الجدل العقيم في التزام التروك، ومجانبة مواردها القريبة منها؛ ما يؤهله للدخول بيسر في التنفيذ العملي لدروس "عباد الرحمن" من ترك اللغو والعبث.

---

[133] متفق عليه.

[134] أخرجه البزار، والطبراني في الأوسط، والحاكم عن حذيفة، كما أخرجه الحاكم أيضا عن سعد. وصححه الألباني. حديث رقم : 4214 في صحيح الجامع.

- الثاني: التزام أوراد الدعاء الخالص أبداً، والتوجه الصادق به إلى الله، في ختم كل عمل؛ لما في ذلك من التبرء التام من الحول والقوة، ولما فيه من تحقيق الافتقار الكامل إلى الله، ما يجعل المؤمن ثابتا على مقام التوحيد الخالص! وما يستجلب ولاية الله له، ومباركته تعالى لمسلكه وعمله. وكفى بذلك ضمانا للفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

خاتمة في التقويم العام

وأخيرا يا صاح! هذه هي سورة "الفرقان" الآن بين يديك.. فإمَّا أنْ تكونَ قد تَلَقَّيْتَ كلماتِها تلاوةً ومدارسةً وتزكيةً، ونَزَّلْتَ رسالاتِها على نفسك، رسالةً رسالةً؛ فإنك إذن قد تَلَقَّيْتَ من الله – إن شاء الله – فُرْقَاناً! فاللهُ - جلَّ جلالُه - لا يُخلف وعده أبداً! وإن الربَّ لَشَكُور! (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً!)(الأنفال: 29)

وفرقانية هذه السورة العظيمة "إمامة" على مستوى خِرِّيجي مدرسة عباد الرحمن! إمَامَةٌ تجعل بين ماضيك وبين حاضرك فرقانا! وتجعل بينك وبين الكفر والفسوق والعصيان فرقانا! وتجعل بينك وبين الظلمات فرقانا! وتجعل بينك وبين مَوَاطِنِ الزور واللغو والعبث فرقانا! وتجعل بينك وبين العجز والكسل فرقانا!

إن فرقانية هذه السورة تجعل منك عبداً من "عباد الرحمن" ينطلق بكلمات الله في الآفاق، ينشر النور، ويؤسس للقرآن مجالسَ ملائكية الحضور، ويجاهد بالقرآن أشباحَ الظلام! ومفاهيمَ الظلام، وأخلاقَ الظلام! سَنَدُهُ في ذلك ولايةُ الله، وزاده اليقين في نصرته جل علاه، وغايته الوصول إلى جمال رضاه!

فإن لم تجد شيئا من ذلك يا صاح، فقطعاً قد غششتَ نفسَك في مرحلة من مراحل الطريق! فأَعِدِ الدَّرْسَ من البداية! ولا يأس من رحمة الله!

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليما كثيراً.

سورة يس

"مكية، عدد آياتها: 83"

وهي تتضمن تسعة مجالس

تقديم

أما سورة "يس" فهي مدرسة أخرى تماما!

إنها سورة الدعوة والداعية! الداعية الذي عرف ربه فأحبه! عرفه بما تجلى عليه من أنوار الجلال والجمال، فانطلق يسعى حثيثا يحمل وهج الدعوة إليه،

وتعريف الناس بما أنعم الله عليه من جمال المعرفة به جل جلاله! وليس كاسم الله الأعظم أدل على الله، ولا أبلغ في الكشف عن أنوار عظمته سبحانه جل علاه؛ ولذلك كانت هذه السورة تفيض بما لا ينحصر من تجليات الجلال والجمال، الصادرة عن الاسم الأعظم؛ لتزويد الداعية المخلص بما يملؤه يقينا في الله، ويعمره محبة في مولاه! ويجعله - قبل ذلك وبعده - يتحقق بمقام التوحيد الخالص، مشاهدة حسنى لا يضام فيها أبدا!

فالسورة تمد العارف الداعية إلى الله بمدد من الحكمة والمعرفة لا قِبَلَ للسالكين به! إنها تفيض بمعاني الحياة بكل طبقاتها، وبكثير من أسرار الخلق والإحياء على اختلاف ألوانها وأشكالها، وإنها لتنبض بجلال القيومية، وبعظمة التقدير والتدبير؛ ما يجلي للعبد - من شؤون الربوبية - حقائق اليقين على منـزلة الشهود الكامل! فيسترخص دمه في طاعة الله ويهرق أنفاسه رجاء نيل رضاه!

تلك هي سورة يس، فمن أوتيها فقد أوتي خيرا عظيما وفتحا مبينا!

إنها سورة تمنح المتلقي لحقائقها منـزلةً خاصة من المعرفة بالله! وتجعله يعتلي مقاما من المشاهدات النورانية لا مثيل له! فمكابدتها تورث السائر إلى الله - جل جلاله - حقيقة المحبة! بل تورثه الفناء في بحارها، والغرق في أنوارها! فعبر مسالكها ارتقى شهيد المحبة إلى عين اليقين!

كانت رياح الشوق تحمله بأجنحتها إلى وطيس الصراع الدائر بين الحق والباطل، فجاء من أقصى المدينة يسعى ليدلي بشهادته النازفة! (وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى!) فكان ثمنها إهراق دمه الْمَشُوقِ بحب الله! فنادى المرسَلِين وهو يجود بدمائه الحرى: (إِنِّيَ آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ!) وجاء الجواب من ملائكة الرحمن سريعا، جاءه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، مودعا عالم التراب الفاني: (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ!) فلما رأى ما رأى ووجد ما وجد (قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ!) قالها بعد استشهاده مباشرة، وهو ينطلق محلقا بأجنحته الخضراء في فضاءات الجنة العريضة! مشرفا من أعاليها على مَنْ خَلَّفَهُمْ تحت أدران التراب، من جموع الطغاة الجهلة بالله!

ثم ترتقي السورة بالسالك المحب عبر معارج المشاهدات والكرامات، ومباهج السياحات، لِيَتَمَلَّى بما أُذِنَ له من ملكوت الله العظيم، ويتغذى بالنظر في آيات الله الممتدة من دقائق الأنفس إلى عجائب الآفاق، وحركة النجوم السيارة والأفلاك الدوارة، المتفانية في عبادتها لله تسبيحا وتفريدا؛ بما يرسخ يقين المحب في محبوبه، ويذكي شوقه إلى لقائه! حتى إذا اكتملت له النعمة، وغمرته السكينة والرحمة، وشاهد من آيات الجمال والجلال ما بهر فؤادَه؛ خَرَّ قَلْبُهُ مسبحا بين يدي مولاه، فتجلى له نور الطابع الرباني، الخاتم لشهادة تخرجه من مدرسة المحبين،

تلاوة تهدهد آلام أشواقه بوعد جميل: (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ!)

تلك كانت إشراقات من حقائق الإيمان، النابضة في سماء هذه السورة العظيمة([135]).

فما بقي الآن إلا أن نحاول تلقي إشاراتها وأنوارها. وذلك من خلال تسعة مجالس هي كما يلي:

المجلس الأول
في مقام التلقي لأصول العمل الدعوي:
تعريف الداعية بمقامه، وبطبيعة رسالته، وأصناف مخاطَبيه

1- كلمات الابتلاء:

يَس(1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ(2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(3) عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(4) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(5) لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ(6) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(7) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ(8) وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ(9) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(10) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ(11) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ(12).

2- البيان العام:

"ياء" و"سين"، من ههنا يكون البدء في تلقي أنوار الحكمة! حرفان كريمان من حروف القرآن الكريم، يفيضان أنسا وجمالا! ويربطان قلب المؤمن بالعمق الغيبي لهذا الكتاب العظيم! ولقد تضاربت أقوال المفسرين في معنى الأحرف المقطعة الواردة بفواتح بعض السور، وذهبت آراؤهم فيها مذاهب شتى، إلا أنه لم يصح في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء، فليس لنا أن نقرر في شأنها إلا ما يليق بخطاب العرب وبمقام القرآن العظيم.

أما الشيء الذي لا خلاف فيه، فهو أن هذه الأحرف قد بقيت لغزا من ألغاز القرآن الكريم! ولا أحد استطاع أن يأتي فيها بقول يكشف سرها، ثم يستقيم

---

[135] قد وردت أحاديث كثيرة في فضل سورة "يس"، وما لها من خصائص وبركات، لكن أغلبها ضعفه أهل الصناعة من علماء الحديث. إلا أن القرآن يشهد بنفسه على نفسه بفضله وعظمته. ونحن لا نستبعد أن يكون النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أشار إلى شيء من ذلك - فيما يخص هذه السورة بالذات – فحض عليها حضا! خاصة وأن الكلام عنها قد ورد عن عدد من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، كما تداولته كتب الحديث والتفسير. وإن في هذا لدلالة كافية على تفردها وعظمتها!

ومقاييسَ العلم روايةً أو درايةً! فكل ما قيل حولها تخمينات وظنون لا تغني عن الحق شيئا! وبعض المفسرين مال إلى ربطها بحساب الجمل، وهو أمر لم تعرفه العرب، ولم تفسر به خطابها قط. وكل ما ورد في ذلك من الروايات ينتهي أغلبه إلى الإسرائيليات! وفي بعضها من الباطل ما كشفه التاريخ! كتحديدهم عمر هذه الأمة بناء على جمعٍ لأعداد بعض تلك الحروف على حساب الجمل! ثم امتدت الأمة في الزمان أكثر بكثير مما عدوا لها!

الشيء الوحيد الذي بقي مقبولا في تفسير هذه الأحرف هو أنها - كما ذكرنا - من متشابه القرآن الذي لا يعلمه إلا الله! وهذا مُعْطًى علمي مهم جدا، نبني عليه بياننا - بحول الله - ههنا، وذلك بتسجيل الملحوظات التالية:

- أولا: أن هذه الأحرف لها في مواضعها من كتاب الله دلالتها الخاصة! وهي دلالات مختلفة؛ لاختلافها هي في نفسها، فـ "الٓمٓ" مثلا ليست هي "الٓرٰ"، ولا هي "الٓمٓرٰ"، ولا هي "الٓمٓصٓ"، ولا هي "كٓهيٰعٓصٓ"، ولا هي "يٰسٓ" أو "صٓ" أو "قٓ" ...إلخ. فكل زيادة أو اختلاف في المبنى، يدل على زيادة أو اختلاف في المعنى.

- ثانيا: أن لها معاني خاصة عند الله تعالى، مرتبطة قطعا بسورها المذكورة في أوائلها من جهة، ومرتبطة – من جهة ثانية - بطبيعة هذا القرآن، الذي هو كلام الله جل جلاله. فالله تعالى لا يتكلم عبثا، بل لا يتكلم إلا بالحق، سبحانه جل جلاله!

- ثالثا: أن الله تعالى استأثر بحقائق تلك الأحرف في علم الغيب عنده، كما استأثر بكثير من أسمائه الحسنى وصفاته العلى عنده أيضا! وفي هذا دلالة عظيمة على ثمرة إيمانية كريمة، وهي كما يلي:

- رابعا: أن حقيقة هذا القرآن كله – ما علمنا منه وما لم نعلم - مرتبطة بعالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله! وأنه تعالى إنما بين لنا منه ما تقوم به حياتنا التعبدية، وتتوجه به التكاليف الشرعية العقدية والعملية، ويصلح به العمران البشري، وتقوم به الحجة على الناس! وذلك هو ما يُسِّر منه تيسيراً! كما قال جل جلاله: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ؟)(القمر: 17). وإلا فمن ذا قدير على أن يتلقى كلام رب العالمين – المحيط بكل شيء في هذا الوجود العظيم - وأن يرتله ترتيلا!؟ ولقد صدق سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما، إذ قال في هذا قولته الشهيرة: (لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل!)([136])

ومن هنا وردت هذه الحروف في كتاب الله من الغوامض التعبيرية؛ وفي ذلك إشارة إلى هذا الأصل الإعجازي العظيم! كأنها تقول للإنسان: انتبه! إن هذا الكتاب الذي يُسِّرَ لك أن تقرأه اليوم كتاب غير عاد تماما! إنه كتاب غريب عجيب! إنه بحار غير متناهية من الحقائق الغيبية والكونية مما لا يحيط بحقيقته إلا الله رب

[136] تفسير ابن كثير: 337/4.

العالمين! فتأدب يا عبد! تأدب بأدب العبودية بين يدي الملك العظيم، وأنت تستفيد – فيما أُذِنَ لك - من نعمة تيسير القرآن المجيد تلاوةً وتدبراً!

ويكفيك دلالة على هذا التأصيل الأصيل، قول الله تعالى عن كلامه جل جلاله: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ!)(لقمان: 27) ولقد أشار النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى تفرد كل حرف من حروف القرآن العظيم بقيمة ذاتية، لكن ليس بما هو حرف عربي؛ ولكن بما هو جزء من كلام الله جل جلاله! ولذلك رتب الأجر للقارئ على عدد ما قرأ من حروف! رغم أن الحرف في اللغة البشرية وحدة صوتية لا معنى لها! لكنه ههنا شيء آخر، إنه حرف مختلف عن أي حرف في أي لغة، إنه حرف قرآني! ويكفيه ذلك ليضرب بجذوره في عمق الغيب! ذلك هو مقتضى الحديث النبوي المشهور، من قوله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ حرفاً من كتاب اللَّه فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول "ألم" حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)([137]).

ومن هنا أيضا وردت أغلب الأحرف المقطعة في أوائل السور مرتبطة بالإشارة إلى عظمة القرآن، أو مصدريته، أو في سياق قَسَمِ الله جل جلاله به! كما في قوله تعالى من فاتحة البقرة: (الَم. ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ!) وقوله سبحانه في الأعراف: (الَمص، كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ). وفي يونس: (الَر. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) وفي هود: (الَر. كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) وفي الرعد: (الَمر. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ!) وفي إبراهيم: (الَر. كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ!) وقال هنا في "يس" مُقْسِماً: (يَس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ!) كما قال بعدُ في "ق": (قَ. وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ!) وغير هذا وذاك في القرآن كثير.

وعليه؛ فقوله تعالى: "يس" بمفتتح هذه السورة العظيمة إشارة منه - جل جلاله - إلى عمقها الرباني الممتد في بحار الغيب! وإلى أنها تزخر بنفائس الأسرار وكرائم الأنوار! فهي محملة بنور خاص من قوله تعالى العام في القرآن كله: (قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً!)(الفرقان:6) فلها أسرارها التي تخصها من ذلك، كما أن لكل سورة في كتاب الله أسرارها التي تخصها.

لكن الافتتاح بهذين الحرفين ههنا على الخصوص "ياء" و"سين"، بما لهما - على المستوى الصوتي - من لطف وجمال، ثم القَسَم بعدهما مباشرة بالقرآن موصوفا بالحكمة؛ يجعل من ذلك كله إشارة إلى أن هذه السورة مكتنزةٌ بالحِكَم

137 رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح. انظر سنن الترمذي، (كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الأجر). كما رواه الحاكم أيضا في المستدرك.

الربانية، ذات اللطف الخفي والجمال البهي! وهي حِكَمٌ لها من الخصوص ما يربط القلب بكرامات الغيب مباشرة، ويجعله محفوظا بالله، لا يرى إلا بنور الله! على ما سنبينه بحول الله عند تلقي رسالات الهدى الواردة بالآيات.

فنأخذ ههنا في هذا البيان العام أن المقسَم عليه، المقصود بالخطاب أصالةً، هو أن هذا النبي المصطفى – صلى الله عليه وسلم - رسولٌ من رب العالمين حقيق، رسول ماض على سَنَنِ المرسلين، يتلقى الوحي كما تلقوه من رب العالمين. (يَس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ! عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. تَنـزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ!) وقد يتساءل المرء بادئ النظر: لماذا هذا التوكيد الشديد من الله - جل جلاله – في خطابه الموجه إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم – قصد إثبات قضية هي من أولى المسلَّمات بينهما ابتداءً؟!

إنها توكيدات متتالية متضافرة! بدءاً بالقَسَمِ ثم جعلِ جوابه مسلحا بالحرف الناسخ: "إنَّ"، وبلام التوكيد، ثم جعل السياق كله متعاضدا بجمل اسمية متتابعة! كل ذلك من أجل القول: إنك - أيها الرسول - لمن المرسلين بوحي الله إلى عباده، على طريق مستقيم، وهو الإسلام الذي هو مسلك كل الأنبياء والرسل قبلك. تنـزيل العزيز في انتقامه من أهل الكفر والمعاصي، الرحيم بمن تاب من عباده وعمل صالحا. إن التوكيد المتضافر ههنا هو مدد من الله لرسوله! صحيح أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - يعلم أنه رسول الله، ولكنه الآن في خضم معركة! معركة الدعوة إلى الله ومواجهة طغاة الكفار الذين يكذبون الرسول ويحمون الباطل بقوتهم وجبروتهم! فيثيرون ضده - عليه الصلاة والسلام - وضد دعوته الشبه والتلبيسات، مما يفتن الناس ويحزن الرسول! على غرار ما جاء في قوله تعالى من سورة الأنعام: (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ!)(الأنعام: 33) ومثل هذا في القرآن كثير. ومن ثَمَّ كان الرسول في حاجة إلى دعم إلهي ومدد رباني، وهو يخوض معركة الحق ضد الباطل. فتتنـزل عليه هذه الآيات مسلحة بهذه التوكيدات؛ لتمده بقوة جديدة، وتزيده ثباتا وصبراً في مواجهة الباطل! فَتُذَكِّرُهُ بأنه بشر غير عاد، بل هو بشر مرسل من رب العالمين إلى كل العالمين! بشر نعم، ولكنه من نوع آخر، إنه من نوع المرسلين الموصولين بالله أبداً، الممدودين منه تعالى بروح القدس، يحمل راية الإسلام ويجدد دعوته! حجته هذا القرآن العظيم، الذي هو كلام الله رب العالمين! هكذا تتنـزل عليه هذه الحقائق القرآنية مدداً عظيما في ساعة الشدة! وفي لحظة الضيق والحرج؛ فتضاعف قوته وعزيمته؛ بما يجعله من أولي العزم من الرسل، بل يجعله سيدهم وسيد المرسلين أجمعين! عليهم وعلى نبينا أفضل الصلوات والتسليم. فأي تسلية هذه وأي تثبيت!؟ وأي مدد هذا وأي عطاء!؟

ثم يحدد القرآن للرسول الوظيفة الأساس التي هي مناط رسالته: (لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ!) وأفرد النذارة بالذكر – في هذا السياق - دون البشارة؛ لضخامة حجم الضلال، وشدة قتامة التيه الذي كانت تتخبط فيه البشرية زمن الرسالة، عربا وعجما! ثم لخطورة النبأ العظيم الذي نزل به هذا القرآن نذيراً للناس! والناس يومئذ قد تعاقبت عليهم الأجيال دون ورود خبر من السماء نبوةً أو رسالة، إلا ما كان من بقايا صحف أهل الكتاب التي اختلط حقها بباطلها، فلم تعد تغني من الحق شيئا! فاشتدت وطأة الجاهلية في الأرض واشتد ليلها وضلالها! إنها غفلة شديدة مديدة، طالت حتى استحكمت الأهواء في الأنفس وأَشْرِبَتْ طغيانَها! فعُبِدت الطواغيتُ الحجرية والبشرية من دون الله الواحد القهار! وسيطرت شريعة الغاب على العالمين! وصار للظلم والظلمات سَدَنَةٌ غلاظ شداد يحمونهما! فلا رغبة لديهم لسماع كلمة الحق والاستجابة لنداء الهدى! (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ!) فقد صار ما أُشْرِبُوا من حب الكفر والضلال، أغلالاً تربط أيديهم إلى أعناقهم؛ فهم بذلك مُقْمَحُونَ أي مُشَكَّلو الرؤوس والوجوه إلى أعلى، لا يستطيعون عن هذا الوضع تحولا! فلا قدرة لهم على إبصار مواضع أقدامهم، ولا على إبصار علامات الهدى المنصوبة على الطريق من الآيات البينات! ولذلك لا يصدقون مما يقال لهم عنها شيئا! ولقد صوَّرهم الحقُّ تعالى – بهذا الانقماح العجيب – تماما على صورة ما يكونون عليه فعلا من هيأة، عندما يغشون النوادي برؤوس مرفوعة إلى السماء تكبرا وغطرسة وطغيانا! ولذلك فقد أحاط بهم كبرياؤهم الجاهلي، وانتصب سدودا منيعة من بين أيديهم ومن خلفهم، فوقعت بذلك الغشاوة على أبصارهم؛ فأنى يهتدون؟

ثم يلتفت الخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم – من بعدما بيَّن له حجمَ الضلال الذي تعاني منه البشرية في زمانه، منبها إياه إلى أن هذا الضرب من الكفار، ممن انتصب كبرياؤه طاغوتا في الأرض، لن يهتدي أبدا ولن يصدق من خبر السماء شيئا، سواء بلغته نذارتك أم لم تبلغه؛ إذ كشف الحقُّ - جل جلاله - ارتباطهم الشديد بكفرهم وكبريائهم! فلا استعداد لديهم للخير ولا للهدى أبدا!

وإنما سيستجيب لدعوتك - أيها الرسول – من أنصت لهذا القرآن بتواضع، صادق الرغبة في معرفة الحق! والقرآن هو كلام الله المعرف بالله؛ ولذلك ما قرأه أحد بهذا المنهج إلا انفتحت بصيرته على الحق، فتجلت له عظمة الله جل جلاله! وامتلأ قلبه خشية وتعظيما وكان من المؤمنين. أما هذا فبشره بمغفرة لما كان عليه من كفر وضلال، وبشره بأجر كريم على ما استأنف من حياة إيمانية مباركة!

ثم يقرر القرآن بعد ذلك حقيقة النبأ العظيم، وهو البعث بعد الموت! تلك الحقيقة التي رفضها مَرَدَةُ الكفار قديما وحديثا؛ سخرية منهم بالحق واستكباراً! فقال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)

فلا شيء من عمل ابن آدم يضيع أو ينسى، خيرا كان أم شرا، سواء في ذلك ما عمله في دنياه فانقطع بموته أو ما خلفه متوارثا بعده! كل شيء يثبته الحق تعالى في أُمِّ الكتاب! وسماه ههنا "إماما" لأنه ما أَمَّهُ أحد – بمعنى قصده - لمعرفة شيء إلا وجده فيه! فهو إمام مبين في كل شيء! ولذلك قال تعالى في سورة الكهف: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا!)(سورة الكهف:49)

تلك إذن قصة هذه النذارة، وذلك هو مناط هذه الرسالة، وإنه لِمَنْ مَلَكَ البصيرةَ لنبأٌ عظيم! إليه يصير الوجود البشري كله!

3- **الهدى المنهاجي**:

وهو ينقسم إلى ست رسالات، هي كالتالي:

- **الرسالة الأولى:**

في بيان العمق الغيبي للقرآن الكريم، وما فيه من حكمة ظاهرة، وأخرى خفية لا تظهر للناس، بل إنها لا تتجلى للعبد إلا بعد الشروع في العمل أو بعد الانتهاء منه، وربما تراخت عن ذلك زمانا! على سبيل الابتلاء؛ حتى يدخل العبد في العمل دخول المؤمن بالغيب، المسلم لله رب العالمين! ثم إن هذا القرآن - بما هو منزل من لدن العزيز الرحيم، عالم الغيب والشهادة – يتضمن خريطة الحياة البشرية ماضيها وحاضرها ومستقبلها بدقة متناهية، لكنها خريطة في أغلب معالمها خفية! فهي تشرف على عالم الشهادة من عالم الغيب. وواجب على العبد المؤمن أن يستشرفها باتباعه الدقيق لتعاليم القرآن!

- **الرسالة الثانية:**

في ضرورة اقتناع الداعية برسالته قصدا ومنهجا إلى درجة اليقين. وذلك بتحقيق الاستيقان الشهودي بمصدرها الرباني؛ بما يجعله على إيمان راسخ متين بدعوته! وإلا فأي تذبذب يقع له في الإيمان برسالته؛ فإنه يكون قطعا من الفاشلين! وليس معنى هذا التذبذب في مطلق الإيمان، كلا، فقد يكون من المؤمنين الصالحين، وإنما المقصود التذبذب في حمل أمانته، وأداء وظيفته، والغفلة عن حقيقة نصرة الله لجنده، وعدم مشاهدة معيته! فتلك أمور متى غابت عن الداعية فشل في دعوته!

- **الرسالة الثالثة:**

في أن استبطان حقيقة النذارة لدى الداعية وتحمل أمانتها، أنشط له في العمل المتواصل الدؤوب، وفي إشعال جذوة الحماس في قلبه! وتلك هي حقيقة النبأ العظيم الذي جاءت به كل الرسالات! قال تعالى: (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ!)(سورة فاطر: 24) ولنا من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

تصوير دقيق لحاله وهو يدعو الناس، تصوير فيه من الشفقة البالغة والرحمة الشديدة؛ ما يبين الوضع النفسي والإيماني الذي وجب أن يتحلى به المؤمن الداعية إلى الله إزاء مخاطبيه! فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه عليه الصلاة والسلام قال: (مَثَلِي كمَثَلِ رَجُلٍ استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفَرَاشُ وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها! وجعل يَحْجُزُهُنَّ، ويَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فيها! فذلك مَثَلِي ومَثَلُكُمْ، أنا آخذُ بِحُجَزِكُمْ عن النار: هَلُمَّ عن النار! هَلُمَّ عن النار! فتغلبوني فتقتحمون فيها!)[138]. وفي رواية جابر: (وأنا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عن النار، وأنتم تُفْلِتُونَ من يدي!)[139] ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: (وإني أنا النذير العريان! فالنَّجَاءَ النَّجَاءَ!)[140]

- الرسالة الرابعة:

في أن انقطاع النذارة في بيئة ما، وتوارث أجيالها للجهل بالدين، يجعلها تدخل في غفلة شديدة، وتضرب في ظلمات من التيه، يصعب جدا التخلص منها، حيث تصير إلى التطبع العميق مع المنكر واستغراب المعروف! وتنتهي إلى حال انقلاب المفاهيم! مما يثقل مسؤولية الدعاة ويعقدها! ولذلك وجب مداومة النظر في معالم الآيات الدعوية من كتاب الله عز وجل؛ لمعرفة خصائص النفس البشرية: مَنْ له قابلية للخير ومن أغلق قلبه دونه، ثم ختم عليه بالضلال المبين، فلكل من هذين الصنفين علامات في كتاب الله. ثم إن على الداعية أن يستفيد من مناهج النذارة النبوية، خاصة في المراحل الأولى من دعوته عليه الصلاة والسلام؛ لتشابه أحوال التجديد بأحوال البدء والتأسيس. أعني في مثل هذه الظروف المذكورة، من انقطاع النذارة وتوارث الأجيال للجهل والضلال.

- الرسالة الخامسة:

في التنبيه على عدم الانشغال الكثير بمجادلة الطواغيت المستكبرين، من سَدَنَةِ الضلال وصُنَّاعِ الفجور وحماة المنكر، إلا على سبيل إقامة الحجة. وإنما يجب الاهتمام الأكبر بأهل التواضع من المستضعفين، وجموع الحيارى الغافلين، الباحثين عن الحقيقة، ممن إذا عَرَّفْتَهُ بالله وقعتْ في قلبه خشيته! وانقاد للحق؛ فكان من المهتدين بإذن الله.

- الرسالة السادسة:

في أن قضية البعث والحساب وما تضمنه اليوم الآخر من حقائق إيمانية، هي أهم قضية - بعد الإيمان بالله - وجب على الداعية أن يجعلها أساس خطابه

---

[138] متفق عليه.

[139] رواه أحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

[140] متفق عليه.

ومناط نذارته! فالمصير الأخروي هو قضية القرآن الكبرى، فهو الأصل وأما ما سواه من الوعود الدنيوية – من صلاح المعاش ورغد العيش - فإنما هو تَبَعٌ، وليس مقصودا للقرآن دعويا إلا على سبيل الابتلاء! وعدم التزام الخطاب الدعوي بهذه المراتب قَلْبٌ لموازين القرآن! ففي غزوة الخندق كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم – يَرْجُزُ بصوت عال: (اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة!)([141]) وكان أول بيانه لقريش - وهو واقف على الصفا خطيبا - قوله صلى الله عليه وسلم: (إني نذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذاب شديد!)([142])

4- مسلك التخلق:

لتحقيق الداعية اليقينَ بدعوته وجب عليه الاستمداد الدائم من حقائق الغيب، مما أحكمه الله في كتابه، وقراءة كل ما يقع من حوادث هذا العالم من خلال منظاره. والتزود من مراتب العلم بالله ما يملأ قلب العبد خشية، ويجعله مهموما ببلاغ النذارة! وإنما تحصل مراتب العلم بالله تدرجا؛ وذلك بالتدبر الدائم لكتاب الله، والدخول في صالح الأعمال من خالص العبادات! مع الاقتداء في كل ذلك بأسوة الأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وجعل أحواله في سنته وسيرته نصب العين أبداً.

وأما النذارة الواقعة من خطاب الداعية، فلا يمكن أن تكون ذات تأثير، إلا إذا صدرت عن قلب تَمَلَّكَهُ الخوفُ حقيقةً من الله جل جلاله! أما تَصَنُّعُ ذلك وتَكَلُّفُهُ فلا تُرجى منه فائدة دعوية! ومن هنا فالمسلك العملي للتحقق من ذلك خُلُقاً خالصا، هو التعرف على مقام الله العظيم، ومشاهدةُ الآيات المعرفة بِقَدْرِهِ تعالى وعظمةِ سلطانه! قال جل جلاله: (ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ!)(سورة إبراهيم: 14) وقال سبحانه: (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)(سورة الزمر: 67)

كما يتم ذلك بالمطالعة الدائمة لحقوقه - جل جلاله – المترتبة على عباده؛ بما نالهم منه تعالى من النعم التي لا تحصى! ثم ما وقعوا فيه – بدل الشكر - من العصيان لأمره ونهيه! والشرود بعيدا عن صراطه المستقيم! ثم على العبد تطبيق ذلك كله على نفسه، وإخضاعها لمقاييسه؛ ليرى حجم تقصيره في حق ربه، وعظمة ذنبه وكثرة خطيئاته، وما بَاءَ به من هذا وذاك؛ فذلك كله أدعى لتحقيق الخوف من مقام الله العظيم! وأرجى للداعية في التحقق بخطاب النذارة من دعوته، خُلُقاً مخلصا لله الواحد القهار! فما يصدر عنه آنئذٍ إلا نذير خالص تتخلله الزفرات الصادقة والآهات المكابدة! قال تعالى في حق خليله إبراهيم عليه السلام: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ!)(سورة التوبة :114)

---

[141] متفق عليه.

[142] متفق عليه.

المجلس الثاني
في مقام التلقي لوظيفة البلاغ المبين

1- كلمات الابتلاء:

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ(13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ(14) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ(15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ(16) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ(17) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(18) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ(19)

2- البيان العام:

هذا يوم من أيام الله! وقصة من قصص القرآن البليغة! كان ذلك في مدينة أنطاكية الواقعة اليوم في شرق تركيا، وكان يحكمها آنئذ ملك طاغية يعبد الأصنام ويفرضها على قومه! كان ذلك زمان أنبياء بني إسرائل، وقيل زمن المسيح عليه السلام، والرسل الثلاثة المذكورون في القصة قيل: هم رسله – من الحواريين - إلى أهل أنطاكية بأمر الله. وقيل: بل هم رسل مباشرون من رسل بني إسرائيل، وهو الذي عليه جمهور المفسرين([143]) وهو الذي يؤيده سياق الآيات. وكل ذلك ههنا سواء، لا تعارض فيه من حيث الحكمة والمقصد الدعوي.

ونظرا لما تكتنز به هذه القصة من حِكَمٍ بليغة، وسنن ربانية عظيمة، فقد ضربها الله مثلا لقوم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبقيت - بعد ذلك - عبرة للبشرية، شاهدة على صراع الحق والباطل إلى يوم القيامة! بقيت - من حيث مقاصدها الدعوية والتربوية - قصة جديدة لا تبلى أبداً!

فقد أرسل الله - جل جلاله - إلى طاغوت أنطاكية وقومه رسولين اثنين، يعزز أحدهما الآخر ويؤيده. كانا يحملان رسالة واحدة، مدارها على الدعوة إلى توحيد الله رب العالمين، ونبذ عبادة الأصنام، وما دأب عليه أهل المدينة من الشرك! لكن الملأ من سدنة الكفر والضلال كذبوا الرسولين، فعززهما الله برسول ثالث! كل واحد منهم كان يتحدث بما آتاه الله من بلاغة وبيان، ويخاطب القوم بحجج تقوي حجج صاحبه وتبينها، فهذا يفصل مجمل ذاك، وذاك يفسر مبهم هذا؛ بما يجعل كل ردود الكفرة باطلة وحججهم داحضة، وينير طريق الإيمان أمام جموع المستضعفين؛ مما أفزع طغاة القوم، فعدلوا - عند الهزيمة - إلى إلغاء الحوار، والتجؤوا إلى لغة العنف والتنكيل بالرسل والتهديد بتعذيبهم وقتلهم؛ قصد إخراس

---

[143] ن. تفصيل ذلك في تفسيري الطبري وابن كثير.

كلمة الحق، وحرمان المستضعفين من تلقي رسالات الهدى! شأنَ سائر الطغاة في كل زمان ومكان!

كانت حجة الكفرة قائمة على رفض أن يرسل الله - جل جلاله - رسولا إلى الناس من جنسهم! وهي حجة راجعة إلى الرغبة في التعجيز، وإلى ما تنطوي عليه النفس المريضة من الكبرياء، لا إلى الجدل المثمر البناء الرامي إلى التحقق من صحة الرسالة وصدق حاملها. وتلك كانت نفس حجة كثير من الأمم الذين كذبوا رسلهم، كما كانت حجة قريش في تكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم. حجة واحدة تحقق بطلانها مئات المرات عبر التاريخ! ومع ذلك لم يزل الكفار يلجؤون إليها؛ إذ لا محيص لهم عنها، فما من حجة لهم إلا وهي أَوْهَى وأوهن منها! (قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ!)

وقد أجمل الحق - جل جلاله - خطاب الأنبياء الثلاثة في هذه القصة، وعرضه بأدوات التوكيد التي وردت في السياق، من مثل قولهم: (قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ، وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ!) بما يفيد أنهم أقاموا الحجج القوية الدامغة على أهل القرية؛ حتى لم يبق معها مجال للشك أو التردد في صدق الرسالة التي جاؤوا بها، وفي بطلان ما عليه القوم من الشرك وعبادة الأوثان. كما أن الخطاب اللاحق في السياق للرجل المؤمن، المتدخل في اللحظة الحاسمة، بما فيه من بيان قوي وتفصيل محكم، دالٌّ على مضمون خطاب الرسل الثلاثة وما أقاموه من حجج على قومهم. فلواحق السياق تبين سوابقَه. وهذا من جمال بلاغة القرآن العظيم!

وقولهم: (وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ!) مفيد أنهم قد أدوه على أتم ما يكون الأداء، وأن القضية بعد ذلك إنما هي قضية هداية! وهذا أمر لا يملكونه ولا هم مكلفون به. فالهداية إنما هي بيد الله وحده. وذلك على غرار ما قال لمحمد صلى الله عليه وسلم: (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ! وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ!)(سورة القَصص: 56)

وذكرت كتب التفسير أن الله - جل ثناؤه - قد ابتلى القرية بشتى ضروب البلاء، من حبس الغيث وضنك العيش والأوبئة؛ لعلهم يرجعون! لكن ذلك ما زادهم إلا طغيانا! بل اتهموا الرسل بأنهم هم سبب ما أصابهم من بلاء؛ بما سفَّهوا من عبادتهم لأصنامهم وأوثانهم! فكأنما تلك الأصنام قد غضبت فانتقمت من أهل القرية جميعا! وقد حكى القرآن مقالة الطغاة ههنا: (قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ!) وبهذا الجهل من اعتبار الرسل شؤما على القرية كلها، ثم تهديدهم بالرجم والتعذيب؛ قطع الطغاة كل أسباب الحوار! ومنعوا المستضعفين - ظلما وعدوانا - من سماع كلمة الحق!

لكن الرسل مكلفون بالاستمرار في أداء الرسالة، والثبات على بلاغها للناس أبداً، وعدم الرضوخ لتهديد الطغاة، مهما كلفهم ذلك من ثمن! فردوا عليهم ردا قويا

حاسما! لا مجاملة فيه ولا رَهَب! (قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ! أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ!) أي: إن كفركم وضلالكم من الإصرار على الشرك، وتكذيب رسل الله هو الشؤم عينه! ثم رموا الكفارَ بسؤال إنكاري شديد! مفاده: أبسبب أننا ذكّرناكم بالله ربكم ورب العالمين، وبيَّنا لكم بطلان ما أنتم عليه من الشرك؛ حرصا على هداكم، وبلاغا من الله ربنا وربكم، أبسبب ذلكم قابلتمونا بالتهديد والوعيد؟ ألا إن هذا لهو الظلم والطغيان المبين!

فما كان من الطغاة آنئذ إلا أن أحاطوا بالرسل واقتادوهم للتعذيب والقتل!

وهنا ينتقل السياق القرآني إلى مفاجأة كبرى في إبراز مأساة هذه القصة العجيبة! وهي تَدَخُّلُ الرجل المؤمن - المسمى حبيب النجار - في اللحظة الحاسمة، تَدَخَّلَ بخطاب عجيب لخص فيه بيان الرسل الثلاثة، وأقام الحجة بطريقة أخرى، على شناعة ما أقدم عليه الطغاة من الهم بقتل رسلهم! فكان في قصته من العبر البليغة، ما نجعله مدار حديث المجلس الثالث إن شاء الله.

3- الهدى المنهاجي:

وهو ينقسم إلى الرسالات الثلاث التالية:

- الرسالة الأولى:

في أن تعاون الدعاة وتنسيقهم فيما بينهم، من أهم أسباب نجاحهم، وأقرب إلى مرضاة ربهم. فالتعاون على الخير والاجتماع عليه قوة له ونصرة. أما اختلافهم بَلْهَ تشاحنهم وتباغضهم فهو الخسران المبين! ولا يجوز اختلاف فيما الأصل فيه عدم الخلاف؛ إلا بسبب تدخل الأهواء! ولذلك كان الإخلاص أول عمل ذاتي، وجب تحقيقه لدى الداعية في نفسه قبل الانطلاق في دعوته. وما اختلف قوم مخلصون لربهم قط في أصول دعوة لا اجتهاد فيها. وإنما هي بلاغ لحقائق إيمانية معلومة من الدين بالضرورة.

- الرسالة الثانية:

في أن الحق قوي بذاته، فإذا بلَّغه الداعية الحكيم بما يليق به من بيان، كان منتصرا بمجرد الكلمة! وذلك كان هو أساس دعوة جميع الأنبياء والرسل، قال تعالى: (فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ!)(سورة النحل: 35) فلا يستهينن أحد بقوة الكلمة وخطورتها في الخير والشر! فأما كلمة الحق والهدى في الدعوة إلى الله فهي الغالبة بإذن الله أبداً! فما ينبغي أن تقدم عليها وسيلة من الوسائل مهما كانت براقة! بل يجب أن توظف وسائل العصر الإعلامية، والتقنيات الجديدة كلها؛ لإعلاء كلمة الحق ونشر الهدى؛ بيانا للناس وبلاغا. ولو تيسر هذا الأمر بغير موانعَ ولا مَقَامِعَ، لكانت الأمة اليوم في نهضة دينية جديدة! وإنَّ صُبْحَهَا بإذن الله لقريب!

- الرسالة الثالثة:

في أن أسلوب الطغاة في كل زمان ومكان، إزاء كلمة الحق إنما هو القمع الهمجي والمنع التعسفي لحرية الكلام! ثم التنكيل بالدعاة وتقتيلهم! ولذلك وجب على الدعاة إلى الله تجنب أسباب الفتنة، والحرص على عدم استفزاز الطغاة ما أمكن؛ لأن الحق هو المستفيد الأول من أجواء الحرية والأمن العام، وهو المنتصر في النهاية على كل خطاب، وعلى كل إعلام، مهما بلغت قدرته المهنية ودهاؤه التضليلي! فالحق يعلو ولا يعلى عليه! وقد حرص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الحصول على هدنة من قريش في صلح الحديبية، بعَقد فيه ما فيه من شروط مجحفة بالمؤمنين ظالمة! لأن الحصول على فترة من حرية الكلام والأمان للمسلمين، كانت كفيلة بإسلام أغلب الناس بمكة! ولذلك كان بعدها الفتح المبين!

4- مسلك التخلق:

أما مسلك التخلق في هذا الابتلاء ههنا فقضيته - كل قضيته - في التحقق بحكمة البلاغ المبين! كيف يتمكن الداعية من خُلُقِ الْحِلْم، ومن امتلاك البيان الرباني الكريم؟! حتى إذا تكلم وجد الناسُ صدقَه الخالصَ في كل سيماه! وتدفق نور الخشية من وجهه وعلى لسانه، هُدًى يفتح أبواب القلوب على مصاريعها! فكيف السبيل إلى ذلك وكيف الطريق؟

لابد للداعية أن يديم النظر في شمائل سيد الخلق محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والتسليم، فلا أحد أبلغ منه في الحلم! ومطالعة مواقفه - صلى الله عليه وسلم - في اللحظات الحرجة! كيف كان أقوى على ضبط نفسه عليه الصلاة والسلام، وكيف كان أعظم في الحلم على جهل الجاهلين! بما يُعجز حكماء الزمان وفلاسفة الأخلاق! انظر إليه هنالك وتعلم! فهو القائل عليه الصلاة والسلام: (إنما العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وإنما الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ! ومَنْ يَتَحَرَّ الخيرَ يُعْطَهُ، ومَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ.)([144])

وأما المسلك العملي للتمكن من بيان دعوي بليغ، فإنما هو المدارسة المتواصلة للقرآن الكريم، خاصة في مساقات البيانات الربانية التي حكاها الله - جل ثناؤه - عن أنبيائه، في مواطن البلاغ المبين لأقوامهم، ففي تلك المواطن من قوة البيان الدعوي المقصود ههنا ما كان في مقام الإعجاز. وإن كثيرا من الدعاة الناجحين قديما وحديثا، إنما امتلكوا جمال تعبيرهم، وقوة حجتهم، ونصاعة بيانهم، من الإدمان على كتاب الله، تلاوةً ومدارسةً. وخُطبة حبيب النجار الآتية في

[144] رواه الدارقطني في الأفراد، و الخطيب في التاريخ عن أبي هريرة. كما رواه الخطيب في التاريخ عن أبي الدرداء أيضا. وقد حسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع. حديث رقم : 2328.

المجلس الثالث نموذج لذلك البلاغ المبين. وقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خُلُقُهُ القرآن في خطابه وبيانه، كما كان خُلُقَهُ في كل شيء([145]).

المجلس الثالث
في مقام التلقي لعزيمة البلاغ المبين شهادةً واستشهاداً

1- كلمات الابتلاء:

وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ(21) وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(22) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ(23) إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ(24) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ(25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ(27) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ(28) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(29) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ! مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون!(30)

2- البيان العام:

ههنا يبلغ القص القرآني لهذه الواقعة أوجه! ههنا تتدفق المحبة الخالصة دماءً تروي مقام المعرفة بالله توحيداً وإخلاصاً! ههنا تخرس كلمات الشراح والمفسرين، وتنجذب القلوب واجفة إلى مقام المشاهدة! حبيب النجار رجل من أهل أنطاكية، رجل من عامة الناس، لكنه رجل ليس كأي رجل، إنه فحل من فحول الإيمان! بلغته دعوة الرسل الثلاثة، فعرف الحق وآمن، ثم لبث يتلقى أنوار الهدى. كان يسكن بعيدا في أطراف المدينة. اشتغل بعبادة الله والتعرف إليه تعالى؛ حتى تجلت عليه أنوار الحكمة الربانية؛ فتدفقت على جنانه ولسانه. عرف ربَّه فأحبه! فسلك إليه عبر العبودية الخالصة، يَحْدُوهُ الخوفُ ويَشُوقُهُ الرجاء، وتؤرقه مواجيدُ المحبة!

بلغه خبر الجريمة الكبرى؛ من عزم طغاة أنطاكية على قتل رسل الله! فانتفض فزعا! وانطلق من هنالك، من أقصى المدينة، انطلق إلى مَلَئِهِمْ يُسرع الخطى بشجاعة نادرة، متوجها كالسهم إلى حيث اقتيد الرسل للقتل! ما كان أحد يتصور أن يتدخل امرؤ للدفاع عنهم، ولإعلان كلمة الحق! كيف وها السيف الفاجر مصلت؟ كيف وها الطغاة جبابرةٌ عتاة! ولكن جذوة الإيمان في قلب حبيب أشد التهابا! وحر المحبة في قلبه أشد من حر السيف ونار التعذيب! فلا صبر على المنكر إذا نادى منادي الشهادة! وما هي إلا لحظات حتى توسط الرجل ناديهم

[145] مشهور حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ في حقه صلى الله عليه وسلم أنه: (كان خلقه القرآن) رواه مسلم.

الظـالم، وكانـت المفاجـأة الكبـرى!.. هـا هـو ذا يكشـف عـن وجهـه المتـوهج بـالنور، ناظرا مرة إلى ملأ الطغاة، وناظرا أخرى إلى الرسل الثلاثة، ثم إخرى إلـى جمـوع المستضعفين! فما أعظمها من مناسبة أن يتركها كلمة خالـدة فـي أذن الزمـان، تمتـد أنوارهـا إلـى يـوم القيامـة! ومـا أعظمهـا مـن مناسـبة أن يلقيهـا ذكـرى فـي قلـوب المستضعفين، يبلغها الشاهد للغائب؛ عسى أن تستيقظ القلوب الواجفة من غفلتهـا، وتخرج من خوفها الوهمي! وليكن دمُه - بعد ذلك - ثمنـا لظهـور الحق وانتصـاره، ولانتشار الهدى بين الناس، وليهنأ هو بعدها بالمصير الكريم، شهادةً يَحْيَى بهـا ولا يموت أبداً!

وانطلـق الشـهيد يلقـي خطبتـه الرفيعـة ويعلـن بلاغَـه المبـين، ويـؤدي شـهادتَه الملتهبة:

(قَالَ: يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ! اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ! وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً؟ إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنقِذُونِ! إِنِّـيَ إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ! إِنِّـيَ آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ!)

كانت الكلمات من القوة بحيث تربك الطغاة إرباكـا، وتفتح بصـائر المستضـعفين على الحقيقة بَيِّنَةً ناصعة! فهؤلاء الطغاة الذين يهمون الآن بقتل الرسل، يسـمعون نداءً شديداً وأمراً قويـا باتبـاع الهدى الذي جـاء بـه المرسلون! بدل البـوء بجريمـة قتلهم، وهم رسل الله رب العـالمين! فهؤلاء هم المهتدون وهم الذين علـى الحق! يبلغون رسالات الله ولا يتقاضون علـى ذلك أجراً إلا أجر الآخرة! ويلتفت حبيـب النجار إلى نفسه ليجعلها مَثَلاً – وقد كـان من أول المؤمنين – ويوجـه إليهـا سؤالا إنكاريـا شـديداً، القصـد بـه أن يقـرع قلـوب الطغـاة الكفـرة، ويكسـر أغـلال المستضعفين: (وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟) وإنـه لحجـاج قوي مبين! كيف لا أعبد الذي خلقنـي أول مـرة؟ وعلـى غير مثـال سـابق! أي أنـه - جل جلالـه - أبـدع خلقـي إبداعاً! وذلك معنـى الفطـر. وحجـة الخالقيـة هـي أعظـم حجـة رحمانية على الخليقة كلها! ولذلك فقد توجـه الداعيـة حبيب إلـى المـلأ مناديـا: فمن منكم له مثل هذه الخاصية المعجزة؟ وأيٌّ من هذه الأحجـار الصـماء البكمـاء يصـنع مثل ذلك؟ ثم إنكم أيها الملأ جميعا لميتون! فمن لـم يمت اليوم مـات غدا! وإلـى الله وحـده المرجـع والمصير الذي لا محيد عنـه أبداً! فتلك حقيقـة يـوم الحسـاب الـذي ينتظركم أيها الكفرة الظلمة! ثم كيف لي أن أتخذ مـن دون هذا الخـالق العظيم آلهـة زور وبهتـان؟ أي جهـل هـذا وأي سـفه؟! كيـف؟ ولـو قضـى الله علـيَّ بضـر فـإن أصنامكم لا تستطيع كشـف شـيء منـه عنـي أبداً! لا بـذاتها ولا بشـفاعتها عند الله! لأنمـا هـي أحجـار صـماء، غدا ستكون هـي نفسـها حطبـا لجهنم! فالفاعل فـي هذا الكون إنما هو الله رب العالمين وحده! هو الخالق له، وهو المدبر لـه، وهو الراعـي

لـه، هـو الحـي القيـوم، القـائم علـى كـل نفـس وعلـى كـل مخلـوق فـي السـماوات والأرض! لا يغيـب عنـه شـيء ولا يعجـزه شـيء سـبحانه جـل جلالـه! ولـو أننـي اتخـذت آلهـة من دون رب العـالمين، فمعنـى ذلك إذن أننـي فـي ضـلال مبـين! وأي ضلال أبين من العدول عن توحيد خـالق كل شـيء إلـى ظلمـات الشـرك ومتاهاتـه، واتخـاذ الأوثـان والأصـنام - الحجريـة أو البشـرية - أربابـا مـن دون الله الواحـد القهار!؟ ألا ذلك هو الضلال المبين حقا! كلا! كـلا! بـل أنـا مؤمن بـالله مصدِّق بمـا جاء به رُسُلُ الله! ثم التفت الرجل بقوة إلى الرسل الثلاثـة وهو يعلـن بصـوت عـال فـي المـلأ كلهـم: (إِنِّـيَ آمَنْـتُ بِـرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ!) كلمـة أشْـهَدَ الرسـلَ عليهـا؛ توثيقـا لإيمانـه – وهـو يـرى خنـاجر الغـدر تمتـد إليـه بسـرعة - فأعلنهـا كلمـة حـق فـي العالمين!

كانـت الكلمـات أقـوى ممـا تطيقـه آذان الطغـاة الكفـرة! وكانـت أشـد ممـا يتحملـه كبرياؤهم العنيد! فما استطاعوا سماع المزيد! أما حبيب فقد كفى وشفى! وبَلَّغَ على أتم ما يكون البلاغ، وألقى في الجموع ما يكون ذِكْرَى: (لِمَنْ كَانَ لَـهُ قَلْـبٌ أَوْ أَلْقَـى السَّمْعَ وَهُوَ شَـهِيدٌ!)(سـورة ق: 37) ولـذلك مـا أن وصـل الرجـل قمـة بيانـه وأوج استدلاله، فتبين الحق أبلج لذي عينين؛ حتى انقض عليه الطغـاة طعنـا فـأردوه علـى التـو قتـيلا! كـلا! بـل شـهيداً يحلـق مـن لحظتـه تلـك فـي فضـاءات الرضـى الربـاني الكريم! وكانت البشرى عظيمة! وكان المقام رفيعا! فالله أكبر ولله الحمد!

ومـا أن فاضـت روحـه الطـاهرة حتـى سَـمِعَ الإذن الإلهـي الكـريم، تبشـره بـه الملائكة أن: "اُدْخُلِ الجنَّة!" فدخلها مباشرة! ولا رأى بعدها من كـرب أو ضـنك، ولا حتى ذاق عنت لحظة انتظار! بل طار على التو بين أشجار الجنـان وأنهارهـا، يسرح حيث يشاء، حيا كريما، يرزق بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطـر على قلب بشر!([146])

فلله دره من رجل! كان كريما في حياته الأولى، وكان كريما في حياتـه الآخـرة! فلم ينس قومَه وهو فـي الجنـة، ولا تـرك الشفقة عليهم، حتـى ولـو أنـهم قتلـوه ظلمـا وعدوانا! فبدل أن ينتقم منهم بالدعاء عليهم تَـأَوَّهَ متحسرا عليهم! وتَمَنَّـى: (قَـالَ يَـا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ!) وكـأن فـي نفسـه شـيئا من تتمة خطابه الذي ألقاه فيهم قبل لحظات، يريد إتمامه الآن..! الله أكبر! أي رجل

[146] عن أبن مسعود - رضـي الله عنـه - أن رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم قـال: (إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة تحت العرش، تسرح من الجنة حيث شـاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل! فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئا؟ قـالوا: أي شـيء نشتهي ونحن نسرح من الجنـة حيث شئنا؟ فيفعل ذلك بهم ثـلاث مرات. فلمـا رأوا أنهم لـم يُتْرَكُوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا فـي أجسادنا؛ حتـى نرجع إلـى الدنيا؛ فنُقْتَلَ في سبيلك مرة أخرى! فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُرِكُوا!) رواه مسلم.

هذا؟ بل أي مؤمن صِدِّيق هو؟ وأي مخلص لله على أتم ما يكون الإخلاص!؟ يا ليت! يا ليت! نداء تمن وحسرة! يا ليت قومي يعلمون بما صرتُ إليه من رحمة الله، غفرانا شاملا لما تقدم من ذنبي وما تأخر، وكرما فياضا من لدن رب غفور رحيم! آه لو علموا لتبرؤوا من شركهم ولصاروا مؤمنين! عسى أن يغفر لهم الله كما غفر لي، وعسى أن يكرمهم كما أكرمني! فنلتقي ههنا أجمعون! فيا ليتهم يعلمون!

وتنتهي قصة حبيب النجار ببيان سُنَّةٍ ربانية ثابتة! هي عبرة للمؤمن وحسرة وندامة للكافر! وذلك قوله تعالى: (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ. إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ! يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ! مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون!)

لكنَّ الأسف الكبير أن الإنسان قلما يتعظ بسنن الله في التاريخ! ويظن أن ما مضى لم يكن ليتكرر أبدا! بينما الحياة اليومية تشهد أن سنن الله في الاجتماع البشري ثابتة لا تتبدل ولا تتحول! والإنسان الضال أعمى لا يبصر منها شيئا! فيا لخسارة البشرية! ها هي ذي تضرب في تيه الظلمات، ومنادي الرحمن على رأسها ينادي أنْ: هذا نور الله فوق رأسكِ على مد ذراع؛ فَاقْدَحِي زِنَادَ الإيمان تَسْتَنِرْ لك الطريقُ، محجةً بيضاء ليلها كنهارها! ولكنْ وَا أسفاه! أين من يمد يده!؟ فالمؤمنون هم القليل أبداً! (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ!)(سبأ: 13)

فما من رسول أرسله الله إلا كذَّبه قومُه، ولقي منهم عنتا! وما من قوم غلب كفارهم على مؤمنيهم إلا أهلكهم الله وقطع دابرهم! سنة الله التي لا تتبدل أبداً! (وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا!)(الفرقان: 39)

والتتبير هو الإبادة الشاملة التي تقطع دابر القوم ونسلهم إلى الأبد! وتلك كانت عاقبة أهل القرية الذين قتلوا حبيب النجار الصديق الشهيد! فكان ذلك يوما من أيام الله! قال جل جلاله: (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ. إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ!) أي: وما أنزلنا ملائكة القتال من السماء لتعذيب هؤلاء الطغاة، وما كنا منزلين لها على الأمم التي قضينا عليها بالهلاك العام، بل نبعث عليهم عذابًا شاملا يدمرهم ويقطع دابرهم! فما كان هلاك هؤلاء إلا بصيحة واحدة، فإذا هم موتى هالكون! والخمود: انقطاعُ النفَس وانعدام الحركة!

وهذا من عجيب أمر الله وحكمته البالغة. فهو - جل جلاله - قد أنزل ملائكة القتال نصرةً لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم؛ تخويفا لكفار قريش وتثبيتا للمؤمنين! وقد عَلِم سبحانه أن بعضا ممن قاتل رسولَه في بدر من الكفار، سيسلم قريبا ويقاتل معه يوم أحد! وأن كثيرا ممن قاتله في أُحُدٍ سوف يسلم في نهاية المطاف – بعد الفتح أو قبله - وينصر الله به الدين في مواطن عديدة، في عهد

النبوة وبعدها! فكانت الملائكة لذلك لا تقتل إلا من قَدَّر الله ألا يسلم أبدا! وربما لم تقتل أحدا وإنما أفزعت القوم إفزاعا؛ فيكون النصر بذلك للمؤمنين. فهي لا تنزل إذن للإبادة الجماعية. بل إذا أراد الله أن يقطع دابر قوم فإنه - جل جلاله - إنما يرسل عليهم عذابا سريعا – وربما امتد أياما - يفنيهم عن آخرهم! كما وقع لقوم نوح، ولعاد، وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وغيرهم كثير، نعوذ بالله من عذابه وعقابه! قال جل جلاله: (فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا! وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ!)(العنكبوت: 40).

والصيحة نزلت بهؤلاء القوم كما نزلت بمدين قوم شعيب، وبثمود قوم صالح، ونزلت أيضا بقوم لوط مع الخسف والرجم بالحجارة! والعياذ بالله!

والصيحة صوت عظيم يقع على القوم الظَّلَمة من السماء كالصاعقة، فيزلزل الأسماع بما لا تطيقه الأعصاب؛ حتى يهلكوا عن آخرهم! قال ابن كثير رحمه الله: (قال المفسرون: بعث الله إليهم جبريل عليه السلام، فأخذ بعضادتي باب بلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم! لم يبق فيهم روح تتردد في جسد!)([147])

سُنَّة الله في الذين طغوا في الأرض وسخِروا من أمر الله العظيم! (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون!) وإنه لتعبير قرآني عجيب! إنه يحكي شعور المؤمن العالم بالله وبأمره؛ إذ يرى إصرار البشرية على الضلال والتيه! ويرى المآل المأساوي الرهيب الذي ينتظرها؛ فلا يملك إلا أن يتأسف ويتحسر! كما يجوز أن يكون المعنى أنه يحكي حسرة الكفار على أنفسهم وندمهم على ما سخروا من الرسل وكذَّبوا؛ لَمَّا عاينوا عذاب الله يوم القيامة!([148]) والأول أنسب للسياق، فهو تعبير دال على الأسف على هلاك القوم وخسرانهم، تتميما لقول حبيب النجار: (يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ!) فهو أسف وحسرة محكية عن المؤمن المتدبر لحالهم، الناظر في

---

[147] تفسير ابن كثير: 573/6.

[148] وهو الذي رجحه جمهور المفسرين. وقال القرطبي: (قال ابن عباس: " يا حسرة على العباد " أي يا ويلا على العباد! وعنه أيضا: حل هؤلاء محلَّ مَنْ يتحسر عليهم! وروى الربيع عن أنس عن أبي العالية أن العباد ههنا الرسل، وذلك أن الكفار لما رأوا العذاب قالوا: " يا حسرة على العباد!" فتحسروا على قتلهم وترك الإيمان بهم، فتمنوا الإيمان حين لم ينفعهم الإيمان. وقال مجاهد وقال الضحاك: إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل! وقيل: " يا حسرة على العباد " من قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، لما وثب القوم لقتله. وقيل: إن الرسل الثلاثة هم الذين قالوا لما قَتل القومُ ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، وحل بالقوم العذاب: يا حسرة على هؤلاء...) تفسير القرطبي: 23/15.

مصيرهم! كما في قوله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: (فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ! إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ!)(فاطر: 8) فقد كان - صلى الله عليه وسلم - يأسف ويتحسر على إصرار الكفار على كفرهم؛ لِمَا جعل الله في قلبه – عليه الصلاة والسلام - من الرحمة والشفقة الشديدة. فأرشده الله تعالى إلى أن أمثال هؤلاء لا يستحقون ذلك! وكذلك قال تعالى - من قبل - في حق إبراهيم عليه السلام: (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ! إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ!)(هود: 74-75)

تلك كانت قصة حبيب النجار ومآلاتها الجليلة، وما حكم الله به بينه وبين قومه! إنها قصة رجل أدمن الإيمان حتى تعلق قلبه بالله، ثم تدفقت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه! فكان مثلا ربانيا لِخُلَّصِ الدعاة المؤمنين، وصارت قصته قرآنا يتلى إلى يوم القيامة! وإنها لقصة تنبض بما لا ينحصر من رسالات الهدى، ما يضيء ظلمات هذا العالم كله لو أشعلت البشرية منها قنديلا واحدا!

3- الهدى المنهاجي:

وهو ينقسم إلى إحدى عشرة رسالة هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في أن البلاغ المبين ليس في زخرف القول، ولا في ترصيف الجمل وتنميق العبارات، وإنما هو في إصدار الكلام الصادق الذي ينبض بالحياة، الكلام الذي ينبع من أعماق القلب، فلا تفارقه حرارة الوجدان ومواجيد المحبة والإخلاص، حتى يقع في قلوب السامعين غضا طريا! فالبلاغ المبين هو تعبير عن حرارة الإيمان ومكابدة القرآن، في زمن التيه والضلال! حرصا صادقا، وإشفاقا خالصا، على جموع التائهين، وقوافل الضالين، وقياما بحق رب العالمين!

- الرسالة الثانية:

في أن البلاغ المبين – بهذا المعنى - هبة من الله تعالى، هبة يتلقاها الداعية على قدر إخلاصه وعلى درجة إيمانه! وليس صناعة كسبية يستدعيها متى شاء! فإن كان فيها شيء من هذا فبالتبع لا بالأصالة! وقد حدث ذات يوم أن قُدِّمَ رجلٌ صالح لوعظ الناس في مجمع، لكنه لم يكن قد تعلم من بلاغة الخطاب شيئا، حتى إذا استجاب بعد إلحاح شديد عليه من بعضهم؛ نظر في الجمع لحظة، ثم بكى حتى بلغ الناسَ نشيجُه، ولم ينبس بكلمة! فبكى الجمع كله ببكائه! وكان ذلك أبلغ خطاب وأنصع بيان! وبالمقابل قد نرى آخرين يتصدرون المجالس، ويعتلون الكراسي، يرصفون الكلام ترصيفا، وينمقون التعبير تنميقا، لكنهم لا يَلْقون قبولا ولا ترحيبا؛ لأن مفاتيح القلوب بيد الله وحده، لا يفتحها إلا للصادقين!

فالبلاغ المبين قبل أن يكون خطابا هو شعور! والشعور لا يُكْتَسَبُ، ولكنه يُتَلَقَّى من الله، على قدر تفاني العبد في محبته تعالى وطلب رضاه! وذلك هو أساس الطريق إلى القلوب.

- الرسالة الثالثة:

في أن المحبة الخالصة من أهم أسباب القوة والشجاعة، فعلى قدرها تكون عزيمة المرء في خوض غمار البلاء! وقديما قالوا:"من عرف ما قصد هان عليه ما وجد!" وقال آخر مناجيا ربَّه عز وجل:

لقد وَضَحَ الطريقُ إليكَ قَصْداً *** فما أحدٌ أرادكَ يَسْتَدِلُّ

فإنْ وَرَدَ الشتاءُ ففيكَ صَيْفٌ *** وإنْ وَرَدَ المَصِيفُ فَفِيكَ ظِلُّ!

فمن عرف ربَّه حق المعرفة، تعلق به قلبُه رَغَباً وَرَهَباً، وسعى إليه محبةً وإجلالا! فالله جل جلاله رب كريم! له الأسماء الحسنى والصفات العُلَى، تجمَّلَ سبحانه بخصال الكمال، وتنَزَّهَ عن النقص والمثال! وأفاض على عباده بالنعم خَلْقاً ورزقاً ورعايةً، ثم أرسل رُسُلَهُ الكرام بالهدى والنور؛ لبيان الطريق إلى تفريد جماله وجلاله! (ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ!)(الأنعام: 102)

فمن نظر إلى ذلك ببوارق الصدق، وسعى إليه عبر منازل الإخلاص؛ امتلأ قلبه محبة ويقينا، فباع نفسه لله، وصار له عبدا حقا! ثم أكرمه الله تعالى بعزيمة الصِّدِّيقِينَ!

ولقد أكرم الله عددا من الصحابة الكرام بهذا المقام العظيم، منهم الصحابي الجليل خُبيب بن عدي الأنصاري - رضي الله عنه - عندما أرسله النبي صلى الله عليه وسلم مع نفر من أصحابه إلى قريش، فغدروا بهم وقتلوهم من بعد ما أعطوهم الأمان! فلما رأى خبيب أنهم قاتلوه أنشد:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا *** عَلَى أيِّ شِقٍّ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ *** يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ([149])

ومنهم أيضا: حَبيب بن زيد بن عاصم الأنصاري رضي الله عنه، الذي بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى مسيلمة الكذاب، فغدر به وقتله! فقد روى الإمام الطبري بسنده أنَّ كعب الأحبار - رضي الله عنه - لما (ذُكِرَ له حبيب بن زيد بن عاصم أخو بني مازن بن النجار، الذي كان مسيلمةُ الكذابُ قَطَّعَهُ باليمامة، حين جعل يسأله عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجعل يقول له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم! ثم يقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع! فيقول له مسيلمة لعنه الله: أتسمع هذا ولا تسمع ذاك؟ فيقول: نعم! فجعل يُقَطِّعُهُ عُضْواً

---

[149] رواه البخاري

عُضْواً، كلما سأله لم يزده على ذلك حتى مات في يديه! فقال كعب: - حين قيل له: اسمه حَبيب – "وكان والله صاحبُ يس اسمه حَبيب!")[150]

ما كان لهؤلاء جميعا أن يهرقوا أرواحهم بهذه الطرق الشجاعة، ولا أن يشهدوا تعذيبهم وتقتيلهم البطيء على ثبات عجيب، ولا أن يتفانوا في نثر أشلائهم شلوا شلوا على بساط استشهادهم الطاهر، لولا ما سكن قلوبَهم من وهج الإيمان التحقيقي، ونور المحبة الكاشف لهم عن جلال المقام الإلهي العظيم وجماله! فأولئك هم الأولياء صدقا، وأولئك هم السادة حقا! (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ!)(البقرة: 165)

- الرسالة الرابعة:

في أن الدعوة إلى الخير، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، تقتضي المسارعة والمبادرة. وذلك هو مقتضى الإيمان الصادق، فالمحب السائر إلى محبوبه لا يعرف التثاقل في طريقه ولا التراخي، بل يقطع المسافات سعيا! وكيف لا؟ والقلب قد التهبت مواجيده بأشواق الوصول، وتعلقت آماله بنيل الرضى والقبول..! وقد جاء حبيب النجار من أقصى المدينة يسعى! والسعي: سير سريع أقرب إلى العَدْوِ! جاء يسعى غيرةً على محبوبه، ودفاعا عن حماه حتى نال ما نال من كرم الشهادة!

ومن ثَمَّ فالداعية الصادق لا يتأخر في طريق دعوته، ولا يتوانى عن إجابة داعي الخير كلما دعا، بل يبادر إليه ويسارع، ويجعل تلبية ندائه أول همه ومسعاه. فتلك صفة الصالحين حقا التي بها نالوا مقام القبول عند الملك الكريم: (يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ!)(آل عمران: 114).

- الرسالة الخامسة:

في أن من تمام الحكمة أن تدخر الكلمة المناسبة للموقف المناسب زمانا ومكانا! وأن مواجهة الباطل بالقوة قد تكون جهادا واستشهادا وقد تكون فتنة وتهورا! والضابط في ذلك أمران اثنان هما:

- أولا: التحقق من إخلاص العمل لله نيةً وقصدا، فكثير من التهورات المدمرة المسماة اليوم (جهادا) إنما تكون مدخولةً بهوى خفي وعُجْبٍ شقي؛ فتنقلب فتنةً على صاحبها وعلى الناس!

- ثانيا: تحري الحكم الشرعي الصحيح في العمل! ولا يكون ذلك إلا بمراجعة أهل العلم، ممن اشتهر بتخصصه الشرعي، وورعه الديني وفضله الخُلقي، من العلماء الأتقياء الناصحين الفضلاء، فهم أهل الحل والعقد في مثل هذه الأمور. ولا

---

[150] تفسير الطبري بتحقيق أحمد شاكر: 505/20. والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر: 1/ 95.

يُرَاعَى في ذلك صاحب الرأي الشاذ، ولا قول من لم يتمرس بفقه النصوص واستنباط أحكامها، ولو كان من حفاظ المتون! فإنما العلم فَهْمٌ عن الله ورسوله. وهذا أمر يلتبس على كثير من الناس! وهو واضح في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ! وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً!)(النساء: 83).

- الرسالة السادسة:

في أن التعريف بالله من أهم عوامل نجاح الخطاب الدعوي. وإنما الغفلة تقع للناس بسبب نسيانهم ربَّهم الذي خلقهم، فبدل أن يعبدوه يعبدون أهواءهم! (وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ!)(سورة الحشر: 19) فالتعريف بالله - جل جلاله - وبحقوقه على العباد، وما له عليهم من حق الإخلاص والتوحيد؛ بما خَلَقَ ورَزَقَ ورَعَى وهَدَى، هو أساس خطاب الأنبياء جميعهم. وأن له سبحانه يوما – هو اليوم الآخِر بمآلاته - لعرض ذلك كله جميعا. فمن عَرَفَ اللهَ خاف مقامَه! وذلك هو مضمون خطبة حبيب النجار.

- الرسالة السابعة:

في أن نصرة المؤمنين المستضعفين - متى ما تبين صدقهم وإخلاصهم - واجبة على المسلمين عامة، وعلى الدعاة منهم خاصة! فلربما تعرض المسلمون أو الدعاة، إلى الأذى في الله، بهذا البلد أو ذاك، فإذا تبين أنهم أهل صدق في سيرهم وعملهم، وتحققت مظلمتهم، بمعنى أنهم ليسوا أهل فتنة وأهواء؛ فقد وجبت نصرتهم! ولو كلفت ما كلفت من المشقة! هذا هو الأصل الجاري في الدين، والأمر العام المستمر فيه. اللهم إلا إذا تبين لأهل العلم أمر آخر؛ لفقهٍ خاص بنازلة معينة، فيتصرفون على غير الأصل؛ مراعاةً للمآل والمصلحة الشرعية الراجحة في تلك المسألة. لكنهم لا يخرجون عن إحدى المراتب الثلاث من مراتب النصرة: النصرة باليد أو باللسان أو بالقلب. سواء كان ذلك سرا أو علنا، على حسب ما تقتضيه المصلحة الشرعية، التي يحددها العلماء الحكماء.

- الرسالة الثامنة:

في أن إعلان الإيمان والالتزام بالدين - حيث يكون الإعلان دعوةً إلى الله وتترجح حكمته - من أهم أسباب التقرب إلى الله، ولو أدى ذلك إلى ما أدى إليه من المشقة؛ لما فيه من مصلحة انتشار الهدى وانتصار الحق. وقد سنَّها حبيب النجار كلمةً باقية في عقبه إلى يوم القيامة، عندما صاح في الملأ: (إِنِّيَ آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ!) فإعلان الدين هو الأصل.

وقد شرع الإسلام بعض الشعائر على هذا الأساس مثل الأذان، وصلاة الجماعة بالمساجد، والحج، وغيرها من الشعائر الإعلانية، فالأمر المعلن أقرب إلى الحفظ

والاستمرار. ولذلك كان إعلان المرء إسلامه والاعتزاز به أصلا بذاته؛ لما فيه من نصرة الدين وتكثير سواد المسلمين. خاصة في الظروف الحرجة حيث يكون الاضطهاد والظلم لاحقا بالمسلمين عامة، وبالمؤمنين المتدينين منهم خاصة! كما هو واقع بعض البلدان اليوم.

وقد كان الصحابي الجليل بلال رضي الله عنه – كما هو مشهور في السيرة – يُعَذَّبُ بالحجر الصلد في الرمضاء بمكة؛ رجاء أن يتراجع عن دينه، لكنه يعلنها أمام جلاديه بقوة: "أَحَدٌ أَحَدٌ!" تلك هي العزيمة. وللرخصة محالها المعروفة في مثل قوله تعالى: (إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ)(النحل: 106). ولا خلاف في أن الأجر على قدر المشقة! اللهم إلا أن تدعو المصلحة الشرعية إلى خلافه استثناء من الأصل. فتلك مقادير يقدرها أهل العلم. وإنما العبرة ههنا بالأصول التربوية الكلية الجارية على العموم.

والمشكلة أنه ربما أخفى بعضُهم دينَه أو صلاتَه؛ خوفا من مجرد السخرية – فقط - اللاحقة بالمتدينين في بعض البيئات المغتربة والأوساط العلمانية الفاجرة! وهو قطعا خلاف الأَوْلَى. بل وجب أن يعلنها بقوله وسلوكه، كما أعلنها حبيب: (إِنِّيَ آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ!) وإلا فلو تَخَفَّى كل ذي دين بدينه لاندثر الهدى والصلاح في المجتمع! وتلك أسوء مفسدة قد تلحق بالأمة! ولذلك قال الله جل جلاله: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ!)(فصلت:30). فقوله تعالى: (قَالُوا رَبُّنَا اللهُ) أي: صرحوا بتوحيده والتبرء مما سواه، كما هو في أغلب كتب التفسير. والأصل في القول الإعلان. ويشهد لذلك أحوال الصحابة الذين أوذوا في الله في المرحلة المكية وبعدها. فقد كانوا يعلنونها وسط نوادي قريش إعلانا! فهم إذن قد أعلنوا إيمانهم بالله وتوحيدهم له جل علاه وأظهروه إظهارا! وهو من مقتضيات قول النبي صلى الله عليه وسلم: (قل: آمنتُ بالله ثم استقم!)([151]).

- الرسالة التاسعة:

في أن على الداعية أن يتخذ الشفقة على الناس، والرحمة بهم، والحرص على نجاتهم، مسلكا لخطابه ومعاملته لهم. فقد كان أول خطاب حبيب النجار في ملأ الطغاة قوله: (يَا قَومِ!) بما في هذا النداء من الاحتضان العاطفي، واللطف والعطف والإيناس. وقد بقي ذلك هو شعوره حتى بعد قتلهم إياه كما تبين من قبل! فكان نداؤه المتأسف المتمني: (قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ!) وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا آذاه قومه قال: (رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ!) ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِي نَبِيًّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ

---

[151] رواه مسلم.

قَوْمُـهُ فَـأَدْمَوْهُ فَهُـوَ يَمْسَـحُ الـدَّمَ عَـنْ وَجْهِـهِ وَيَقُـولُ رَبِّ اغْفِـرْ لِقَـوْمِي فَـإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ!)([152]) وهو مقتضى قول الله تعالى في محكم كتابه: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ)(التوبة: 128). وقوله سبحانه: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)(آل عمران: 159).

- الرسالة العاشرة:

في أن على الداعية أن يحرص على التبرؤ من شهوات الحياة الدنيا والتقلل من متاعها، وألا يجعل لنفسه حظا دنيويا يجنيه من دعوته! فالدعوة الصادقة إنما هي الخالصة لله! لا مطمع فيها ولا مغنم، ولا غاية إلا ابتغاء وجه الله ورضاه، والاجتهاد في أداء حقه العظيم، دعوةً وبلاغاً. وقد كانت أول حجة حبيب النجار على قومه قوله: (اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ!) كما أن الله - جل ثناؤه – قال لرسول محمد صلى الله عليه وسلم: (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً!)(الفرقان: 57) فمعنى ذلك أن هذا يجب أن يكون واضحا في ذهن الداعية والمدعويين على السواء! فهي سبيل واحدة ترتقي مدارجها عبر منازل الزهد والإخلاص، سيرا إلى الله وحده دون سواه. وأن أي انحراف عنها فمعناه خسران الداعية حالا ومآلا؛ إلا أن يتغمده الله برحمته!

- الرسالة الحادية عشر:

في أن الله - جل جلاله - مطلع على عباده كلهم، يشكر لمحسنهم، ويمهل مسيئهم حتى تقوم عليه الحجة، فإذا تمادى في طغيانه أخذه أخذ عزيز مقتدر! فَمُدَبِّرُ أمرِ الهدى والضلال إنما هو الله تعالى، وأما الدعاة إليه سبحانه فإنما يقومون بوظيفة البلاغ. فلا يظنن أحد أنه هو الصانع لصلاح الناس والمانع لفسادهم! وإنما أسند الله الدعوة والبلاغ للمؤمنين ليبتلي الناسَ بعضهم ببعض. قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ؟ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً!)(الفرقان: 20).

وعليه؛ فمن أخلص العمل لله في الدعوة إليه تعالى، ليكن على يقين من أن الله - جل ثناؤه – يقربه وينصره! فهو تعالى رب شكور، لا يخذل عبده أبدا! فوجب على الداعية المخلص السَّعْيُ لتحصيل اليقين في معية الله تعالى له، فلا يفقد المشاهدة في أن الله إنما يسوقه للتي هي أحسن؛ ما دام قد صدق اللهَ، واجتهد وُسْعَهُ، واتخذ جميع الأسباب الشرعية في عمله. فليوقن أن كل ما يحدث له ولدعوته - بعد ذلك – من عسر أو يسر، إنما هو مراد الله، وأن الخير - كل الخير - هو في مراد الله. فلا يسيئن الظنَّ بالله أبداً!

---

[152] متفق عليه.

4- مسلك التخلق:

البلاغ المبين إنما هو عزيمة! وأما مسلك الدخول في ابتلاءاته فهو راجع إلى تدشين سير تعبدي عميق، يفضي بصاحبه إلى مقام المشاهدة، الذي عنه تتولد منزلةُ الصِّدِّيقِيَّةِ. وهي أعلى منزلة إيمانية بعد النبوة. كذلك جاءت رتبتها – ذِكْراً - في قول الله تعالى: (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً)(النساء: 69)

وقد كان حبيب النجار صِدِّيقاً شهيداً. فالشهادةُ كانت مآله، والصدِّيقيةُ كانت حاله ومقاله. وكثير من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كانوا كذلك. وفيهم نزل قوله تعالى: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)(الأحزاب: 23)

والصِّدِّيقِيَّةُ في ذاتها منازل ومراتب. وأبو بكر الصديق – رضي الله عنه – كان إمامَ الصِّدِّيقِينَ في هذه الأمة! وعلى الداعية أن يجعل هؤلاء الفحول نماذج يقتدي بها في دعوته؛ عسى أن ينال من صفاتهم ما يجعله على طريقهم، وإن لم يصعد إلى قممهم العالية([153]). فجبال الإيمان مدارج، كلما اجتهد العبد في مكابدتها ازداد رفعة وعلوا؛ حتى يكون من أهل العزائم بإذن الله؛ فَيُجْرِيَ الله على لسانه عزيمة البلاغ المبين!

وإن الطريق العملي لذلك إنما هو الصدق مع الله في القول والعمل، فلا يصدر المؤمن في شيء من ذلك إلا عن خالص الصدق، يتحراه تحريا في كل شيء. فلو صلى أو صام أو تصدق أو جاهد، لم يخط خطوة واحدة في فعله حتى يُخَلِّصَها تخليصا لله! فلا يتصرف في شيء من أمره إلا لله وبه! وذلك هو الصِّدِّيق. فعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ! فَإِنَّ

---

153 عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ! لَئِنْ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ! فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ! يَعْنِي أَصْحَابَهُ. وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ! يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ. ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ! الْجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ! إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ! قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ! قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ! وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ! فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ! قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: "مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ"، إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

وَقَالَ: إِنَّ أُخْتَهُ وَهِيَ تُسَمَّى الرُّبَيِّعَ كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ امْرَأَةٍ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا! فَرَضُوا بِالْأَرْشِ وَتَرَكُوا الْقِصَاصَ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ!") متفق عليه، واللفظ للبخاري.

الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً! وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ! فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا!)[154]

المجلس الرابع
في مقام التلقي لمشاهَدات اليقين، سياحةٌ في عالم الملك والملكوت!

1- كلمات الابتلاء:

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ(31) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ(32). وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ(33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ(34) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ(35) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ(36) وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ(37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ(39) لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(40) وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ(41) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ(42) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ(43) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ(44)

2- البيان العام:

هذه طبقة أعلى من البيان! طبقة لا يبلغها رسولٌ ولا صِدِّيقٌ ولا أي داعية! لأن هؤلاء جميعا يصدر بيانهم من موقع العبدية الخاضعة لله رب العالمين، ولو تفاوتت طبقاتهم في ذاتهم وبيانهم. أما البيان ههنا فهو صادر عن الذات العلية! والمتكلم ههنا – بلا حكاية – هو الله رب العالمين خالق الأكوان والناس أجمعين! يتكلم جل جلاله من عَلُ، عارضا لهيمنته على مُلْكِهِ ورعايته لخلقه؛ ولذلك فقد جاء الحجاج صادرا عن شؤون الربوبية مباشرة! بيانا لا يستطيعه مَلَكٌ ولا بشر، مهما بلغت منـزلته عند ربه! فكانت الآيات هي بيان حقائق القدرة الإلهية والعظمة الربانية، من مشاهد المُلْك والملكوت!

أجل، ههنا استأنف الحق تعالى تسفيه إصرار الكفار على تكذيب الرسل، وإنكار حقيقة البعث، وبدأ سبحانه بعرض الآيات البينات على بطلان أوهامهم! قال جل جلاله: (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ؟! وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ!) ألا ينظر هؤلاء المستهزئون إلى من قبلهم من الأجيال

[154] متفق عليه.

التي أهلكناها، أنهم لا يرجعون إلى هذه الدنيا؟ لكنهم جميعا سيحشرون مع البشرية كلها - أولها وآخرها - ليوم البعث، حيث سيتم إحضار كل نفس للمثول يوم الحساب بين يدي رب العالمين!

قال المفسرون: وفي الآية رد على الدهريين القائلين بالتناسخ والدَّوْر، الزاعمين أن الموتى سوف يبعثون في هذه الدنيا مرة أخرى ولا وجود للآخرة!([155]) فبين الحق أن البعث إنما هو بعث واحد لا موت بعده، وهو يوم الجزاء! الذي تتفرق فيه البشرية – بعد قضاء الحق بين العباد - إلى مصيرين اثنين لا ثالث لهما: (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ!)(الشورى: 7). جعلنا الله من أهل النجاة برحمته!

ثم شرع سبحانه في عرض مشاهد عظيمة من شؤون ربوبيته، تدل بقوة على قدرته تعالى على البعث والإحياء؛ بما يقطع شك المترددين ويخرس ألسنة الجاحدين! قال جل جلاله: (وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ. وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ. لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ؟)

وآيةٌ لهم! والآية: هي العلامة الواضحة الدالة على أمر بقوة. وكما أن القرآن علامات، فإن الكون كله علامات على طريق البشرية.. فمن ذا يفتح بصيرته على مَشَاهِدِهِ ويقرأ؟

والإحياء آية من أعظم آيات الله في هذا الوجود! وهو سر من أدق أسرار الخلق، وله تجليات شتى لا تكاد تنحصر. والإنسان عاجز عن إدراك كنه الحياة وجوهرها، رغم أنه يتنفسها صباح مساء! وإنما الذي نعرفه هو بعض تجلياتها فقط، كالحركة والنمو وما شابه هذا وذاك؛ لأن الحياة سر من أسرار الحي الذي لا يموت! يهبه لمن يشاء وينزعه ممن يشاء. ومن ثم يفتح القرآن عيوننا على هذه الحقيقة العجيبة، التي ينكرها الكافر بجهله وطغيانه، فينكر البعث والنشور! ويضرب لنا إحياء الأرض الموات مثلاً.

والأرض تموت نعم، يغور ماؤها ويُحْتَطَبُ شجرها، وينقرض نباتها فتذروه الرياح، فلا يبقى بها أثر لخضرة، ثم تتصحر ويهجرها أهلها! وترحل عنها الحيوانات البرية والطيور! فلا يبقى بها أثر لحياة! لقد ماتت! وقد تبقى كذلك عدة أجيال! وربما مر بها عابر سبيل فيقول: أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها!؟ حتى إذا أراد الله إحياءها أنزل عليها ماءها غيثا متواترا، لا يدعها حتى يبعث فيها الحياة

---

155 قال ابن كثير رحمه الله: (ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفَجَرتهم من قولهم: "إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا" "المؤمنون: 37"، وهم القائلون بالدور من الدهرية، وهم الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها، فرد الله تعالى عليهم باطلهم، فقال: "أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ". تفسير ابن كثير: 574/6.

من جديد غضة طرية! فتنهض كأجمل وأقوى ما يكون ريعان الشباب حيوية وجمالا! ثم يعود إليها أهلها بعد هجرة طويلة، يُجْرُونَ عيونها المتدفقة، وأنهارها المترقرقة، ثم يزرعون ويغرسون، فإذا بالحقول ممتلئة حَبا وبركة، وإذا بالجنات والبساتين تتدلى أغصانها بمختلف الفواكه والثمار، وإذا بالطيور تملأ الفضاء هديلا وتغريدا! وإذا بالروابي تستعيد صيدَها ومرعاها.. ويمر عابر السبيل مرة أخرى فيقول: كأن الموت ما مر من هنا قط!

كل ذلك؛ إنما هو تسخير للعباد من الرحمن، ورزقٌ لهم من فيض رحمته جل جلاله، لا حول لهم فيه ولا قوة! عساهم يشكرون ويعتبرون، ويشهدون أن الله الذي أحيى هذه الأرض، قدير على إحياء كل موات متى شاء. بما في ذلك الإنسان وسائر الحيوان! ولذلك فالمؤمن العالم بالله، المتدبر لأحوال الأرض واختلاف تجلياتها بين موتها وحياتها، لا يملك إلا أن يسبح بحمد ربه! ومن ثَم جاءت تتمة السياق - تعليقا على هذا المشهد العجيب - قوله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ!)

والتسبيح تنزيه، فهو تعالى تنزه عن العجز الذي يصفه به الكفرة، حيث يقولون باستحالة البعث! بل هو تعالى الذي خلق الأزواج كلها، من النبات والإنسان وسائر الحيوان، ومما لا يعلم وجوده أو طبيعته إلا الله! فهو سبحانه الذي جعل الحياة في كل تلك الخلائق والأنواع، وأودع فيها سر استمرارها بالتزاوج والتناسل. وقد انفرد سبحانه بالخلق؛ فأنَّى يوصف بالعجز، وأنَّى يكون له شريك؟ ألاَ سبحانه وتعالى عما يصفون!

ثم يلفت الحق تعالى نظر الإنسان إلى الفَلك الدائر به وفيه، وما حوله من كواكب ونجوم، سخرها له تسخيرا. لولا وجودها لاستحالت حياته في الأرض! قال جل جلاله: (وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ!)

والتعبير بالسلخ هنا تعبير عجيب، فهو نزع غشاء أو غطاء، كما يُسلخ جلد الدابة عن جسدها! مما يدل على أن الليل هو الأصل، وأن هذا الكون وجود مظلم! وإنما يشرق ما يشرق منه؛ بما جعل الله فيه من أجرام نارية وسُرُجٍ مشتعلة، قال تعالى: (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا!)(نوح: 16) وقال: (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا!)(النبأ: 13) ولولا ذلك لظلت الأرض في ظلام دامس رهيب! قال سبحانه: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ؟)(القصص: 71) وما من نور أو ضياء إلا وهو مستمد من نور الله العظيم، إذ هو: (اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ!)(النور: 35)

وكما أن النهار نعمة لا تقدر بثمن، فكذلك الليل نعمة لا تقدر بثمن! ولا يمكن للمؤمن المتدبر لتعاقبهما إلا أن يستجيب لله بديع السماوات والأرض بالتوحيد والتفريد؛ حمداً لآلائه وشكراً لنعمائه!

وكل ذلك - أجراما وأفلاكا وحركات - مخلوق إلى أجل معلوم بِقَدْرٍ معلوم! مُحْكَمٌ بعلم الله ومحكوم بقدرته، لا يعزب عنه تعالى شيء، ولا يخرج عن قبضة سلطانه وجلال عزته شيء! فالشمس، هذا النجم الكبير الضخم المتفجر الملتهب، الذي يفوق حجم الأرض أضعافا مضاعفة، هي أيضا تجري في فلكها العظيم، سابحة في فضاء الله الفسيح، إلى قَدَرِها الذي قدره الله لها، وميقاتها الذي جعله الله لها! والقمر هذا الكوكب المنير، الذي يستمد نوره من الشمس، يتنقل في دورته عبر منازل مُقَدَّرَةٍ بعلم الله ودقة صنعه البديع! بدراً كاملا ثم أَهِلَّةً تختلف أشكالها وأحجامها منازل، ما بين لحظة الولادة ولحظة الأفول، حيث ينتهي إلى ما يشبه شكل عرجون النخلة القديم؛ بما يبدو عليه من شحوب وذبول!

وكما يتعاقب الليل والنهار في تداولهما على حياة الأرض؛ تتعاقب الشمس والقمر في إنارتهما للأرض أيضا، تعاقبا يجعل لكل منهما دوره الخاص به، نورا أو ضياء، فلا أحد منهما يُفسد دور الآخر أو يبطله، بل لكل منهما منزله أو فلكه الخاص به. وهما يجريان في أفلاك متباعدة مستقلة ولذلك قال: (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ!) فالشمس المشتعلة تمد القمر، وتجعله كالمرآة يعكس ضوءَها نورا هادئا جميلا، ثم يرسله إلى الأرض ليلاً عبر منازل معلومة، في دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس. فالشمس تخدمه ولا تزاحمه، بل إنه يؤدي وظيفته كاملة بالمقادير والمنازل التي جعلها الله له. وكما أن للقمر وظيفته المكفولة بتقدير الله العزيز العليم، فإن للشمس أيضا وظيفتها المكفولة بتقديره تعالى؛ حتى إذا استدارت الأرض نحو الشمس، انفجر ضوؤها على صفحتها الأخرى، فَجْراً يسوق بين يديه النهار قهراً بإذن الله! أي أن ظلام الليل ينقشع بين يدي ضوء الشمس انقشاعا حتميا، ولا حيلة له في التخلص منه والانفلات! بل إنه يندثر قَسْراً! وذلك لما جعل الله من سلطة عجيبة للضياء على الظلام! وهو معنى قوله تعالى: (وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ!) فالسبق هنا بمعنى: الغلبة والتخلص والانفلات. وهو من معانيه في العربية، على غرار قول الله تعالى: (وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ!)(الأنفال: 59)، وكذا قوله سبحانه: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ!)(العنكبوت: 4)([156]).

وكل ذلك حقائق كونية عجيبة، لم يبلغ العلم البشري الحديث منها - رغم تطوره الهائل بالنسبة إلى ماضيه - إلاّ بعض الظواهر وبعض النِّسَبِ ليس إلا! ولم تزل حقائقها الكونية تضرب في عمق المجهول من عالم الغيب، الخاضع لعلم الله

---

[156] ن. تفسير الآية في "التحرير والتنوير" لابن عاشور.

المحيط بكل شيء؛ ما يجعل المؤمن المتدبر لذلك كله لا يملك إلا أن يسبح خالقَ هذا النظام الفَلكي الجميل الجليل؛ تسخيراً للإنسان ساكن هذه الأرض، وابتلاءً له في الوقت نفسه!

ثم ينتقل التعبير القرآني - بعد ذلك - لعرض آية أخرى من معجزات الله جل جلاله، وعظمة قدرته وسلطانه، وحكمة تدبيره لشؤون العالمين، وهي هذه المراكب الصناعية والحيوانية، المسخرة للإنسان في البحر والبر والجو، التي كان ابتداؤها الصناعي سفينة نوح عليه السلام، والتي كانت معجزة ربانية عجيبة، وحقيقة تاريخية غريبة، لا يملك معها الإنسان إلا الحمد لله رب العالمين. فلولاها لما كان للوجود البشري اليوم في الأرض من أثر! ولكن الله قدر أن يستمر النسل الإنساني إلى ما شاء الله. فالمفسرون يجمعون على أن المقصود في هذا السياق "بالفُلْكِ المشحون" إنما هو سفينة نوح عليه السلام. ولذلك قال: (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ.) فكل الروايات عن ابن عباس وكثير من التابعين مجمعة على ذلك([157]) والسياق يؤيده. ومعنى المشحون: المملوءُ الْمُثَقَّلُ! وذلك بما حمل فيها نوح – عليه السلام - من أزواج الحيوانات والطيور، إضافة إلى الطائفة المؤمنة من قومه وما معها من متاع. ثم سارت مع ذلك آمنة محفوظة بأمر الله في محيط الأمواج الهائلة الضخمة!

وأما حمل الذرية ههنا فهو بمعنى حمل النسل، وهو الذي وقع في سفينة نوح، فقد أمر الله نوحا أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، من الإنسان والحيوان. وكان المؤمنون من قومه فقط، هم وحدهم من سُمح لهم بركوبها رجالاً ونساء، وأغرق الله الباقين! وهو عهد قديم من عهود البشرية، حيث لم يكن في الأرض يومئذ من الإنس غير قوم نوح! فلم يستمر النسل البشري بعد ذلك على وجه الأرض إلا بمن نجا من أهل السفينة! وكل من وُجِدَ بعد ذلك في التاريخ إلى يومنا هذا، من ملايير البشر، إنما كانوا من أصلاب تلك الثلة القليلة من أصحاب السفينة! فالذرية ههنا بمعنى النسل الذي لم يزل في عالم الذر. وهو تعبير استعمله القرآن، كما في قول الله تعالى عن آدم عليه السلام: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى!)(الأعراف: 172). فالذرية ههنا هي النسمات البشرية التي جعلها الله في ظهر آدم([158]). ولذلك لقب المؤرخون نوحا

---

[157] ن. تفسير الطبري، والقرطبي، وابن كثير، والسيوطي وغيرهم، ومن المعاصرين: ابن عاشور وسيد قطب.

[158] قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ؛ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ! الحديث...) رواه الترمذي والحاكم، قَالَ أَبُو عِيسَى: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

عليه السلام بآدم الثاني! وهي قصة لمن تأملها غريبة رهيبة! تدل على رعاية الله البالغة للإنسان ونعمته عليه وفضله!

فهذه السفينة الأولى في تاريخ البشرية، رغم ما يتصور من بدائيتها من حيث الصنع، فإنها لم تغرق بإذن الله، رغم أن كل أسباب الغرق كانت متوفرة فيها! فقد كانت مشحونة مثقلة بكل أنواع الكائنات الحية مما كان على وجه الأرض يومئذ ومما قدر الله استمرار نسله فيها، إضافة إلى الطائفة المؤمنة من الرجال والنساء والأطفال، ثم ظروف الطوفان الرهيب، وما كان عليه من هيجان شديد! مما وصفه القرآن أبدع تصوير في قوله تعالى من سورة هود: (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ!)(هود: 42). بينما ها هي ذي السفن اليوم تتمتع بأحدث الأجهزة الميكانيكية والإلكترونية لضمان سلامتها، ولكن عندما يقدر الله إغراقها يجعلها وأهلها من الهالكين! مما يُعْلَمُ معه ألا عاصم من أمر الله إلا هو! وذلك قوله تعالى في تتمة السياق: (وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ! إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ!) والصريخ: المنقذ الذي يستنجد به! فلا شيء من تقنيات العصر، ولا من تطورات التكنولوجيا تنفع الإنسان إذا حضر أجله! إلا إذا تجلت عليه رحمة الله، ورحمة الله وحده! والإنسان الأعمى اليوم يثق في تقنيات الحفظ والسلامة المعاصرة، ثقة تحجبه عن الله، فيعبد العلم البشري ومنتجاته منها ومن غيرها! وينسى أنما هي تسخير من رحمة الله، إذا قضى أمره عطلها تعطيلا! وحوادث العصر دالة على هذا أوضح دلالة! وما استمرار الحياة البشرية على الأرض إلا متاع قريب، له أجل معلوم وينتهي، ثم يُبعث الناس لرب العالمين! تلك هي خلاصة القصة البشرية (لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ!)(ق: 37)

3- الهدى المنهاجي:

وهو يتضمن الرسالات السبع التالية:

- الرسالة الأولى:

في أن الموت والحياة سر من أسرار الله في الملك والملكوت! وألا شيء من الخلق إلا وهو مبتلى بهما! والموت حقيقة يقينية لا يستطيع أحد إنكارها، ولا أن يتحداها. ولكن ماهيته لغز مغلق لا يدرك الإنسان منه إلا ظواهره، وأما حقيقته فلا يعرفها إلا بعد أن يذوقه! وكذلك الحياة، بما في ذلك هذه التي بها نحيا ونعيش في الأرض، فإننا لا نعرف منها إلا أعراضها، أما حقيقتها فهي مرتبطة بالروح، والروح من أمر الله المحجوب عن الخلق إلى يوم القيامة! الموت والحياة ابتلاءان يحكمان عمر الإنسان وأجله، فلا محيص له من الرضوخ لقدرهما! والمؤمن

عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". كما صححه الألباني في صحيح الجامع. وفي رواية الحاكم: (فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِثْلَ الذَّرِّ!) والذَّرُّ: دقيق الغبار المتناثر في الفضاء.

الكيِّس الفطِن هو من يتزود من هذه الحقيقة حياتَه كلَّها، فلا يخطو خطوة إلا على هداها، عابدا ربه حتى يأتيه اليقين!

- الرسالة الثانية:

في أن البعث حشرٌ شامل للبشرية جميعها، أولها وآخرها، بين يدي الله رب العالمين؛ لتنال جزاءها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر! فهذه حقيقة تملأ القلب رهبا! وهي دواء للغفلة الملمة بالقلوب؛ إذ تجعلها تراجع نفسها وتنظر في سوابق أعمالها ولواحقها. وإنَّ اتخاذها وِردا للقلب يتغذى به يوميا؛ لكفيل بترقية العبد إلى منزلة المحاسبة، صفةً كريمةً لا تزول بإذن الله.

- الرسالة الثالثة:

في أن زخرف الحياة الدنيا جناتها وبساتينها وعمرانها، كل ذلك إلى فناء! وأن التعلق الكامل بها غرور وجهل فظيع بطبيعتها الابتلائية! ثم إن إدمان النظر إليها معزولة عن عمقها الأخروي يورث القلب العمى! فيتعلق بها تعلقا يحجبه عن الله. فلا تزال تخدره بشهواتها حتى تقوده إلى الخسران المبين! والمؤمن البصير يبني صرح العمران الدنيوي - استخلافا في الأرض وإصلاحا - على أساس أخروي، فلا يزال على هدى من ربه حتى يلقاه رَضِيّاً!

- الرسالة الرابعة:

في أن الرزق تقدير إلهي محض، وما من عبد إلا وينال منه ما قُدِّر له، وإنما جعل الله تعالى أسباب الكسب ابتلاء للعباد؛ إذ بها تتعلق أحكام الشريعة من حلال وحرام. وأهل البصائر يرون في الأسباب حكمة الله العزيز الحكيم، فيعبدون الله بها، بينما أهل الغفلة يفتتنون بها؛ فتكون لهم حجبا عن الله، ثم يعبدونها من دون الله! ومن فهم عن الله حقيقة الرزق، وتلقَّى تجليات اسمه تعالى: **"الرزاق"** نجا من الهلع، وحلت بقلبه القناعة والسكينة. وإن من جهل ذلك من أرباب الدنيا لفي شقاء شديد!

- الرسالة الخامسة:

في أن الشكر حق الله على العباد؛ بما خلق ورزق وهدى! وأن التمرد عن عبادته كفران شنيع لأنعمه! فلا عجب أن كانت أول كلمة نطق بها آدم عليه السلام حمداً([159])، وكانت أول آية افتتح بها القرآن الكريم: **"الحمد لله رب العالمين"!** ولقد امتن الله بنعمه - التي لا تحصى - على عباده وفصل ذلك في القرآن تفصيلا. وها هو الإنسان غارق في بحارها الكوثرية لا يستطيع منها فكاكا! أفلا يكون من الشاكرين؟ من هنا وجب على العبد أن يتخذ شكر الله - جل جلاله - وردا دائما

---

[159] عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروحَ عَطِسَ فقال: "الحمد لله!" فَحَمِدَ اللهَ بإذنه؛ فقال له ربه: "يرحمك الله يا آدم!"... الحديث) رواه الترمذي والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع. رقم: 5209.

يعبد الله بـه ذِكْـراً وعمـلاً، فيستجيب لنـداء ربـه كلمـا دعـاه، ويلـزم حـدوده ويتقـي محارمه.

- الرسالة السادسة:

في أن التسخير نعمـة مـن نعـم الله الكبـرى، وجـب ملاحظتهـا بـالتفكر فـي حركـة الكواكب والنجوم والأفلاك، وما يستفيده الإنسان منها – تسخيرا من الرحمن - من ليـل ونهـار، ونـور وضـياء، وفصـول وأمطـار...إلـخ. فمتـى داوم العبـد علـى هـذا الضرب من التفكر التعبدي ازداد معرفة بـالله وعلمـا بـه تعـالى، فيرتقـي إلـى درجـة خشيته على قدر مقامه تعالى؛ فلا يخاف بعد ذلك زيغا ولا ضلالا بإذن الله!

- الرسالة السابعة:

في أن الرعاية نعمة أخرى من نعم الله الكبرى، فـلا نجـاة للإنسـان ولا حفـظ لـه ولا أمان إلا برعاية الله له. فهو تعالى الذي يرعى وجوده وشؤونه كلهـا، رزقـا وحفظـا وسـلامة وشـفاء. وإن مطالعـة هـذا المعنـى العظـيم تـورث القلـب التعلـق بحـب الله، وتكسبة الشوق إلى لقائه. فينشط في سيره إليـه، ويصـير محمـولا بعبادتـه لا حـاملا لهـا، بمعنـى أنـه لا يجـد فيهـا مشـقة ولا عنتـا، بـل يجـدها لـذة وجمـالاً! كمـا أن هـذا الضرب من التفكر يمنح القلب أيضا الشعور بالسكينة والطمأنينة والأمان.

4- مسلك التخلق:

لقد كـان القـرآن واضـحا فـي الدلالـة علـى مسلك التخلـق بحقـائق هـذه الرسـالات الإيمانية، وهو إحياء عبادة التفكر في الآيات الكونية! هذه العبادة التـي تركهـا كثيـر من الناس في هذا الزمان! ولم يزل القرآن يردد: "وآيَةٌ لهم.. وآيَةٌ لهم"! وهو يلفـت نظر الإنسان إلى التفكر في ملكوت السماوات والأرض.

ومن ثَمَّ كان على المؤمن أن يجتهد فـي فـتح بصـيرة التفكـر فـي كـل شـيء حولـه، حتى يصبح لا يـرى شـيئا إلا بعين التفكـر! وأمـا المسلك العملـي لـذلك فهـو أن يبـدأ بتدريب نفسه على اتخاذ ساعات معلومة لممارسة التفكر، فـردا أو مـع صـاحب لـه. ويسـتعين بآيـات التفكـر فـي القـرآن، فهـي ترشـد إلـى الصـورة العمليـة الناجعـة فـي اكتسـاب مقـام التفكـر، والوصـول إلـى حقيقتـه ونتيجتـه. ذلـك أن الله - جـل جلالـه – أرشد الناس إلى أن التفكر الناجع هو ما كان فرديا أو ثنائيـا، فـإذا تعـدى ذلـك صـار تدارسـا. لأن التفكـر عمليـة وجدانيـة بالأسـاس، العقـل عينهـا نعـم، ولكـن القلـب هـو لسانها المتذوق لها والمتمتع بلذتها! قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَـا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُـوا لِلهِ مَثْنَـى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَـا بِصَـاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّـةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَـذِيرٌ لَكُمْ بَـيْنَ يَـدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)(سبأ: 46). وقـال سبحانه فـي صـفة أولـي الألبـاب: (الَّـذِينَ يَـذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَـا مَـا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)(آل عمران: 191). وهذه الآيـة قـد يظـن المـرء – بادئ النظر - أن التفكر واقع فيها بفعل الجماعة، لكن السياق يدل على أنـه عمـل

فردي، ففعل الجماعة ههنا إنما يصف مجتمع المؤمنين في أحوالهم الخاصة، قياما وقعودا وعلى جنوبهم. والتفكر على كل حال تأمل قلبي صامت، لا يتصور فيه الاشتراك الجماعي. ومعنى هذا أن تطبيقه يحتاج إلى لحظات من الخلوة الهادئة، بعيدا عن المؤثرات الخارجية والعلاقات الاجتماعية، التي تقطع الواردات وتتلف المشاهدات!

المجلس الخامس

في مقام التلقي لبيان غِلَظِ جحود الكفار وتعنتهم، وما تنطوي عليه نفسياتهم من استعلاء واستكبار، وبيان سنة الله فيهم

1- كلمات الابتلاء:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(45) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ(46) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(47) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(48) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(49) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ(50)

2- البيان العام:

كانت الآيات التكوينية من أمر الملك والملكوت، مما عرضه الله - جل جلاله - في الآيات السابقة، على أعلى مقامات البيان قوةً ووضوحا؛ بحيث تخضع لها أعناق العباد خشية من ربهم العظيم! فأي جريمة نكراء يرتكبها الطغاة الكفرة إذ يُعرضون عن هذا كله فيجحدون نعمة خالقهم! ولذلك نعى عليهم الحقُّ تعالى ضلالهم المبين في تتمة السياق، فقال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ!) فرغم ما بُيِّن لهم من قواطع البراهين وآيات الأنفس والآفاق؛ فإنهم مع ذلك إذا قيل لهم: احذروا المصير الأخروي، واتقوا أهوال القيامة والبعث والنشور، مما هو بين أيديكم واقع قريبا لا محالة! واحذروا تقلبات الدنيا التي هي خلفكم فأنتم مودعوها يقينا! واتقوا ما ينـزله الله فيها على الظَّلَمَةِ من عذاب وعقاب؛ فلعل الله عز وجل يتداركم برحمته؛ كلما قيل لهم ذلك أعرضوا، وأصروا على كفرهم وضلالهم!

وفي الآية الأولى حذف بليغ لجواب "إذا"، وهو الجحود والإعراض؛ وذلك لدلالة الآية الثانية عليه، فاستُغني عنه ليكر اللاحق على السابق بالبيان. والقرآن العظيم إنما يخاطب بمثل هذا أولي الألباب.

ومن هنا فإن هؤلاء الكفار اتخذوا مواعظ المؤمنين هزءا وسخرية! فكلما نصحوهم بالإيمان والإنفاق مما رزقهم الله من فضله أجابوهم بعبارة ظاهرها

الإيمان بالله، وباطنها الكفر المبين، والاستهزاء بآياته والسخرية من المؤمنين! (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ!) هكذا بهذا العنت البغيض يجيبون المؤمنين، فيقلبون عليهم الحقائق ويصفونهم بما هو من محض كفرهم هم: الضلال المبين! ثم يظهرون أنفسهم أنهم أكثر معرفة بالله؛ إذ هو الذي يوزع مقادير الأرزاق، فلو شاء لأطعم هؤلاء الفقراء والمساكين، فلماذا نخالف إرادة الله بإطعامهم؟ حجاج شيطاني مبين! إنه يستبطن السخرية بالمؤمنين حيث إنهم هم الذين يقولون بأن الرزق مقادير مقدرة من الله؛ فينكر الكفار عليهم: لماذا إذن تأمروننا بالإنفاق على الفقراء والمساكين؟!

ثم يبلغ جحودهم مداه فينكرون حقيقة البعث، (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ؟) تساؤل خبيث عن ميقاته، على سبيل الاستبعاد والإنكار لوجوده! ولذلك جاءهم الجواب من الحق جل جلاله قويا قاطعا لكل جدل عقيم! (مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ! فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ!) فالجواب هو ما سترون لا ما تسمعون! صيحة عذاب وهلاك! كصيحة مدين وثمود!([160]) يصعقهم بها ملك من ملائكة الرحمن، تأخذهم على غرة، وهم لاهون في متاهات حياتهم، منهمكون في شؤون معاشهم، غارقون في فتن أسواقهم، مما يتشاحون فيه ويتنازعون ويختصمون. فتبهتهم الصيحة وهم على تلك الحال، فلا يجدون فرصة لوصية تحفظ أموالهم، ولا مهلة للرجوع إلى بيوتهم وأهليهم! بل يصعقون في مواطن فتنتهم، ونوادي شهواتهم، فبئس المصير!

3- الهدى المنهاجي:

وهو منقسم إلى ثلاث رسالات:

- الرسالة الأولى:

في أن قلب الكافر مغلق بأقفال صدئة، ترسبت عليها أوساخ الهوى والكبرياء! فلا يسمع نذارة ولا بشارة، ولا موعظة ولا نصيحة، إلا إذا حلت به صيحة العذاب أو صيحة الفزع الأكبر؛ فيكون آنئذ من السامعين! وهيهات هيهات أن ينفعه إيمان بعد فوات الأوان!

- الرسالة الثانية:

في أن المال ومتاعه هو المعبود الأول للكفار، يتكالبون على جمعه بهلع شديد! ولذلك فهم لا يستطيعون إنفاق شيء منه مهما قل! إلا إذا وجدوا لهم منفعة مادية في ذلك، من جاه دنيوي، أو ربح مادي، ولو على أمد بعيد! ومن هنا فإنه لا يتحقق إيمان المؤمن بالله إلا بالإنفاق في سبيله، وإهلاك المال في وجوه البر. فبذلك

---

[160] قد تكون الصيحة بمعنى نفخة الفزع الأكبر ليوم القيامة، كما ذهب إليه ابن كثير وغيره المفسرين، لكن السياق أقوى في الدلالة على ما رجحنا والله أعلم.

يتطهر قلبه من الشرك الخفي، الذي يورثه حب الشهوات من الأموال والتعلق الأعمى بمتاعها.

- الرسالة الثالثة:

في أن الله منتقم من الكفار حتما، فإما أن يسلط عليهم عذابا في الدنيا قبل الآخرة، وإما أن يمهلهم إلى يوم الحساب. وهما أمران أحلاهما مر! وفي هذه العقيدة راحة للمؤمن المتغيظ من ضروب الظلم وأشكال الطغيان. فكلما استحضر العبد هذا المعنى استراح قلبه من الغم، الذي قد يصيبه في فترات الضعف والإعياء من مشاق الطريق.

4- مسلك التخلق:

الثمرة العملية لهذه الآيات هي في وجوب تحقيق اليقين بأن الله - جل جلاله - هو مالك لأمر مملكته كله، قاهر لعباده أجمعين. فمهما أبدى الكفار من التمرد على الله، فإنهم لا يُعجزون رب العالمين. وإنما هو ابتلاء لهم، هم خاسرون فيه لا محالة! وبهذا يُنتزع الخوف المرَضي من قلوب المؤمنين، والفزع من جبروت الطغاة مهما استكبروا في الأرض واستعلوا، ولا يبقى بأفئدتهم إلا خوف الله العظيم.

ويتحقق ذلك للعبد بمداومة النظر في الآيات المعرفة بالله وأيامه، مما انتقم به من الأمم الظالمة عبر التاريخ! ومشاهدة حوادث العصر وكوارثه، مما يقع هنا وهناك، على ذلك الوزان، وكذا بالمطالعة التفكرية في عوالم المُلْكِ والملكوت. كل ذلك مورث لهذا اليقين. فمن عرف الله به لم يخش أحدا سواه!

المجلس السادس

في مقام التلقي لمشهد فريد من مشاهد البعث، وأحوال الفريقين من الكفار والمؤمنين

1- كلمات الابتلاء:

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ(51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ(52) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ(53) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(54) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ(55) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ(56) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ(57) سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ(58)

2 - البيان العام:

كانت صيحة العذاب وعيدا من الله الواحد القهار لمردة الكفار، فمنهم من سلطها عليه، ومنهم من أهلكه بما شاء وكما شاء. حتى إذا كانت الصيحة الأخيرة التي

يصعق لها من في السماوات والأرض، والتي هي الإعلان الإلهي لنهاية الحياة في كل العالمين، فلم يَبْقَ من حي في الوجود إلا وجهه العظيم جل جلاله؛ كانت بعد ذلك صيحة البعث العظمى! وقد ورد التعبير عنها بفعل ماض مبني للمجهول؛ للدلالة على انحتام وقوعها وعلى شدة قربها، وأن الكفرة بمجرد ما يصعقون في الحياة الدنيا أو يهلكون، لا يكادون يشعرون بزمن إلا وقد فاجأتهم صيحة ثانية! لكنها صيحة أدهى وأمر! إنها باب العذاب الشديد!

ولقد صور القرآن الكريم مشهد البعث تصويرا عجيبا، فبمجرد انطلاق النفخة من الصور - وهو البوق الذي ينفخ فيه الملاك إسرافيل- تنفتق القبور عن أصحابها كما تنفتق الأرض عن النبتة النامية، فتخرج من تحت ظلمات الثرى، وتنشر أوراقها فوق الأرض! فالله جل جلاله يعيد خلق البشرية الهالكة خلقا جديدا، وينبتهم من تربتهم التي دفنوا فيها أنى كانت في البر أو في البحر، فلا يعجزه تعالى أن تكون أجسامهم قد صارت رميما وفنيت في التراب، فهو تعالى عليم بخلقه، قدير على كل شيء، فلكل إنسان يموت بذرة دقيقة، لا يهم في أي تربة وقعت، لكنها إذا نوديت من لدن الرحمن نبتت من جديد إنسانا سويا! (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ!)

وكل ذلك يقع في أقل من لحظة! ولذلك عبَّر بـ"إذا" الفجائية للدلالة على سرعة الاستجابة للنفخة! فقال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنْ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ!) هكذا: "ينسلون" أي يمضون بسرعة نحو مكان الحشر، فترى البشرية كلها من آدم إلى آخر من يكون، تتقاطر خارجة من مقابرها في كل مكان على وجه الأرض، ماضية لا تلوي على شيء نحو مكان واحد، حيث الله رب العالمين يفصل بين العباد. هنالك يلتهب الفزع الشديد بقلوب الكفار! فهم إلى عهد قريب يقولون سخريةً بالمؤمنين واستهزاءً: (مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ؟) فَتَفْجَؤُهُمْ صعقة الموت ثم تفجؤهم صيحة البعث! فلا يملكون في رهبة الموقف إلا أن يدعوا على أنفسهم بالويل والثبور! (قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا؟) فيأتيهم الجواب سريعا من ملائكة الرحمن: (هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ!) هذا هو الوعد الإلهي الذي جاءتكم به الرسل فكذبتموهم واتخذتموهم سخريا! ها هو ذا تشهدونه بأنفسكم في أنفسكم!

نعم، هذا هو يوم البعث الذي يقع بنفخة واحدة يوقعها الملاك في الصُّور، فتنتفض البشرية كلها في لحظة واحدة، وتحشرها الملائكة حشرا من كل مكان، فلا تشعر إلا وهي جاثية بين يدي ربها فَرَقاً، في مشهد يوم عظيمٍ! هنالك يقضي الله بين العباد، (فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) والعدل الإلهي هو العدل! فلا تُظلَم نفس شيئًا بنقص حسناتها أو بزيادة سيئاتها، ولا يُجزى الإنسان إلا بما كان يعمله في الدنيا. فكل شيء مكتوب في صحيفته!

هذه المواقف الرهيبة من أحوال الفزع وترقب المصير المشؤوم، يكون المؤمنون آمنين منها يومئذ، وذلك فضلٌ من الله عظيم. ولذلك اختصر الرحمن مسيرتهم من البعث إلى الحشر؛ إذا لا يجدون في ذلك فزعا ولا عذابا، فيعرض مشهدهم في الجنة مباشرة! مشهد ينبض بهاءً وجمالا؛ لما فيه من نعم الخيرات والسلام! قال تعالى: (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ!) إنهم مشغولون عن حال أهل العذاب بنعيمهم المقيم، مما يتفكهون به ويتلذذون، جالسون مع زوجاتهم وأهليهم على أرائك الجنة بما لها من بهاء وضياء، يتنفسون أنسام الظلال الممتدة عن الأشجار الوارفة والثمار البهية، ويتخيرون من فاكهة الجنة ما يشتهون، وينالون من كل ما يطلبون ويحبون! مشرفون على مشاهد خارقة الجمال، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، بعيدا بعيدا عن فحيح الجحيم ولهيبها!

ذلك، ولكنَّ تمام النعمة وكمال الرضى، يشرق عليهم بعد ذلك؛ إذ يتجلى لهم ربهم الرحيم فيلقي عليهم السلام! فينعمون آنئذ بالأمان التام والسلام الكامل، بشرى خلود في الجنة أبداً، يتلقونها من ربهم الكريم مباشرة! الله أكبر! أي إحسان هذا وأي عطاء!؟ ذلك مشهد لا تستوعبه العبارات، وتقف اللغة البشرية عاجزة عن بيان حقيقته الرحمانية! فلا إمكان أبدا لتفسير هذه الكلمات القرآنية الجليلة، وإنما جهدنا أن ندعو الله أن يجعلنا من أهل ذلك المقام!

3- الهدى المنهاجي:

وهو يتجلى في أربع رسالات، هي كما يلي:

- الرسالة الأولى:

في أن الأجل غيب لا يعلمه إلا الله، وأن من الجهل بالله أن يغتر الإنسان بقوته وسلامة صحته؛ فيطول به الأمل؛ بما يبطئه عن المسارعة إلى التوبة، والمبادرة إلى العمل الصالح. فاستبطان هذه الحقيقة في القلب، كفيل بتنشيط السير إلى الله والتزام مسالك التقوى، وانكفاف الجوارح عن اقتراف الخطايا، والاقتراب من مواطن السوء. وهي أمان حافظ للداعية من أن تزيغ به الأهواء إلى ابتغاء ما سوى الله والدار الآخرة.

- الرسالة الثانية:

في أن العدل الإلهي الفاصل بين العباد بمحكمة الآخرة، دواء للقلوب الجريحة في الدنيا، وبلسم لها، يزودها بالصبر الجميل، والاحتساب الخالص. وإنما على المؤمن أن يَكِلَ المظالم إلى ذلك اليوم؛ فيرتاح من القلق والأسى. فمهما طغى الظالم في الأرض وتجبر؛ فإنه في يوم قريب سيموت! وسيقف قطعا يوم الجزاء، هو وخصومه من المستضعفين، بين يدي الله الواحد القهار!

- **الرسالة الثالثة:**
في أن العمل هو رأسمال العبد في الآخرة، وهو باب النجاة من العذاب. وأن الفوز لا يُنال إلا بكد ومجاهدة. فالطريق شاقة، ولا وصول لمن لا زاد له! قال جل جلاله: (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ)(البقرة: 197). وقال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، ومَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ! أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ!)([161])

- **الرسالة الرابعة:**
في أن التعرف على الجنة ونعيمها واجب شرعي؛ ولذلك تضافرت الآيات في كتاب الله على بيان خيراتها وملذاتها. فمن تعرف عليها زَهِدَ في متاع الحياة الدنيا، ونجا من فتنة الشهوات المهلكات بإذن الله. وعلى المؤمن أن يتدبر معارض نعمها في القرآن؛ حتى تصبح حقيقتها أملا حيا في قلبه، وشوقا يحدوه بقوة إلى الرقي بمعارج الروح.

4- مسلك التخلق:
قضية هذا المجلس في مسلك التخلق هي: العمل! كيف السبيل إلى التزام جادته، ومحبة مكابدته؟ إن الحامل الأكبر على الدخول تحت ربقة العمل، والارتقاء إلى مقامه صفةً لازمةً، خاصة في بداية الطريق، إنما هو الخوف! خوف مقام الله العظيم. كما سبق في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ خَافَ أَدْلَجَ!) والخوف متبوع بالرجاء تلقائيا. لكن الأول هو السائق الحادي. وإنما يتحقق ذلك للمؤمن بمداومة التدبر للآيات المعرفة بالله في القرآن الكريم، والتفكر في أحوال الآخرة، ثم الدخول في خلوات للنظر في النفس وفي الزمن، ومشاهدة تعاقب الليل والنهار وما يصرمانه من العمر الفاني!
فإذا تم ذلك للعبد تعلق قلبه بما ينتج عن الأعمال من أحوال! وارتقى إلى مقام المحبة، فلا يجد راحته الكاملة ولا لذته التامة إلا بالدخول في حرم العبادات والأعمال الصالحات. وإذن لا يخشى على نفسه - بعد ذلك - انقطاعا أبداً إن شاء الله!

المجلس السابع
في مقام التلقي لواجب بغض الشيطان واتخاذه عدوا

1- كلمات الابتلاء:
وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ(59) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(60) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ(61) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ(62) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ(63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا

[161] رواه الترمذي والحاكم. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

كُنتُمْ تَكْفُرُونَ(64) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(65) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ(66) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ(67) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ(68)

2- البيان العام:

ههنا مشاهد رهيبة من أحوال الكفار في موقفهم بين يدي الله يوم القيامة. أحوال فيها من الفزع ما يناقض سكينة المؤمنين في جنات النعيم، بفروق ومباعدت لا تطويها مقاييس الأزمنة والمسافات! وقد كانت لنا في المجلس السابق مع المؤمنين مشاهدات. أما هؤلاء فيقال لهم على سبيل الزجر والانتهار: امتازوا أيها المجرمون! بمعنى تميزوا وانعزلوا! وهو امتياز حصار وإذلال؛ ليقفوا بعيدا بعيدا عن زُمَرِ المؤمنين، مُمَيَّزِينَ مفصولين، مبعدين كما يُبْعَدُ الجمل الأجرب عن الإبل! ويصفهم الرب - جل جلاله - بشر أوصافهم: "المجرمون"!

هذا يوم البطشة الكبرى! حيث يشتد غضب الله على الكفرة! فيوبخهم بهذا السؤال الإنكاري الشديد: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ؟ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ!؟) فذلك عهد الله للإنسان مذ كان في عالم الذر، وهو عهده الذي تواتر به البلاغ عبر كل الرسالات! إفراد الله تعالى بالعبودية، ومعاداة الشيطان بدل اتخاذه إلها من دون الله الواحد القهار! فالله جل جلاله لا يقبل من الدين إلا الخالص، الصافي من الشرك والشركاء، ولذلك قال تعالى بعدُ: (هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) فلا عبادة لله إلا بتوحيد الله ومعاداة إبليس، ولا مهادنة للشيطان إلا بتمرد على الله! ولذلك أمر سبحانه العباد باتخاذ الشيطان عدوا؛ بما هو لهم عدو مبين! كما جاء في سورة فاطر: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا!)(فاطر: 6) وجاء الأمر بفعل "اتخذوا"! والاتخاذ في العربية دال على الإرادة الواعية والقصد المصمم. وهذا من أهم مقاصد الدين في هذا السياق، ذلك أن الإنسان قد يغفل عن استحضار حقيقة الشيطان في ذهنه، وهو ماض في أعماله وأشغاله؛ ومن ثَمَّ تكون الغفلة ويضرب الشيطان ضربته! فالشيطان قد أعلن العداوة للإنسان منذ عهد آدم! (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ! ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ!)(الأعراف: 16-17) ولم يزل كذلك ولن يزال حتى تقوم الساعة! ولقد أضل من البشرية الْجِبِلَّ الكثير! بمعنى الجموع الغفيرة! لكن الكفار لا يعتبرون ولا يتعظون؛ لأن الله طبع على قلوبهم بذنوبهم فهم لا يعقلون! ومن هنا كان واجبا على المسلم أن يتخذ الشيطانَ عدوا، يحاربه في كل خطوة وخَطْرَةٍ! ويعقد لذلك عزمه وإرادته!

ثم يزيد الرب جل جلاله الكفار توبيخا وتقريعا، بما كذبوا باليوم الآخر والجنة والنار، فيقول: هذه هي جهنم الآن أمامكم! ويأمرهم بدخولها خاسئين! لِيَصْلَوْا حرها ويذوقوا عذابها، خالدين فيها والعياذ بالله!

ومن أبشع صور الإهانة والإذلال أن الله تعالى يختم على أفواههم، ويُلجمها بالْخَرَس، فلا تستطيع نطقا! ويأمر تعالى جوارحهم فتتكلم كاشفة عما اقترفته من آثام، وما بطشته من جرائم!

ثم يبين - جَلَّتْ قُدْرَتُهُ - أن قوته وعظمته أكبر مما يتوهمون! فلو شاء تعالى لعجل لهم عقوبة دنيوية، فختم على أبصارهم وطمس عليها طمسا! كلما سارعوا إلى التعرف على الطريق ضلوا! ثم لو شاء سبحانه لمسخ خلقتهم إلى أسوأ خلقة! كما فعل بكفرة بني إسرائيل من قبل. فيمسخ هؤلاء الكفرة الآن في أماكنهم التي هم واقفون بها، أو بناديهم الذي هم فيه جالسون، يجادلون في الحق ويستهزئون بالرسول عليه الصلاة والسلام! ويجعلهم الجبار تعالى على هيئة مُقْعَدَةٍ غير قابلة للمشي، لا إلى أمام ولا إلى وراء!

لكن الدنيا إلى زوال، فأخر الله عذابهم إلى الآخرة. وذلك أشد لو كانوا يعلمون! وفناء الدنيا حقيقة تشهد بها كل الكائنات، بدءا بجسد الإنسان نفسه، لو أنهم يتفكرون! فكلما كبر وطعن في السن ضعفت قواه العقلية والجسمانية، حتى يصير – إن عُمِّرَ - إلى أرذل العمر والعياذ بالله! فمن لاحظ ذلك أيقن بفناء الحياة، ولم يغتر بقوة ولا جاه، ولكن الكافرين لا يعقلون تنبيها ولا إرشادا.

3- الهدى المنهاجي:

وهو في أربع رسالات هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في أنه ما مِنْ أحد لم يكن عابدا لله إلا وهو عابد للشيطان لا محالة! وإنما قد تختلف مظاهر عبادة الشيطان، وقد تتجلى في صور شتى. فما من كُفْرٍ أو ضلال أو فسق أو فجور إلا وهو عبادة للشيطان. وما من تَرْكٍ لعبادة من العبادات المفروضة - بغير عذر شرعي - إلا وهو عبادة للشيطان! والناس كثيرا ما يَزِلُّونَ في فهم هذه الحقيقة، فربما مدحوا المرء وأثنوا عليه بشتى أنواع المدح والثناء، ثم يقولون: "وإن كان لا يصلي!" فأي جريمة في الدين – بعد الكفر - أدهى من ترك الصلاة؟!

- الرسالة الثانية:

في أن الله عز وجل مسيطر على ملكه، قاهر لخلقه، لا شيء يكون في السماوات والأرض إلا بإذنه! فهو تعالى يملك رقاب الكفرة والطغاة، ويملك أسرار خِلْقَتِهِمْ مما لا يعلمه أحد إلا هو، فهو سبحانه وحده الخالق، فلو شاء لأهلك الظالمين بما شاء وكما شاء ومتى شاء! لكنه تعالى يمهلهم لإتمام مدة الابتلاء التي قدرها لهم في

الدنيا. وإنه لا يأمن نقمة الله وغضبه إلا جاهل بالله مبين! والمؤمن التقي يتزود من هذا خشيةً ورهبةً تزيده عند الله تعالى رفعة وأمانا.

- الرسالة الثالثة:

في أن عقاب الله غير محصور في زمان ولا مكان، وأن خطابه - جل جلاله - بهذا الوعيد من الطمس والمسخ، والعياذ بالله، هو خطاب للكفرة والزنادقة في كل عصر ومَصْرٍ، إلى يوم القيامة! ومن الجهل بالله أن يعتقد المرء أن القذف كان عقوبة لقوم لوط ولن يتكرر أبدا، أو أن المسخ كان غضبا على زنادقة بني إسرائيل لن تحدث بعدهم أبدا! كلا! كلا! فعذاب الله معلق على رؤوس الظلمة والطغاة، فمتى أذن سبحانه وقع بهم! ولا قدرة لأحد ولا حَقَّ له في تحديد عقابه جل جلاله كيف يكون! وما حوادث عصرنا هذا عنا ببعيدة! فقد رأينا منها من القذف والخسف والأعاصير عجبا! مما يتجلى فيه غضب الرب تعالى ونقمته، تجليا واضحا لا يَعْمَى عنه إلا غَوِيٌّ مبين! فنعوذ برحمته تعالى من نقمته وغضبه! ولقد أنبأ النبي المعصوم – عليه الصلاة والسلام – من هذا بما ينذر القلوب! قال صلى الله عليه وسلم: (بين يدي الساعةِ مَسْخٌ وخَسْفٌ وقَذْفٌ!)([162])

- الرسالة الرابعة:

في أن ملاحظة حركة الزمن في الإنسان وفي الأشياء، توقظ إحساس القلب بتصرم أيام العمر، وتوقفه على مشاهدة تساقطها تباعا، كما تتساقط أوراق الشجرة في آخر الخريف! الورقة تلو الورقة، حتى تَعْرَى أغصانها تماما، فلا غنى لها إلا بالله! فلكل جيل من الناس وقت محدود يقضيه على وجه الأرض، فما هي إلا سنوات حتى يشيخ فيهرم، ثم يلقى تحت غيابات الثرى! فكل جيل ينسخ ما قبله نسخا، ثم ينتظر هو بدوره أبناءَه ليكونوا له ناسخين! فلا بقاء لأحد على وجه الأرض! ألاَ ما أجهل الإنسان بنفسه وقَدْرِه! يتشبث بالوهم ويتترس بالضباب! فلا يزداد إلا عَمًى وجهالة!

فيا نفسي المغرورة! إلى متى وأنت خاملة الخطو؟ تُرْجِئِينَ عزائمَ الأعمال إلى غد ليس لك من ضمانه ولا شعرة! هذه حقائبك خاوية، وهذا جرابك فارغ من أي زاد، وبين يديك سفر طويل أنت لابد كادحة فيه كدحا! فإلى متى تلهوين عن المصير وإلى متى؟ ألا تكفيك سنوات ضاعت منك في تيه الشهوات والظلمات؟ ألاَ بُعْداً لقلب دَقَّ بابَه نذيرُ الزمن ثم لا يَرْعَوِي! ألاَ بُعداً وسحقا! فيا إلهي الرؤوف الرحيم! هذه نفسي الضعيفة تجأر إليك مستغيثة برحمتك! فما لي من شيء أستطيع عرضه بين يديك، سوى فقري وذلي وانكساري بين يديك، أنا عبدك المذنب العاصي عدت إليك تائبا فاغفر لي! فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت!

---

[162] رواه ابن ماجه عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير. رقم: 2856، وكذا في السلسلة الصحيحة.

5- مسلك التخلق:
أما تحقيق عداوة العبد للشيطان وبغضه، هو وجنده من الإنس والجن، وإخلاص المحبة لله رب العالمين توحيدا وتفريدا، فإنما يتحقق بأمرين: أولهما معرفة العدو وطبيعته المجبولة على الشر! فمن لم يعرف عدوه حق المعرفة لم يأمن شره، ولم يستعد لكيده الاستعداد الذي يليق بخبثه، فتكون تلك ثغرة هزيمته! ومعرفة إبليس – نعوذ بالله منه - قد فصلها القرآن الكريم والسنة النبوية، فما على العبد إلا أن يتدبر نصوصهما المتعلقة به؛ ليعرف حجم الكيد الذي يكيده الملعون للإنسان، ويتأمل وجوه الشر التي ينفثها في الصدور، وصور الخراب والظلم والظلمات التي يثيرها في الأرض، وشتى أنواع الفجور التي يمليها على بني آدم إملاء! فكل الدمار الحاصل في الأرض وكل الشر المستطير هو من الشيطان يلقيه على شياطين الإنس فينفذونه تنفيذا!
ومن رأى الشر وقبحه أبغضه، ومن عرف خطره وتهديده الدائم للخير والجمال اتخذه عدوا!
أما الأمر الثاني: فهو التعرف على الله ذي الجلال والإكرام، وعلى فضله العظيم، وما أسبغه على عباده من نعم، ومشاهدة حِلمه الكبير على حماقاتهم، عندما يغفلون وينحرفون، مما يبثه إبليس في نفوسهم. وكذا ما شرعه لهم سبحانه من جمال التوبة، التوبة النصوح التي تمحو الخطايا وتمسح الذنوب! حيث يَمُنُّ سبحانه على عبده المذنب – أنى كانت ذنوبه – بالعفو والغفران! وترى كيف أنه تعالى يمد حبل المحبة إلى عباده، وكيف يتلبس الشيطان بالإنسان ليغريه بقطعه؛ حتى يلتحق بحزبه وجنده، ويكون من المفسدين! فأي شر بعد هذا وأي فساد؟!
فلابد لمن شاهد هذه الحقائق بقلب حي أن يبغض الشيطان، وأن يتخذه عدوا، وأن يحب الله جل ثناؤه وحده؛ فيكون له من العابدين المخلصين. ذلك وإنما الموفق من وفقه الله.

المجلس الثامن
في مقام التلقي لمظاهر حياة القلب وموته!

1 – كلمات الابتلاء:
وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ(69) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ(70) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ(71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ(73) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ(74) لَا

يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ(75) فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ(76)

2- البيان العام:

أما هذا المجلس فله شأن خاص! إنه يستضيء بآيات تحمل أسرارا ربانية عجيبة، وحقائق إيمانية رفيعة!

كانت دعوة محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام – شروقا قويا في بيئة أَلِفَ أهلُها العيش في الظلام؛ فلم تطق أعينهم مشاهدة النور فحاربوه! حتى كانت منهم فئة طمس الله على قلوبها وأعماها، وألجمها إلجاما على هيئة لا تطيق بها إبصار الطريق! كما قال في بداية السورة "فَهُمْ مُقْمَحُونَ!" لكن الكفار مهما كادوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد كانوا يشعرون بالهزيمة الداخلية فيزدادون حنقا وتغيظا! والسر في ذلك أنهم احتاروا احتيارا شديدا، واضطربوا أمام قوة القرآن وطبيعته! فهو خطاب لا كأي خطاب! خطاب يزلزل القلوب ويسلب الألباب، ويوقظ الفطرة الغافلة، والبصيرة الغافية؛ فيسلم له الناس تَتْرَى سِرّاً وجهراً!

ويرى الكفار زمام المجتمع ينفلت من بين أيديهم انفلاتا! ويرون سيادتهم تنهار، وكبرياءهم العاتي مهددا بالزوال! فهؤلاء أبناؤهم يسلمون، وهؤلاء عبيدهم يسلمون! ثم تنبعث في قلوبهم جرأة غير معهودة، وشجاعة غير مألوفة، وقوة غريبة في مواجهة طغيان الأسياد وتحدي الظلم والجبروت! والكفار يعلمون جيدا أن سر هذا التحول كله إنما هو هذا القرآن! فكيف السبيل إلى محاربته وحصاره!؟ تلك هي الأزمة التي أرقتهم وأطارت صوابهم؛ فرموه بشتى أنواع التهم ولكن بلا جدوى! كان القرآن - ولا يزال - يعلو ولا يعلى عليه!

قالوا هو ساحر، وقالوا هو شاعر، وقالوا مجنون، حاشاه صلى الله عليه وسلم! وكانت الشاعرية من أكثر التهم التي استعملوها لمحاولة صد دعوته عليه الصلاة والسلام؛ نظرا لأن العرب كانت تعتقد أن الشاعر إنما يكون كذلك بتنزل الشياطين عليه! فهي التي توحي إليه بالمعاني وموازين القصيد! ولأنهم وجدوا أنفسهم مضطرين لتصنيف القرآن ضمن صنف من الكلام، يسلب عنه قوته البرهانية وطبيعته الربانية، فقد قالوا: إنما هو شعر! قالوها وهو يعلمون أنهم كاذبون! فرد الله تعالى افتراءهم بهذه الكلمات العميقة: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ! إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ!) فالله جل جلاله هو الذي صنع محمدا على عينه، وأعده للنبوة والرسالة إعدادا! ورعاه لذلك الشأن العظيم مذ كان في بطن أمه - صلى الله عليه وسلم - إلى أن تنزلت عليه أول كلمات الوحي! فما أتاح له تعالى فرصة تعلم الشعر ولا ألهمه قريحته، فصار طبعُه يأباه. كما صرفه - قبل الرسالة - عن كثير من مفاسد القوم وضلالهم.

فهي نبوة وليست شاعرية! وفرق بين الحقيقتين كبير..! فالشعر تجربة نفسية بشرية تفيض عن النفس الإنسانية عند جيشانها العاطفي! وتضرب بأجنحة الخيال في التعبير والتحبير.. والشاعر مملوك لهواه أبدا، سواء كان خيرا أو شرا! بينما النبوةُ تَلَقٍّ لخطاب الوحي الإلهي، وتجرد مطلق عن الهوى، ونطق بحقائق الإيمان الكاملة! وتعبير عن مراد الله رب العالمين، بكلام الله رب العالمين! فأين الثرى من الثريا؟ (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى)(النجم: 3-4) ألا ما كان أسفه عقول أولائك الكفار وهم يتهمون محمدا بأنه مجرد شاعر!

ومن هنا بين الحق - جل جلاله - طبيعة هذا الرجل، لكن بأسلوب رباني راق! فبدل أن يصف شخصه - عليه الصلاة والسلام - وَصَفَ طبيعة ما يصدر عنه من كلام، وفي ذلك ما فيه من قمة التعبير الجمالي وعمق المعنى الدلالي! فقال تعالى: (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ!) بيان حصري عميق لحقيقة هذا الكلام الذي ينطق به محمد صلى الله عليه وسلم: "ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ!" نعم هو هكذا: ذِكْرٌ! والذِّكر طَرْقُ يَدِ الغَيْبِ لِبَابِ القلب الغافل! وإيقاظ للروح الراقدة في كهف الطين المسنون! مخدرة بأدخنة الشهوات والأهواء! وإخراج للوجدان الناسي حقيقتَه من قارورة نسيانه! وتذكير له بالعهد الأول، والميثاق الذي وقَّعه شاهدا على نفسه في عالم الروح، مجيبا بين يدي الرب العظيم: "بلى!"([163]) مُقِرّاً بالتوحيد والإخلاص! وهو إحياء للفطرة التي ضاعت تحت ركام المعاصي والذنوب، وتجديد لها؛ عساها تحس بالحياة من جديد! ذلك كله هو "الذّكر" الذي يقابل معاني الغفلة والنسيان بمعناهما الروحي العميق! ولا أذْكَرَ للروح من الروح! والقرآن العظيم روح نزل به روح! قال تعالى: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ)(الشورى: 52) وقال سبحانه: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ)(الشعراء: 193)

فمن هنا كان هذا الكلام الذي ينطق به محمد - صلى الله عليه وسلم – "ذِكْراً" بهذا المعنى الكوني العميق! وللقرآن أسماء أخرى ذكرها الله تعالى في كتابه، كالتنـزيل والكتاب وغيرهما، لكنَّ "الذّكْرَ" هو الاسم الدال على وظيفته الكبرى!

وهو في الوقت نفسه "قُرْآنٌ مُبِينٌ". أي قرآن واضح الدلالة على رسالته، قوي الحجة على حقيقته ودعوته! لا ينكر ربانيتَه إلا غَوِيٌّ مبين! ولفظ "القرآن" هو الاسم العَلَمُ الجامع المانع لمعنى كلام الله - جل جلاله – المنزل على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام. وهو اسم دال على معنى القراءة، فعبارة قرآن مصدر من مصادر فعل "قَرَأ"، دال على المبالغة والامتلاء، كغضبان بمعنى الممتلئ غضبا!

---

[163] إشارة إلى قوله تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ!)(الأعراف: 172).

ورحمن لمن وسعت رحمته كل شيء! سبحانه وتعالى. فالقرآن هو الكتاب المجعول للقراءة الكثيرة المستفيضة! ولذلك فهو قد قرئ ولم يزل يقرأ في السماء وفي الأرض إلى يوم القيامة! لكن السر الرفيع لهذه السيماء، والمقصد اللطيف لهذا الاسم الكريم، أن كتاب الله - جل ثناؤه - لا ينقدح نورُه لعبدٍ إلا بإشعال فتيل قراءته بقلبه! فلا تدبر ولا تذكر إلا بقراءة! وليس عبثا أن يكون أول ما خاطب الله به رسوله – صلى الله عليه وسلم - قوله تعالى: "اِقْرَأْ! فمن قرأ الكتاب حق القراءة تَذَكَّرَ، ومَنْ تَذَكَّرَ فقد أدرك الغاية، وخرج من الظلمات إلى النور بإذن الله؛ وهو مقتضى قوله تعالى: (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ!) ولذلك قال بعدُ مباشرة: (لِتُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ!) أي لتقوم - حسب رواية ورش - أيها الرسول بنذارة البشرية، وإبلاغها النبأ العظيم! أو – حسب رواية حفص - ليقوم هذا الكتاب نفسه – بما هو ذِكْرٌ يُتَلَقَّى بالقراءة الحقة المتدبرة – بإنذار من قرأه أو قرئ عليه. وخَصَّ النذارة دون البشارة بالذكر ههنا؛ لأن من تذكر فَزِعَ! وغلب عليه الخوف أكثر من الرجاء؛ لِمَا يكون من حال الغافل بعد يقظته، وإدراكه حجم الخطر الذي هو عليه!

ولكن ذلك كله - من أوله إلى آخره - لا يكون إلا لمن كان قلبه حيا! أي أن فطرته لم تنطمس تماما، ولم يزل بوجدانه حب للخير، ولو على جهل بطبيعته! ولم يزل بضميره توق إلى معرفة الحق، ولو على ضلال عن سبيله! وإنما حاجته فقط إلى بيان! وأما الكافر الذي مَرَدَ على الكفر وتمرَّد على الله رب العالمين، وأُشْرِبَ التكبر والطغيان، فذلك قد انطمست فطرته، ومات شعوره بكل معاني الخير والجمال! فلا رجاء في يقظته، ولا إمكان لتذكيره، ولا فائدة من طرق باب قلبه الهالك! إلا أن على الرسول تبليغه الدعوة وجوبا؛ لتقوم عليه الحجة، ويحق عليه حكم الله العادل، وقضاؤه عليه بالخسران المبين!

ويلفت الرحمن تبارك وتعالى - بعد ذلك - نظر هؤلاء الكفرة إلى آيات أخرى من طبيعة أخرى؛ وقد عَمُوا وصَمُّوا عن آيات القرآن، فيوبخهم - جل جلاله - بسؤال إنكاري شديد؛ أنْ عَمُوا أيضا عن النعم التي أغدقها عليهم من بهيمة الأنعام، إبلاً وأبقاراً وأغناماً، وما ينتج عنها من الخيرات! فقال سبحانه: (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ؟ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ؟ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ؟) فهو تعالى الذي خلق تلك الأنعام بيده جل جلاله ثم ملّكها للإنسان وجعلها له بكل منافعها! ركوبا، وأكلا، وشربا، ولباسا، ومالا، وزينة، وجمالا! وكان من الممكن أن يجعلها الله تعالى متوحشة لا تقبل تأليفا ولا تدجينا! ولكنه تعالى ذلّلها تذليلا، وأخضعها للإنسان بسنن التسخير فخضعت وانقادت! ثم جعل الطفل الصغير من بني آدم يقود الجمل الفحل الكبير،

والثور الضخم العظيم! ويسوق بين يديه القطعان الكبيرة من الإبل والأغنام والأبقار فتنقاد له انقيادا! نعمةً من الله وفضلا!

ولكن الكفار محجوبون بكبريائهم عن رؤية تجليات أسماء الله الحسنى في ذلك كله، محرومون من قراءة آياته فيما فاض عنها من البركات والخيرات؛ فهم لا يشكرون! بل جحدوا النعمة وكفروها! واتخذوا من دونه تعالى أربابا من الأحجار والأهواء والأموال والشهوات، لعلهم بذلك أن يُنصروا ويسيطروا في الأرض! فعُباد الأصنام والأوثان - قديما وحديثا - يعتقدون بجهلهم وضلالهم المبين أن لهذه "الآلهة" وعيا وإرادة وسلطانا! وأنهم بعبادتهم إياها يدخلون تحت حماها ونصرتها! وهي لا تستطيع دفع الأذى حتى عن نفسها! كما أن عُباد الأصنام المعنوية والبشرية في العصر الحديث من مال وجاه وسلطان، يمرغون وجوههم في التراب من أجلها، قصد نيل الجاه والحصول على أسباب السيطرة، والاحتماء بها من عوادي الزمن والنوائب! ولكنها أوهام واهية! فلا شيء يستطيع منع أمر الله إذا جاء ولا رفع قضائه إذا نزل! فترى هؤلاء الجهلة بالله – من الأقدمين والمُحْدَثِين – جندا مجنَّدين لأصنامهم الحجرية، عبيدا أذلاء لأسيادهم البشرية، ممن تألَّه وتجبر من الطغاة، يدافعون عنهم ويقاتلون من أجلهم. فهم حاضرون متى استُحضروا، ونافرون متى استُنفروا! والمعركة كلها من أجل باطل وضلال مبين! معرضين بذلك عن نصرة الله رب العالمين! متمردين على جلاله وسلطانه العظيم!

ثم يلتفت الرحمن إلى رسوله الكريم بخطاب لطيف، محمل بأجمل عبارات المواساة والإيناس، أن لا تحزن يا محمد! لا تحزن من جبروتهم وتكذيبهم إياك! ولا من سخريتهم من رسالتك ودعوتك! فإنَّ عِلْمَنَا قد سبق ما يسرون في قلوبهم من الكيد والبغضاء للدين ولأهله، وما يعلنونه من القول، توعدا وتهديدا وسخرية وتكذيبا! كل ذلك نحن له بالمرصاد، وكفى بربك نصيرا؛ فلا تحزن! كل ذلك جاء في كلمات تنبض بالجمال والجلال من قوله تعالى: (فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ!) فأي داعية إلى الله بعد هذا تربكه فتنةُ الإعلام الشيطاني، أو يستفزه الطغيان العالمي!؟ اللهم إلا إذا كان غير موصول القلب بالله، ولا مستمدا وارداته من رحمته ورضاه!

3- الهدى المنهاجي:

وهو في خمس رسالات هي كما يلي:

- الرسالة الأولى:

في أن حياة الروح هي الحياة! وأن الحي حقا من بني آدم إنما هو المؤمن، وأما مَنْ سِوَاه مِنَ البشر فَهَلْكَى! (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ!)(النحل: 21) وهذه الحقيقة جارية بالمعنى الدنيوي وبالمعنى الأخروي معاً. فأما المعنى الأخروي فظاهر؛ ذلك أن

الله تعالى وعد المؤمن جنة الخلد، ومتعه بلذة الإيمان به جل جلاله، وباليوم الآخر، وما ينتظره فيه من نعيم مقيم. فالحي الحقيقي إنما هو من ارتبط بالحياة الباقية، وزهد في الحياة الفانية.

وأما حياة الروح بالمعنى الدنيوي فهي متعلقة بطبيعة التمتع بجمال الحياة فوق الأرض، والتذوق لنعم الله المتجلية عليها، فأما هذا فإنما المتمتع به حقا إنما هو المؤمن أيضا! وأما الكافر فمهما نال من ترفها وغناها فليس له من متعتها الحقيقية شيء، بل يأكل ويشرب كما تأكل الأنعام! وبيان ذلك أن المؤمن يرى جمال أسماء الله الحسنى متجلية على كل شيء، فما من نعمة مهما صغرت - ولا صغيرَ في نعم الله - إلا وهي آخذة بحظ من نورها الوهاج! الرجل الصالح الفقير الذي يقتات بكسرة خبز وبضع حبات من زيتون، يجد من جمال النعمة وكمال اللذة وذُرَى المتعة؛ ما لا يجده ملتهم أطباق اللحوم وشتى أصناف الشهوات، من الجهلة بالله واليوم الآخر!

ذلك أن المؤمن الفقير يرى أن حبة زيتونة واحدة، تختزل نعمة الله التي أسبغها على الوجود كله! فيرى فيها قدرة الله على الخلق، وجمال الإبداع والتصوير، وما بثه الرحمن فيها من أنوار وأسرار، مما لا يحصيه عَدٌّ، ولا يحصره حَدٌّ! ثم يرى فيها جمال الرعاية مذ كانت بذرة إلى أن صارت شجرة، حتى أزهرت بإذن الله وأثمرت! ثم يرى فيها رحمة الله وكرمه وجوده، إذ جعلها رزقا مقدرا له ولأولاده! كما يرى فيها أيضا هيمنته تعالى على ملكه، وقدرته على تنفيذ قضائه وقدره! إذ ساق إليه هذه الحبة من الزيتون من بين آلاف الموانع، وسائر القوى المتصارعة على الثمار والأرزاق! فجعلها رغم أنوفهم جميعا من رزقه! وربما سخر بعض أعدائه – وهم لا يشعرون – لخدمته، والإسهام في إيصال رزقه إلى باب بيته!

وهكذا فتجليات الأسماء الحسنى على حبة الزيتون تلك لا تنتهى! فيأكل الفقير طعامه القليل هنيئا مريئا، وهو يشعر بالغنى العالي بالله! فأي حياة هذه وأي هناء!؟ ألا تلك هي الحياة وإلا فلا! ولقد تكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بحكمة بالغة، قال سيدي: (مَنْ أصبحَ منكم آمناً في سِرْبِه، مُعَافًى في جسده، عنده قُوتُ يومه، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها!)([164]) والقوت من الطعام: هو ما يسد الرمق ولا يزيد!

ثم انظر إلى تعاسة المترفين كيف شَقُوا بمالهم! فكانوا له عبيدا، وهم يظنون أنهم به أسياد! وانظر إلى القلق كيف يقض مضاجعهم، وهم لا يدرون لشقائهم سببا! الخوف يطاردهم! والجشع ينهكم! والطمع يعذبهم! هم يجمعون وأبناؤهم يبددون!

[164] رواه الترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن محصن مرفوعا. وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، رقم : 6042.

وهم يتعبون وخدمهم يتمتعون! فأي حياة هذه بل أي هلاك!؟ ألاَ فذلك هو قول الله تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا!)(طه: 124). فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به آخرين!

- الرسالة الثانية:

في أن القرآن هوحياة القلب وروحه، وهو موقظه ومُذَكِّرُهُ! ترتيله المخلص يصل القلب بالملأ الأعلى، ويجعله يرى الكون من أعلى أبراجه، فتنكشف له حقيقة الحياة الدنيا، ثم ينـزاح عنه حجاب الغفلة والغرور! فبمجرد شروع العبد في تلاوته أو سماعه، بافتقار تعبدي صادق، تبدأ كلمات الله تدر عليه من نور الحكمة والتزكية ما يُرَقِّي قلبه إلى مقامات الحضور والمشاهدة! فتنكشف له مرآة نفسه، ويرى ما بها من علل وقروح، ثم يشاهد الآيات تتنـزل عليها بالدواء الرحماني الشافي! حتى إذا برئت جوانحه من جروحها حلَّق في سماء الروح، وارتقى على قدر قراءته وترتيله، حتى يكون مع الله، لا يسمع ولا يبصر إلا به! فلحياة القلب آنئذ أوقات موصولة بالزمن الخالد، أوقات لا تفنى أبداً! فإنما قارئ القرآن عبد مُصْغٍ إلى ربه يتكلم! وتلك حقيقة إيمانية عظمى لا تستوعبها الأخيلة والعقول، ولا تُدرك إلا أن تذاق!

- الرسالة الثالثة:

في أنه لا يجوز للداعية أن يشغله شيء عن القرآن! قراءةً وتدبرا واستمدادا. متخذا من سوره قناديل ينير بها ليله، قياما بين يدي ربه يرتل القرآن ترتيلا! فهو سميره بالليل وأنيسه بالنهار! لا يشغله عنه شعر ولا رجز. وليس معنى هذا ألا ينفتح على أنواع الفنون والشعر والأدب، كلا! وإنما القصد أن يكون القرآن هو إمامه، وهو محور اهتمامه ومدار فلكه، وأن تكون كل تلك النوافذ التي يفتحها على الثقافات والفنون الأخرى، خادمة لتدبر القرآن وتبليغ رسالته، غير حاجبة للمؤمن عن نوره، ولا فاتنة له عن السير إلى الله بهداه!

- الرسالة الرابعة:

في أن المؤمن ملزم بقراءة الكتابين معا! أعني كتاب الله المسطور، وكتابه المنظور، بمعنى التدبر لآيات القرآن الكريم، والتفكر في آيات الكون وما خلق الله للإنسان من النِّعم، وما سخر له من تجليات الرحمة والكرم. وشُكْرُ ذلك كله متعلق بذمته حتى يؤديه توحيدا لله وإخلاصا!

والجمع بين القراءتين هو الكمال في مسلك السير إلى الله والتعرف إليه. والقراءة الحقة للقرآن مفضية بالعبد حتما إلى القراءة لكتاب الكون؛ إذ الآيات القرآنية لم تزل تنبه القلب للتفكر في خلق السماوات والأرض، وفي ما جعل الرحمن - جل جلاله - من الآيات في الأنفس والآفاق! وإن ذلك لمما يفتح البصيرة ويوسع فضاء الروح. وإنها لعبادة واجبة تركها الناس إلا قليلا؛ وبذلك عمت الغفلة وتبلد الحس!

وما ينبغي للمؤمن - بله الداعية – أن يعيش مغبونا فيما نُصِبَ له من جلائل الآيات الكونية، التي تهدي خطواته في طريق التعرف إلى الله والتعريف به؛ وتنير قلبَه وبصيرتَه بما أفاض - جل ثناؤه - على جميع مملكته من جمال أسمائه الحسنى وجلالها!

- الرسالة الخامسة:

في أن المؤمن آمِن! وأنه لا آمِنَ إلا من أمَّنَهُ الله! وإنما ذلك هو المؤمن الحق، المؤمن الواثق بالله، الموقن به جل جلاله وعلاه، بما تحقق لديه من معرفة به تعالى، من خلال ما هداه إليه سبحانه، من قراءة الكتابين: القرآن الكريم، وسُنَنِ الله الجارية في الكون العظيم. فلا يزال الجهلة بالله من عُبَّاد الأوثان الحجرية والبشرية، يلهثون وراء طلب لحظة لراحة الأعصاب، والتخلص من كابوس الخوف من الفقر، وانقلاب الدهر، وذهاب الجاه والسلطان، فلا يجدونها ولو في الأحلام! بينما المؤمن يعيش – بفضل التوحيد والإخلاص - مطمئن البال، آمِنَ الروح، منشرح الوجدان، راضيا بقضاء الله فيما قسم له من الأقدار والأرزاق، ثروته القناعة، وجاهه الغنى بالله، وسكينته خشية الله. غير آبه بكيد الأعداء، لا تحزنه دعاياتهم المغرضة، ولا إشاعاتهم الكاذبة، ولا دجلهم الإعلامي الخبيث! فهو يستمد أمنه العميق من ثقته بالله؛ لأنه تعالى أمان الخائفين، ونصير المستضعفين، وكفى به - جل جلاله - حافظا ونصيرا! وكل الذي فوق التراب تراب!

4- مسلك التخلق:

قضية هذا المجلس هي حياة الروح. والمسلك العملي المطلوب الدخول فيه هو كيفية الاستفادة من الروح القرآني؛ بما يحيي القلب ويفتح بصيرته، ويسلكه بعد ذلك بصورة تلقائية في مدارج الشكر والإخلاص.

وقد بينا في أكثر من مجلس أن جلسة التدارس لكتاب الله والتدبر لآياته، هي المفتاح الأساس الذي به تنفتح البصيرة وتستيقظ الروح، فتدب الحياة في القلب من جديد، بما يصيبه من وابل التزكية ونور الحكمة، وبما يناله من فيض العلم بالله.

بيد أن بعض الناس قد يشكو قساوة قلبه حتى عند تلاوة القرآن! فلا يستطيع تدارسا ولا تدبرا! بل بمجرد ما يفتتح التلاوة يغيب في متاهات الشرود! فلا يجد سبيلا ليقظة قلبه ولا لحياة روحه! وعلاج ذلك بحول الله يكون بثلاثة أمور:

- أولها: الاجتماع على الخير، وذلك بطلب أهل الفضل والصلاح، ممن يعقدون مجالس القرآن، والدخول معهم في فضاء التدارس الجماعي، إذ أن للاجتماع من الأثر على القلب ما ليس للانفراد، إذا كان الأمر يتعلق بتدارس الكتاب؛ لأن الشيطان من الجماعة أبعد! ومن ثمَّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة! فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين

أبعد!)([165]) ولذلك كان الاجتماع حصنا للفرد من الشرود والتيه، وأدعى لحضور عقله وقلبه مع الجماعة. وهذا مقتضى من مقتضيات الحديث القدسي: (فهم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم!)([166]) ومع أنه ورد في سياق آخر؛ إلا أنه دال على مشاركة الفرد لمن يجالسهم فيما يتلقونه من نور وحكمة وواردات، وذلك هو المراد. ومَنْ حلَّق مع السرب استطاع بعد ذلك أن يحلق فردا! وليس عبثا أن قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف: (وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه!)([167])

- **الثاني**: مصاحبة أصحاب الأحوال الصالحة. فبالإضافة إلى ضرورة الاجتماع على الخير، يحسن جدا صحبة من يتوسم فيهم سيماء الورع والتقوى، والاجتهاد في الترقي بمنازل الإيمان، ممن بدت عليهم أحوال الخوف والرجاء والشوق والمحبة، وهجروا حياة اللهو والدعة والخمول، وشمروا عن ساعد الجد في طلب المنازل العالية! فألقت عليهم شجرة الإخلاص ثمار الفقر والتواضع! ثم أُشْرِبَتْ قلوبُهم محبة القرآن الكريم، فأسهروا به ليلهم، وعمروا به نهارهم! فكانوا من أهل الله وخاصته حقا! ذلك أن مصاحبة أمثال هؤلاء تورث القلب خصالهم، وتوقد فيه أشواقهم، وذلك هو المبتغى! وقد عُلِمَ أن الأحوال في الشر والخير عدوى.

- الثالث: ملازمة الاستغفار، والإكثار من الصدقة والصوم! عسى أن يتهيأ القلب لاستقبال الخير؛ ذلك أن غالب أحوال القساوة إنما هو ناتج عن كثرة الذنوب! وإهمال التوبة والاستغفار! فالذنوب إذا تواترت على القلب نسجت عليه غلافا سميكا كالحصير يُفقده الإحساس بالخير وتذوق الإيمان! وهو مقتضى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوداً عُوداً، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ! وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ؛ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ! وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا، كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَراً! إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ!)([168]). ومن هنا أُمِرْنَا بإِتْبَاعِ السيئات الحسنات؛ حتى لا تتراكم الآثام على القلب فيقسو! بل وجب أن نخضعه - بفعل الحسنات - للتطهير الدائم؛ حتى لا يفقد حياته بإذن الله! ولا شك أن الاستغفار والصدقة والصيام، من أقوى

---

[165] رواه الترمذي والحاكم عن عمر رضي الله عنه مرفوعا. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ثم صححه الألباني في "صحيح الترمذي".

[166] جزء حديث متفق عليه.

[167] رواه مسلم.

[168] رواه مسلم. وقوله: "أَسْوَدُ مُرْبَادًّا": يعني فيه لمعَانٌ من شدة السَّوَادِ! والْكُوزُ: الإناء كالإبريق. وكونه مُجَخِّياً: يعني مَنْكُوساً، بحيث لا يمسك ما فيه.

أعمال البر على كنس القلب من سيئاته وخطاياه، كما تواترت بذلك النصوص الوفيرة الكثيرة، من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام. ذلك، والله الموفق للخير والمعين عليه.

المجلس التاسع
في مقام التلقي لسر الخالقية
حق الله على عباده، وحجة الرسل والدعاة!

1- كلمات الابتلاء:

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ(77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ(78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ(79) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ(80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ(81) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(82) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(83).

2- البيان العام:

أما هذا فمقام العظمة والجلال!.. المشاهدات فيه ترتجف خوفا مما رَاعَهَا من بارق النور العظيم! فلختام السورة تَجَلٍّ لحق الله العظيم وحجته البالغة، على مقامٍ لاهبٍ، يحرق وجدان العبد المتلقي لآياته! فلم يزل يرى – إن كان من المبصرين – بهذه الخواتم، من أسرار العظمة، وخوارق الربوبية؛ ما يزلزل كيانه، ويهد بنيانه؛ حتى يخر بين يدي ربه صَعِقاً!

ههنا يخاطب الرحمن مرة أخرى الكافر العنيد، يخاطبه بما هو جنس إنساني، خلقه من ماء مهين! فيلتفت إليه بسؤال إنكاري شديد، يحمل من التهديد والوعيد، وعمق الحجة وقوة البيان؛ ما يجعل قلب المؤمن - القارئ أو المستمع- يرتجف خوفا ورَهَباً! إذ ينكشف له من أسرار الملك والملكوت، ما يجعله صريع النظر إلى عظمة الله الواحد القهار!

الإنسان! هذا المخلوق الضعيف، الذي أسكنه الله هذا الكوكب الصغير السابح في كون لا يحد بخيال! والأرض ذرة لا تكاد ترى في بحر الملكوت، الممتد من عالم الغيب إلى عالم الشهادة! هنا يقبع الإنسان الذي يجادل الرحمن رب العالمين! والإنسان في القرآن لفظ غير مريح ولا مستريح! فهو الذي حمل الأمانة فكان ظلوما جهولا! وهو الخصيم المبين! وهو المخلوق في كَبَد! وهو الذي كان أكثر شيء جدلا! وهو الذي قُتِلَ ما أكْفَرَه! وهو الذي أقسم عليه رب العزة إنه لفي خُسْرٍ! ثم استثنى المؤمنين، والمستثنى دائما هو القليل!

الإنسان! هذا المخلوق الضعيف، المحكوم قهراً بضروراته وطينه، ينتصب فوق تربته السفلى ليجادل الله رب العالمين! عجبا! لكن الرحمن يرد على عبده المتعدي حدوده، معرفا إياه بِقَدْرِهِ الصغير وبهوان شأنه! وبحجم جهله بنفسه وبربه! فقال جل جلاله: (أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ!) وإنه لخطاب قوي مبين! تكلم فيه الرب - جل جلاله - بضمير المتكلم؛ إمعانا في التصدي الرباني المباشر لمردة الكفار، مما يجعل السياق أكثر رهبة وجلالا! وخاطب الإنسان بضمير الغائب؛ إمعانا في التقليل من شأنه والتحطيم لكبريائه الأحمق! ويُذَكِّرُهُ الرب عز وجل بحقيقته، لكن من خلال سؤال إنكاري؛ تبكيتا له وتعجيبا منه؛ أنْ نسي أصل خلقته فطغى وتجبر! وما هو إلا عبد حقير، خلقه الله تعالى بقدرته من نطفة ماء مهين! ثم ها هو ذا بعدما كبر وابتلاه الله بالمال والجاه؛ يصير خصما شديد الجدال لرب العالمين! الذي خلقه من قبل ولم يكن شيئا مذكورا! فأي جهل هذا وأي ضلال!؟

وتذكر كتب التفسير في سبب نزول هذه الآيات قصة طريفة، نوردها مختصرة لأهميتها في بياننا هذا، وذلك أن أحد الكفار جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أخذ عظما قد أَرَمَّ، أي صار رميما، والرميم هو العظم الذي بلي حتى صار يتفتت! فحتَّه في يده حتى صار غبارا، ثم نفخ فيه فطارت ذراته في الهواء، فقال: يا محمد أتزعم أن الله يحيي هذا بعدما أَرَمَّ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: (نعم، يميتك الله ثم يحيك ثم يدخلك جهنم!)[169] فأنزل الله تعالى خواتم سورة يس، مشيرا إلى الحادثة المذكورة في سبب النزول: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟) وفي الآية من التعجيب والسخرية من هزال عقل هذا الكافر ما يجعل حجته ضعيفة البناء، بل بليدة التفكير والتدبير! فهذا الضارب لاستحالة إعادة الخلق - في حق رب العالمين- ذلك المثل المادي الجزئي العَيِيَ، الذي غاب عنه النظر إلى عمق الوجود، والتفكر في أسرار الحياة والموت، وعَمِيَ عن النظر إلى عظمة الله الواحد القهار، قد جاء بما يُخجل لو كان من أولي الألباب! إذ هو يحتج على الله ورسوله بأنه - سبحانه وتعالى - لن يستطيع خلق هذا الرميم المتآكل، ولا إعادته بشرا سويا إلى الحياة من جديد! زعَم ذلك ونسي الأحمقُ ذاتَه نفسها! نسي خِلقته عينها! وكيانه الوجودي كله! متى كان وكيف؟ وأين كان قبل أن يكون؟ فهذه الهيأة الإنسانية التي بها يتنفس الآن الحياة، والتي بها يخاصم ويجادل، ويبطش ويتجبر، أوَليس الله - جل جلاله - الذي خلقها من قبل ولم تكن شيئا مذكوراً؟ فالخالق بشرا من طين، أو من قطرة ماء مهين، والخالق كل شيء من لاشيء؛ لهو تعالى أقدر على إعادة خلق الإنسان من تراب مرة أخرى،

169 ن. تفسير الطبري للآية.

وعلى إعادة جمع ذراته أنى طارت، وأيان كان مرساها! فإنما خلقه للشيء - متى أراده - "أن يقول له: كن فيكون!" ولكن الجهلة بالله لا يعلمون!

وقد ثبت في الحديث أن الله تعالى يعيد خلق الإنسان يوم البعث مِنْ عَجْبِ ذَنَبِهِ!([170]) وعَجْبُ الذَّنَبِ: هو العظم الصغير الذي به ينتهي العمود الفقري البشري. سمي بذلك لأنه موضع الذنَب من الحيوانات ذوات الذيول والأذناب. والمقصود أنه تعالى يخلقه من ذرة صغيرة تكون داخل هذا العظم الصغير، ذرة قد لا ترى بالعين، فكل شيء يفنى من الإنسان إلا هذه الذرة، فهي بمثابة بذرة شجرته! فلتطر حيث شاءت، ولو تدفن حيث قدر لها، ولتكن قد صارت طعاما لوحش أو لحوت، أو ضلت في طوفان أو حريق، فنواتها الدقيقة لن تزال تحتفظ بسرها أبدا! حتى إذا فني من في الأرض جميعا، وحان يوم البعث أمَرَ الله الأرضَ فتخمرت واهتزت وربت ثم أنبتت ملايير البشر، من آدم – عليه السلام - إلى آخر من يكون! ينبتون منتشرين على صعيدها كالبقل! ثم يُنفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون! وإن ذلك لأهون على الله جلت قدرته وعظمته! ولكن الكافرين بربهم يجحدون! فسبحانه وتعالى عما يصفون ويقولون!

ولذلك فقد جاء الرد على ضارب المثل السفيه، ردا قويا حاسما؛ إذ شكك الجاحد في أخص خصائص الربوبية: الخالقية! فقال تعالى: (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ!) وهو رد متين مبين، فيه من دقة البلاغة، وقوة الحجة، وشدة الإفحام الملجم للجاحد؛ ما يليق بجلال الله الكبير المتعال! فقد أمر تعالى نبيه أن يقول لهذا الجاحد الضال الذي أعرض عنه ربه غضبا: قل له يا محمد إن تلك العظام التي طار رميمها من يده يحييها الذي أنشأها أول مرة! ولم يذكر تعالى اسم الجلالة: الله! لأن هذا الكافر جاهل به تعالى؛ فلا يستحق أن يخاطب باسمه سبحانه! ثم لأن عقله السفيه ضل عن النشأة الآخرة فنبهه الله تعالى للتفكر في النشأة الأولى دون أن يذكر له الفاعل لها؛ لأن العرب يومئذ كانت تؤمن بأن الخالق لكل شيء إنما هو الله، ولكنها كانت تنكر البعث والنشور، وتستبعده - بجهلها - وتستعظمه في حق الله! فكما خلق تعالى الخلق الأول يخلق سبحانه الخلق الثاني، والمتعجب من الخلق الثاني - لو كان من العقلاء – لكان أجدر به أن يتعجب من الخلق الأول! والمحيل للخلق الثاني ملزم بالضرورة أن ينكر الخلق الأول! وهذا هو عين الضلال وركوب المحال!

ألا ما كان أحرى بالإنسان الذي لا يجحد وجود الله تعالى - على الأقل - أن يتأدب مع ربه الذي خلقه! حتى ولو كان كافرا بعد ذلك بكل شيء من أصول الإيمان! فلا يتجرأ على فاطر السماوت والأرض بنقصه سبحانه شيئا من صفاته،

---

[170] عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كل ابن آدم يأكله الترابُ إلاَّ عَجْبَ الذَّنَبِ، منه خُلِقَ ومنه يُرَكَّبُ!) رواه مسلم.

بَلْهَ أن يسلبه أخص خصائص شؤون ربوبيته: صفة الخالقية! ولو كان أتى من باب السؤال الصادق في طلب المعرفة بالله، متواضعا بين يدي ربه لهداه الله إلى كل حقائق الإيمان! فكان من المهتدين بإذن الله! ولكن الله لا يهدي المتكبرين!

فمن أخطر أنواع الكفر والجحود - إلى جانب الشرك الغليظ بالله - إنكار صفة الخالقية في حق رب العالمين والانتقاص من كمالها! وتلك هي الجريمة الكبرى التي وقع فيها ضارب المثل في سياقنا هذا! ومن هنا أردف الله تعالى على رده عليه جملة قوية البيان، معرفة بكمال قدرته على الخلق، بما لا طاقة للعقل البشري على استيعابه، إلا أن يكون من المؤمنين! فقال جل جلاله: (وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ!) هكذا على الاستغراق الشامل العام الذي لا يستوعبه عَدٌّ ولا يحيط به خيال! الخلق الأول والخلق الثاني، والخلق من شيء والخلق من لاشيء! وخلق الذرات وخلق المجرات، وخلق الأرضين وخلق السماوات، وما في جميع الملك والملكوت! ومن ذا قدير على إحصاء خلق الله إلا الخالق العظيم! ألا ما أجهل الإنسان بربه الكريم!

ثم يُقَرِّبُ القرآنُ الأدلة إلى عقل الإنسان الضعيف؛ بالاقتراب من حياته اليومية ومنافعه المادية، فيقول تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ!) وقد تحدث المفسرون قديما عن منافع الشجر، وكيف يكون غضا نديا لا يكاد يصلح لإيقاد النار، ثم يجف بعد ذلك فيحصل به الانتفاع، في الاصطلاء والطبخ وفي سائر المنافع التي لا تنحصر من إيقاد النار. كما تحدثوا عن أنواع خاصة من الشجر، لها خاصية اشتعالية، كانت العرب تقدح النار بحك أغصانها الخضراء بعضها ببعض .

لكن العلم الحديث زاد الإنسان معرفة بخصائص الغابات الخضراء التي كانت تكسو الأرض في العصور القديمة، فابتلعتها الأرض جراء الزلازل والانجرافات، وغيرها من العوامل، فتخمرت تحت الطبقات السفلى لعدة عصور، ثم تحولت بعامل الحرارة إلى حقول النفط والغاز، ومعادن أخرى كالفحم الحجري وغيره، مما صار وقود كل شيء في هذا العصر. حتى إنك لا تكاد تجد – في الغالب - نارا ولا شررا، إلا وهو يوقد إلا من النفط أو الغاز ومشتقاتهما! وتكاد كل الآلات والمحركات في العالم اليوم لا تشتغل إلا بوقود النفط؛ نعمةً من الله وفضلاً! فكيف يجحد الإنسان حق هذا الرب العظيم؟ الرب الذي أخرج له الأشياء من أضدادها؛ لتكون له منفعة في معاشه، وطريقا واضح المعالم، يسلك به إلى معرفة ربه الخالق الكريم!

ثم يرتفع القرآن بالاستدلال إلى المستوى الكوني الشمولي مرة أخرى، مبينا قدرته تعالى على إعادة خلق الكون - بعد هدمه الكامل وإفنائه الشامل - ليقوم الناس ليوم الحساب! فقال جل جلاله: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ!) فهذا منطق بسيط واستدلال واضح بيِّن، لكنه قوي وعميق!

عميقٌ عُمْقَ ما بين السماوات والأرض! عميقٌ عمقَ لفظ "الخلق" بمعناه المصدري، الدال على فعل الله تعالى، وعمقَ دلالة اسم "الخالق" في صفات الرب الجليل وأسمائه الحسنى! ولذلك فإنه لا يسع الإنسان السوي العقل، إلا أن يخضع لقوة هذا البرهان وربانية هذا بيان!

ومن ثَمَّ أجاب القرآن بقوة عن السؤال الذي ضرب به نواصي الكفار، فقال جل جلاله بعده مباشرة: (بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ!) مثبتا هذا الذي أنكره الجهلة في حق الله سبحانه، واصفا نفسه تعالى باسميه: "الخلاق" و"العليم" في جملة اسمية قصيرة، ثابتة البناء، متينة التعبير! و"الخلاق" بما هو اسم من أسماء الله الحسنى، وصفة له تعالى، معنى عميق يكشف عن وجه آخر لخاصية من أعظم خصائص الربوبية! فـ"الخلاق" صيغة مبالغة من فعل الخلق، وهو فعل خاص بالله تعالى. فكان من أسمائه الحسنى "الخالق" و"الخلاق"!

فهو تعالى خالقٌ بما يقوم به سبحانه من فعل الخلق، وهذا معنى غيبي من أعمق المعاني! تجلياته تحيط بهذا الوجود بأكمله! ويمتد نوره الإلهي من عالم الغيب بكل ملكوته، إلى عالم الشهادة بكل عناصره وأنواعه! فهو حجة الله البالغة، (خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)(الزمر: 62)، وبه تحدى الربُّ - جل جلاله - الكفرةَ والمشركين في كل عصر ومصر، فقال تعالى: (هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ! بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ!)(لقمان: 11) وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ! إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ!)(الحج: 73)

ثم هو - جَلَّ ذِكْرُهُ وثناؤه – "خَلاَّقٌ"؛ بما لخالقيته تعالى من الثبات والاستمرار، ومن تعدد المخلوقات؛ بما لا قدرة لأحد على عده وإحصائه! هذا من جهة. ومن جهة أخرى هو تعالى "خَلاَّقٌ"؛ بما لقدرته على الخلق والإبداع من المعنى الإعجازي؛ ما يحير الألباب ويذهل العقول! فأما مخلوقات الله فكل الناس يشاهد منها ما هومشاهَد، وأما فعله تعالى من معنى الخلق؛ فلا أحد يستطيع الاقتراب من حقيقته أو معناه! فالله جل جلاله إما أن يخلق الشيء من عدم، وهذا ما يعجز العقل عن استيعابه، ويحرق خلايا الدماغ إن اقترب من جلاله! وإما أن يخلق تعالى شيئا من شيء، كخلق آدم - عليه السلام – من طين، أو خلق ذريته من ماء مهين! فهذا أيضا مما يقف العقل إزاءه حائراً! عاجزا عن إدراك كيف يتحول الطين المسنون إلى جسم إنساني جميل؟ ووجه مشرق الطلعة، صافي العينين، أسيل الخدين، لطيف الشفتين! ناطق اللسان، جياش الوجدان! وقد كان قبل ذلك كومة طين من حَمَإٍ مسنون! أو صورة من صلصال كالفخار! فارغة الجوف كالخابية القديمة! فكيف تحولت كرة الطين في رأسها إلى جمجمة دقيقة الصنع، بما تحمل من دماغ لطيف وشعيرات دموية دقيقة؟ وكيف تحول النقش المرسوم على وجهها إلى

عينين تدمعان وتشعان بنور الإبصار؟ وإلى رموش ترتعشان بما تشعران به من نسيم الحياة؟ ثم كيف؟ وكيف؟ وكيف؟ والأسئلة التي لا أجوبة لها لا تنتهي أبدا! ومن ذا يحيط بحقيقة اسمه تعالى إلا هو تعالى! ذلك هو "الخلاق العليم" جل جلاله، فسبحانه وتعالى عما يصفون! فعلمه الواسع شاملٌ لكل شيء، محيطٌ بكل شيء، فكيف يغيب عنه علم الخلق وفعله مرات ومرات؟ كيف وهو صفة ثابتة من صفاته سبحانه!؟

وقبل أن يدخل العقل البشري في هذه المتاهات، بيَّن الباري تعالى أن الخالقية سر من أسرار ربوبيته، تستحيل معرفتها على عبيده، الذين هم محض خلقه وصنعه! فما كان للمخلوق أن يحيط بمعنى الخالق! لأن المفعول به في هذا الشأن لا يكون فاعلا أبداً! ومن ثَمَّ سد الحقُّ تبارك وتعالى الباب على هذا الجهل البشري العابث! فقال جل جلاله: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ!) هكذا ابتدأ الآية بعبارة "إنما" المفيدة للحصر والتوكيد وصلابة الخطاب؛ لحسم الحكم وحصر الحقيقة؛ بما يقطع جدل العابثين، ويلجم أفواه الجاهلين، ويخبت قلوب المؤمنين المتدبرين! و"الأمر" ههنا - كما هو في كثير من المواطن من كتاب الله – دال على شأن ربوبيته تعالى، وليس هو بالمعنى المصدري لفعل "أَمَرَ". فشأنه تعالى أنه بمجرد ما تتعلق إرادته بخلق شيء فإنه ينصاع، فيكون! وعبر عن ذلك بأقصر جملة، وأقوى عبارة، وأعمق دلالة، وهي كلمة: "كن فيكون!" الدالة على الانصياع الكامل والمطاوعة التامة، بما يجعل المخلوق يكون كما أراد الخالق جل جلاله، بلا زيادة أو نقصان، ولا تأخر عن موعد الكينونة، ولو بطرفةٍ خاطفة من عين الزمان! كما قال تعالى في وصف تعلق أمره بقيام الساعة: (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ! إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ!)(النحل: 77) فأنى لرب عظيم هكذا شأنه وهكذا خَلْقُهُ وأَمْرُهُ؛ أن يعجزه شيء من أمر البعث والنشور؟ ألاَ ما أضل الجهلة بالله!

وإن المؤمن لا يملك إذ يمضي مع هذه الحقائق الإيمانية الجليلة، مرتلا أو منصتا لكتاب الله، إلا أن تشتاق روحه الخاشعة، إلى التسبيح تنزيها لله الواحد القهار مما وصفه به الجاهلون! ولذلك بادر الحق تبارك وتعالى إلى تنزيه ذاته العظيمة، وتقديسها من مقولات الكفار والمشركين، وأوهامهم الباطلة! فختم بذلك سورة "يس" ختمةً يبقى صداها يضخ بقلب العبد الأمواج الضخمة، المتدفقة من محيط عالم الغيب العظيم! فلم يزل القلب يخفق خوفا ورَهَباً، مما شاهد من تجليات شؤون الربوبية وجلالها! قال تعالى: (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ!)

"فسُبْحَانَ" عبارة تنزيه وتقديس، بمعنى أن الله - جل جلاله - متعال بربوبيته عن صفات النقص والعجز، مما يتوهمه الجاهلون! بل هو تعالى رفيع الدرجات،

علـي القَـدْرِ، كامـل الصـفات! وقيـاس شـأنه تعـالى بالشـأن البشـري مـن أجهـل الجهالات، وأبعد الضلالات! وتلك هي آفة الكفرة والمشركين! ولذلك عبَّر تعالى بصفات القدرة، والهيمنة، والتملك، والإحاطـة بجميـع مملكتـه، والقهر لكل خلقه - في سياق إضـافة التسبيح لنفسـه - واصفا ذاتـه تعالى بكل ذلك جميعا، من خلال جملة موصولة، لكن دون ذكر لفظ الجلال "الله"، فاحتجب سبحانه باسمه وتجلى بصفاته؛ وذلك لبيان تنـزهه، وعلو شأنه، وعظمة قَدْرِهِ، وترفعه عن جهل المرَدَةِ من عباده!

وعبارة الملكوت فـي اللغـة مبالغـة من لفظ المُلْكِ. فهي أعمق في الدلالـة على عظمة مُلْكِهِ تعالى، وأوسع في التعبير عن دقة صنعه وكمال خلقه، وامتداد مملكته من عالم الأرواح إلى عالم الأشباح، ومن عالم الغيب إلى عالم الشهادة! فهو تعالى مهيمن على مملكته، بيده تعالى مقاليد كل شيء من جميع خلقه! لا شـيء يكون إلا بإذنه، ولا شيء يحدث إلا بعلمه! قادر على فعل كل ما يريد في حينه! وذلك كله هو معنى كونه تعالى رب العالمين! فمن كان هذا شأنه فأنى يعسر عليه أو يستحيل في حقه أمر البعث والنشور؟ ولذلك كانت الجملة الخاتمة الحاسمة للسورة بأكملها: (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ!) أي إلى هذا الرب العظيم الذي تنكرون قدرته على البعث، إليه - جل جلاله - تساقون يوم القيامـة، خاسئين! وبين يديـه يومئذ تُحْضَرُونَ مذمومين مدحورين! والخليقة كلها آنئذ جاثية في ساحة الحشر، تنتظر عَرْضَهَا وحسابها في مشهد رهيب!

تلك هـي الكلمـة الخاتمـة الحاسمة! وَلْيَبْـقَ بعد ذلـك هـؤلاء الكفرةُ المستكبرون، مصـرين علـى طغيـانهم واستعلائهم! فـلا ضـير! إن أقدام المـوت متـواترةُ الخطـوِ نحوهم ونحو كل مخلوق، ولسوف يرون - يـوم ينفخ فـي الصـور - من صـار إلـى خسران مبين!

3- الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات الأربع التالية:

- الرسالة الأولى:

في أن الإنسان لا ينجو حتى يخرج من " أَنَا " الإنسانية إلى مدار العبدية! ذلك أن صفة الإنسانية إذا لم تترق إلى مقام التعرف إلى الله، ولم تصطبغ بالانتساب التعبدي إليه تعالى، أَلَّهَتْ ذاتَها! وعَبَدَتْ أَنَاهَا! فكانت دَرَكاً مظلما! وتِيهاً من الجهالة والضلال! وعلى ذلك أقسم الحق سبحانه في سورة العصر، فقال جل جلاله: (وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ! إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ!) ونحوه قوله تعالى في سورة التين: (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ!)(التين: 4-5) ولذلك كان قوله تعالى فيما نحن فيه من سورة يس: (أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ

خَصِيمٌ مُبِينٌ!) دالا على الطبيعة الجدلية للإنسان المغروسة في جِبِلَّتِهِ بما هو إنسان! كما في قوله تعالى: (وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً!)(الكهف: 54) فإما أن يسلم لله رب العالمين؛ فيخرج من ظلمات إنسانيته إلى نور عبديته لخالقه، وإما أن تقوده إنسانيته إلى الخسران المبين!

- الرسالة الثانية:

في أن بدء السير إلى الله تعالى ينطلق من معرفة النفس أولا، والتفكر في خلقها، والنظر في حقيقتها، ومراقبة أحوالها. فمن وضعها على طاولة التشريح، كأنها شيء مستقل عنه، اكتشف عجزها واضطرارها إلى خالقها! فشخَّص آنئذ أدواءَها ووَصَفَ دواءَها! ثم استأصل أهواءَها وكبرياءَها! ودخل مقامَ الإرادة بعد يقظة قلبه، وانتعاش روحه، وكان من السائرين.

لكن معرفة النفس على التمام لا تكون إلا بالبحث عن كمالها، والسعي إلى غناها! وبما أن تشريحها أظهر عجزَها وكَشَفَ فقرَها؛ فلا سبيل لها إذن إلا الاعتصام بخالقها العظيم! ذلك أن البحث في الذات مفض إلى التعرف على رب هذه الذات؛ لأن خاتم صنعته تعالى مطبوع على كل خلجة من خلجاتها، مرسوم على كل خلية من خلاياها! فإذا توجهت أغصانها المنفوضة الأوراق، ممتدة نحو السماء، تستدر ألطاف الرحمن؛ وجدت غناها في فقرها، وقوتها في عجزها، وكمالها في نقصها! كل ذلك باستنادها إلى ربها الخالق العظيم، وانتسابها إليه تعالى بإسلام وجهها كلية لله!

- الرسالة الثالثة:

في أن صفة الخالقية - في ذات الله تعالى - هي الباب الأعظم لمشاهدة جلال الربوبية، والتعرف على مقام الله العظيم، وقَدْرِهِ حَقَّ قَدْرِهِ! وتلك معرفة رفيعة تشرح القلب وتهيئه لتلقي النور من سائر الأسماء الحسنى! والداعية إلى الله إذا أخطأ هذه الطريق فإنه يعجز عن تحقيق المعرفة بالله، بَلْهَ أن يكون قادرا على التعريف به – جل جلاله - لغيره من الناس!

والذي أكرمه الله تعالى بتجلي نور اسمه "الخالق" أو "الخلاق"، تدفقت جداول المعرفة بأسماء الله الحسنى كلها على قلبه! فجعل يترقى بمنازلها الإيمانية، اسما بعد اسم، وصفةً بعد صفة، حتى يكون بإذن الله من كُمَّلِ العلماء بالله!

وليس عبثا أن استفاض ذكر فعل الخلق ومشتقاته في القرآن الكريم، وتوارد في كل السياقات، العَقَدِيَّةِ والدعوية والتربوية والجهادية والتشريعية! حتى لا تكاد تجد سورة إلا وهذا المعنى حاضر فيها بقوة، لفظا أو مفهوما. وما ذلك إلا لما لهذا المفهوم صفةً أو اسماً، من مركزية نورية في شجرة الأسماء الحسنى، ولما له من عظيم الفتح على القلب المتعرف إلى الله! ثم لما له من قوة الحجة على الكفار، والطرْق الشديد على أبواب الجاهلين، والإيقاظ القوي لقلوب الغافلين!

- الرسالة الرابعة:

فـي أن التسـبيح بحمـد الله وعظمتـه هـو زاد المـؤمن المتفكـر فـي خلـق السـماوات والأرض، وهو كلمة السر المودعة بقلب العـارف بـالله الداعيـة إليـه تعـالى، السـالك إليه - سبحانه - عبر معـارج الـروح، المنصـوبة فـي فضـاءات الملكـوت! فبالتسـبيح تنفتح له أبواب المنازل والمشاهدات! فما يزال يترقى حتى يتلقَّى من أنـوار الجمـال والجلال ما يفنيه في حب الله، ويُخْلِصُهُ تمـام الإخـلاص للتفرغ الكامـل لعبـادة ربـه رَغَباً ورَهَباً! فيصير بذلك عبداً حَقَّ عَبْدٍ لمولاه، واقفا أبدا بباب طاعته! قائما بحـق ربوبيته، لا ينشغل بشيء عن خدمة دينه، والتعريف بربه وبمقامه العظيم! فسبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم!

4- مسلك التخلق:

لِلرُّقِـيِّ مـن درك الإنسـانية إلـى منـزل العبديـة الكاملـة؛ لابـد للمـؤمن مـن العـروج بمعراج التفكر التعبدي، الذي يسلك به طبقات الملكوت صعودا؛ حتى يتعرف علـى مقام الربوبية الأعظم! ويتلقى أنوارَه شيئا فشيئا، إلى أن ينصقل قلبه تماما، وتصفو مرآته، فلا ينبض بغير النور! ومن ثَمَّ تجري جداول لسانه بالتسبيح والتقديس يقظةً ومناماً!

إن السـياحة التعبديـة بـين معـارض المخلوقـات، تفـتح بصـيرة العبـد وتكسـبه القـوة الروحيـة علـى إبصـار النـور العُلْوِيِّ! فيشـاهد مـن تجليـات أسـماء الله الحسـنى؛ مـا يجذب قلبه إلى فلك السير الأبدي الراحل إلى الله! وإن الإنسان الـذي لـم يـزل أسـير إنسـانيته الطينيـة، قابعـا داخـل خابيـة الفخـار، مخـدرا برائحـة الحمـأ المسـنون؛ لا يستطيع إدراك تجليات الجمال والجلال، الساطعة على لآلئ الملك والملكوت! فمن ذا قدير على تكسير خابيته، والتحليق بعيدا بأشواق الروح نحو المنـازل العليـا؟ إذن يكون من الأوابين! وإذن يتلقى شـعاع النـور مـن مثـل قولـه تعـالى: (نِعْمَ العَبْدُ! إنَّـهُ أوَّابٌ!)(ص:30) فهنيئا لك يا عبد بمقامات الرضى والسلام!

خاتمة

هذه هي قضية الدعوة إلـى الله: تعريـف الخلـق بـالله! وتلـك كانـت هـي قضـية سورة يس من أولها إلى آخرها. حقائق إيمانية ومشاهدات، بلاغات وبيانات، جهـاد ومجاهـدات، جـدالات وخصـومات، مواقـف لاهبـة وشـهادات، كشـف مصـائر ومآلات، معارض كونية وسياحات. كل ذلك من أجل حقيقة واحدة: التعريـف بـالله ربا واحدا لا شريك له!

ولذلك فقد تضمنت من فقه الـدعوة إلـى الله، وبيـان منهـاج السـير إليـه تعـالى، قواعدَ رحمانية، ومعالم ربانية، لا حَقَّ لداعية إلى الله أن يكون جاهلا بها!

وإنها لجديرة بأن تكون سورة مركزية في التداول التربوي العام والخاص، ومقررا دراسيا بأقسام الدعوة الإسلامية بكل أصنافها ومستوياتها. فكلٌّ يأخذ منها على قدر ما أهله الله له. والمؤمن عموما في مسيس الحاجة إلى التفقه فيها وتَلَقِّي حقائقها الإيمانية؛ قصد التترس بحصونها الربانية العالية، خاصة في هذا الزمن الصعب. ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله!

تلك كانت مجالس من سورة "يس"، عِبَراً وعَبَرَات، وهُدَى وبركات! مما يسر الله تقييده بهذه الصفحات. فسبحانك اللهم وبحمدك نستغفرك ونتوب إليك!

سورة الحجرات

"مدنية وآياتها: 18"

وهي تتضمن خمسة مجالس

تقديم

هذه منازل تصفية النفس من أدرانها! وشلالات تطهير الروح من أحزانها! هذه مدرسة تخريج مُسَمَّى "عبدِ الله" بحق، المؤمن الهـيِّن، الطيِّع اللَّـيِّن، والزاهد الصادق، العامل الصامت!

لكنها منازل ذات مقارض ومشاذب! تتوغل بمشارطها الجارحة في أعماق القلب، فتفتح جراحه وتفتق أورامه! ويكون لذلك ما يكون من المعاناة والألم! فيا قلبي العليل! ماذا أعددت من الصبر على مَصَاهِرِها الحامية؟ وجراحاتها الكاوية؟

فاستعن بالله يا صاح وادخل مشافيها، فإنما المؤمن من صبر لحكم الله!

هذه طريق.. فلنتخذ إلى الله بها سببا! ولنتلق إشارات السير بقوة! يَقَظَةً لا مَناماً!

هذه سورة "الْحُجُرَات" بين يديك فاقرأ..! اِقْرَأْ مسالكَها، ورتل معارجَها ترتيلا! ثم أبصر!

فهذه آياتها تنتصب أمامك علامات بينات على طريق واحد رئيس، سيرا نحو التحقق بمقام إيماني، من أعظم مقامات الإيمان وأكملها! مقام متميز في ذاته، إذ لا وصول للسالك إلى الله بغير التخلق بكل صفاته، ولا كمال لإيمانه بغير التضلع بجميع خصاله!

ذلكم هو: مقام الأدب! الأدب بكل معانيه الروحية، سواء في علاقة العبد بربه، أو في علاقته برسوله صلى الله عليه وسلم، أو بإخوانه المؤمنين. إنها سورة جامعة لكل أدب السير إلى الله، سواء على المستوى التعبدي المحض، أو على المستوى الاجتماعي العام، وهذا إنما هو فرع عن ذاك. ولم تزل آياتها العظيمة - من أول السورة إلى آخرها - تؤثث عمران الروح وتحليه بالحِكَم الربانية الرفيعة،

وتتناول النفس الإنسانية بالتأديب والتخلية من خبائثها الظاهرة والخفية، وتصفي الحقائق الإيمانية مما علق بها من أدران النفس وأوساخ الجاهلية؛ حتى تنجلي مرآتها وتصفو على مقام الإيمان الخالص الله! ذلكم هو الموضوع الرئيس للسورة.

ثم إن سورة "الْحُجُرَات" هي – بالتتبع لما ذُكِر - دستور شامل لنظام الأخلاق الاجتماعية في الإسلام! الأخلاق بما هي خادمة للأصل الأول من توحيد الله وتفريده. إنها تَنْفُذُ إلى أعماق النفس الإنسانية بمقارض التهذيب والتشذيب! لتستأصل الأنانيات البغيضة، وأمراض الفظاظة والكبرياء! حتى تجعل المؤمن لَيِّناً هَيِّناً يَأْلَفُ ويُؤْلَفُ، ولا خير في من لا يَألَفُ ولا يُؤْلَفُ! إنها مدرسة ربانية، لا بد للمسلم - أنى كان - أن يتلقى رسالاتها واحدة واحدة، وإلا فشل في الاندماج بمحيطه الاجتماعي وكان من الخاسرين! أما المؤمن العامل في صف الدعوة الإسلامية، فله مع هذه السورة قضية أخرى! إذْ لا نجاح له في دينه ودعوته إلا بتحصيل الإمامة في التخلق بمنازلها العالية الرفيعة! وتحقيق السبق في الاستجابة العميقة لموانعها وكوابحها!

إن تحقيق الوحدة الشعورية والانسجام النفسي، القائم على آصرة الحب الخالص في الله - مما بشرت به الأحاديث النبوية الوفيرة - لا يكون على الحقيقة إلا بإجراء علاجات جراحية على النفس، وانتزاع خبائثها؛ حتى تصفو لله، ولله وحده! إذ بذلك فقط تكون لديها القابلية الروحية للتحقق من تلك الصفات. فقول النبي صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهِمْ وتراحمهم وتعاطفهم مَثَلُ الجسد، إذا اشتكى منه عُضْوٌ تَدَاعَى له سائرُ الجسد بالسهر والحمى!)([171]). وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه!)([172]) كل ذلك – إذا تأملته - لا يُنال بين عشية وضحاها، وإنما ينال بمعاناة ومكابدة! فالحب والتواد والتراحم بهذه الصورة الإيثارية الرفيعة، مَعَانٍ روحية لا يمكن أن تدرك بالاستدعاء الإرادي متى شاء صاحبها! بل لابد أوّلاً من مكابدة النفس وترويضها؛ للتخلص من حظوظها الدنيوية في علاقاتها الإجتماعية مع المؤمنين؛ حتى تصبح معاني التواد والتحاب في الله سجية نفسية تلقائية، ومقاما إيمانيا تعبديا، تجري عليه أخلاق صاحبه بلا كلفة. ذلك أن العلاقات التي تؤسسها سورة الحجرات هي علاقات وجدانية تتحقق على المستوى النفسي أولا. وهذا ما لا تنجح فيه مظاهر المجاملات المتكلَّفة الباردة! بل هو خُلُقٌ رهين بحرارة المحبة! وبشوق الأخوة! وبمتعة المودة وجمال الإيثار! وتلك أمور لا تتحقق إلا بالدخول في مدرسة تربوية، ترتقي بالنفس الإنسانية إلى مشاهدات إيمانية تربط العبد بالله والدار الآخرة! وتلك هي دروس سورة الحجرات العظيمة!

---

[171] رواه مسلم.

[172] متفق عليه.

إنها إذن سورة الموانع والكوابح! صحيح أنها سميت بـ"الحجرات"؛ لِمَا ذُكِرَ فيها من توجيه رباني للأعراب الذين كانوا ينادون الرسول - صلى الله عليه وسلم - من وراء بيوتاته بفظاظة وغلظة، ولا يراعون أدب الاستئذان، ولا مقام سيد الخلق عليه الصلاة والسلام!

ولكن في تسميتها بذلك أيضا دلالة على أنها سورة الموانع والكوابح كما ذكرنا؛ لما في معنى الْحُجْرَةِ من معاني الْحَجْرِ والمنع، الذي هو أصل استعمال هذه المادة في اللغة. فكأن كل آية من آياتها حُجْرَةٌ تحفظ دين المؤمن وتستر عِرْضَه! وتمنع غيره من التعدي عليه أو إيذائه بأي نوع من أنواع الأذى. ومن هنا جاءت آياتها نسيجاً مشدوداً إلى تعابير النهي القوية الشديدة! القاضية بالانقطاع الفوري والترك الكلي للمنهيات المذكورة! مع بيان مفاسدها الاجتماعية وأسبابها الشيطانية!

إنها سورة لكبح جماح شهوات اللسان، وسائر نوازغ الشيطان! ومن هنا كانت "الحجرات" سورة اجتماعية من الطراز الأول. إنها مدرسة لتربية المسلم على مهارة الاندماج النفسي في نسيج العلاقات الاجتماعية، والقدرة على التواصل مع سائر الشرائح والعقليات الإنسانية. وحسن إدارة الأزمات الاجتماعية، بما يستأصل أورامها من جذورها، بعد علاجها، ويقطع أسباب ظهورها قبل ميلادها!

كل ذلك بتزكية الأنفس وتربيتها على التخلق بالحقائق الإيمانية، والانقياد لشريعة الإسلام، وكذا بالتغذية الروحية للقلب والوجدان.

والصف الإسلامي الذي لم يتحقق بمقاماتها الإيمانية، ولا تخلق بمنازلها التواصلية، يفشل في تحقيق انسجامه الداخلي، ويَعْدِمُ قدرةَ التواصل مع ذاته، بله التواصل مع الآخرين! وذلك برهان على فشله دينا ودعوة! ومن هنا كانت دروس هذه السورة الكريمة من الضرورات التربوية الأولى، لبناء أخلاق المؤمن في سياقه الاجتماعي، بما هو لَبِنَةٌ مُسْنِدَةٌ ومُسْنَدَةٌ، يُرْجَى توظيفها في تجديد بناء صرح الأمة العظيم.

ذلك ما نتدارسه – بحول الله - في خمسة مجالس، هي كالتالي:

المجلس الأول
في مقام التلقي لأدب الطاعة لله ورسوله، والتوقير لمقام النبوة!

1- كلمات الابتلاء:

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{1} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ{2} إِنَّ الَّذِينَ

يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ الله أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ الله قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ{3} إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ{4} وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ{5}.

2- البيان العام:

هذا باب الدخول إلى رحاب الدين القيم، ومفتاح التحلي بالإخلاص الكامل!.. فالمؤمن بكل قواه العقلية والفكرية إنما هو عبدٌ لله! يستخدم كل طاقاته لله! والعبد لا يتقدم بين يدي سيده برأي ولا بفهم، ولا باستدراك! وإنما يتقدم بين يديه بفقره وبعبديته التنفيذية، إن كان عبدا لله حقا! فلا يتصرف بشيء حتى يَرِدَ عليه الإذن من مولاه! ولا يسبق الوحيَ بشيء من القول أو الفعل، حتى يراجع موارد النصوص من الكتاب والسنة. فإذا ورد الأمر أو النهي عن الله ورسوله قال: سمعنا وأطعنا! ولا يخرج عن دائرة الشرع قيد أنملة، ولا يميل ميلا لهوى متبع أو لرأي شاذ! وإنما هو عبدٌ يدور في فَلَكِ العبودية لسيده أنى دار به!

ذلك مقتضَى التوجيه الإلهي للمؤمنين، الوارد في مطلع هذه السورة العظيمة، محمولا بصيغة النداء القوي لأهل الإيمان على الخصوص، مُؤَسِّساً لسياق نذارةٍ تربوية تُشْعِرُ القلبَ بالرهبة والجلال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ الله وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ!)

فقوله تبارك وتعالى: (يا أيها الذين آمنوا) تنبيه إلى أن الصفة التي يُخاطَبُ بها هؤلاء إنما هي كونهم عبادا لله، قد أقروا بوحدانية الله، وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فوجب أن يكونوا تبعاً لله ولرسوله في جميع الأمور. فلا سبق ولا استدراك ولا تشنج، بل هي الطاعة والتسليم لله أوّلاً وآخراً! وإلا فما معنى الإيمان؟ ذلك أدب رباني رفيع أدَّب الله تعالى به عباده المؤمنين، فيما ينبغي أن يكونوا عليه من مقام تعبدي، إزاء الوحي ونصوصه، من كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم – وما يقتضيانه من التوقير والاحترام، والتبجيل والإعظام.

ثم ختم الآية بتحذير ونذير فقال تعالى: (وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ!) بمعنى وخافوا - في هذا الشأن - مقامَ ربكم العظيم؛ إنه تعالى سميعٌ لكلامكم ومقالاتكم، عليمٌ بما تخفون من نياتكم! وفيه من الوعيد والتحذير من مخالفة التنبيه الرباني المذكور، ما يردع قلب المؤمن من مجرد التفكير في محاولة ذلك! وإنها لآية ترسم للعبد الصادق منهاج حياة في سيره إلى الله! فتستحق لذلك أن تُتخذ شعارا للسائرين إليه تعالى!

ثم إن العبد الحق إنما هو من دَاخَلَهُ الخوفُ من سيده؛ لِمَا عَلِمَ عنه من عظمة سلطانه، وسَعَةِ مُلْكه وملكوته! ولِمَا تجلَّى على قلبه من نور أسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ فَلاَنَ لربه وخضع وخشع! حتى إذا كان بين يدي رسوله - عليه الصلاة والسلام - شاهد فيه من مقام النبوة العظيم رسولاً كريما من رب كريم!

فتجلت عليه أحوال الرهبة والرغبة، وأشواق المحبة والسلام؛ توقيرا وتعظيما لمن جاءه بالسلام من الله السلام! فلا يملك قَلْبُهُ آنئذ بين يديه – عليه الصلاة والسلام - إلا أن يذعن ويخضع؛ ثم لا يجد من صوته ولسانه - بعد ذلك - إلا قنوتا عميقا وخشوعا!

ومن هنا ساق الحقُّ تعالى هذا التأديب الثاني للمؤمنين، فقال جَلَّ ثناؤه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ!) بمعنى: يا أيها الذين تحققوا بالإيمان لا ترفعوا أصواتهم بين يدي النبي - صلى الله عليه وسلم – حتى يعلوَ صوتُكم صوتَه! ولا تخاطبوه على مقتضى عاداتكم في التخاطب فيما بينكم، من رفع الأصوات والتعالي بها! بل أَدْخِلُوا على مخاطبتكم إيَّاهُ لَمْسَةَ العبادة لله؛ بخفض الصوت تأدبا وتحلما! فمن أكرمه الله بنعمة مشاهدةِ رسول الله ولقياه – عليه الصلاة والسلام - بَلْهَ مخاطبته ومناجاته؛ فقد نال من رحمة الله وفضله ما لم ينله أحد من العالمين بعده! فوجب تقدير ذلك وعرفانه؛ شكراً لله وتأدبا مع رسول الله! وهو ما أرشد إليه القرآن الكريم في سورة النور أيضا، من قوله تعالى: (لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً!)(النور: 63).

بل قد ألزم الصحابة - في المنسوخ من القرآن - تقديمَ بين يدي نجواه - عليه الصلاة والسلام - صدقة! لإشعارهم بنعمة تفردهم بلقياه ومناجاته صلى الله عليه وسلم! وهو رسول الأمة جمعاء، أولها وآخرها! فكان حقا على من تفرد بوقت يسير من محادثته أن يتصدق لله بصدقة! ثم نُسخ حُكْمُها ولم تُنسخ حِكمتُها! بل بقيت قرآنا يتلى إلى يوم القيامة! لأن الأمة كلها – أولها وآخرها - في حاجة إلى هذا المعنى العظيم كما سيأتي بيانه.

كل ذلك كان في سياق تربية الصحابة – وأجيال الأمة من بعدهم - على الطاعة التامة لرسول الله! وهو قوله تعالى في سورة المجادلة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَالله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ!)(المجادلة: 12-13).

فأنى بعد ذلك لمن يكلمه رسول الله - عليه الصلاة والسلام - أن يرفع صوته بين يديه صَخَباً؟ ولو في سياق مخاصمة غيره من الناس!

ومن هنا فقد كان في مخالفة هذا الأدب من الإثم ما يحبط عمل العبد كله! ويخسف بإيمانه والعياذ بالله! إلا أن يتغمده الله بالرحمة والغفران! وإن الإنسان ربما استهان بذلك واستخفه مع أنه عند الله عظيم! ولذلك قال هنا في الحجرات:

(وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ!) أي بما استهان من عِظَمِ ذنبه، وهو لا يدري أنه قد أشعل في زرعه ناراً عاصفة، فَأَرْدَتْهُ في لحظات رمادا تذروه الرياح!

إنه أدب الخضوع، وإنه لِمَنْ تخلق به وتحقق لَمقامٌ إيماني عظيم! وذلك لِمَا نجح فيه من امتحان وابتلاء، فأتم فيه كلمة التقوى! وهو صريح قوله تعالى بَعْدُ مباشرة: (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ!) نعم هكذا: (يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ!) وفي هذا التعبير من وصف جمال الحياء والتوقير لرسول الله - صلى الله عليه وسلم – ما يزيد القلبَ محبةً له وتعلقاً! فالغض هو الخفض برفق والعطف بلين. وهو عادة ما يُستعمل في ثني الأمور الرطبة المطاوعة، كالأغصان الغضة، وأجفان العيون! فكان في التعبير "بغض الصوت" أيضا ههنا، ما يجعل خفضه هادئا رفيقا لطيفا، من غير تكلف ولا تصنع! وذلك منتهى الأدب والجمال! فهؤلاء هم (الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى!) أي أخلصها للتقوى وصَفَّاهَا، وجعلها لها أهلاً ومحلاً! فكان لهم من الغفران والأجر العظيم على قَدْرِ هذا المقام العظيم!

وقد رُوي أن هذه الآيات ابتداء من مطلع السورة، نزلت في الشيخين: أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما. أخرج البخاري في صحيحه عن (...) قال: (قَدِمَ رَكْبٌ من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أمِّر "القعقاع بن معبد"، وقال عمر رضي الله عنه: بل أمِّر "الأقرع بن حابس"! فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما أردتَ إلا خلافي! فقال عمر رضي الله عنه: ما أردتُ خلافك! فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما! فنـزلت في ذلك: "يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله"، حتى انقضت الآية: "ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم" الآية)([173]). وقال ابن الزبير: (فما كان عمر رضي الله عنه يُسْمِعُ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - بعد هذه الآية حتى يستفهمه!)([174])

وقال ابن كثير رحمه الله: (قال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره - صلى الله عليه وسلم - كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام؛ لأنه محترم حياً، وفي قبره صلى الله عليه وسلم دائماً.)([175])

وهو معنى مستمر إلى الآن، في علاقة المؤمن بسنته النبي عليه الصلاة والسلام أيضا، كما سنفصله في رسالات الهُدَى المنهاجي بحول الله.

وفي سياق ذلك نعى الحق تبارك وتعالى على الذين كانوا ينادون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من خلف بيوت أزواجه، ضاربين بذلك كل آداب الاستئذان وأخلاق الطُّرْقِ عَرْضَ الحائط! فقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ

[173] رواه البخاري.
[174] رواه البخاري.
[175] تفسير ابن كثير للآية في سورة الحجرات.

أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ!) أي: أكثرهم جُهَّال بدين الله، وبما يلزمهم من حقك وتعظيمك! ولذلك فهم لا يدركون حجم ما يقترفون من سوء الأدب! ثم أرشد تعالى إلى الواجب في ذلك، فقال عزَّ وجلَّ: (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ). أي: ولو أنهم انتظروا حتى تخرج إليهم على حسب ما يقتضيه وقتك أنت! لا وقتهم هم الذين لا ميزان لهم إلا قضاء مآربهم ورغباتهم! لو انتظروا لكان خيراً لهم في الدنيا والآخرة. ثم قال جلَّ ثناؤه داعياً إياهم إلى التوبة والإنابة: (وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ) أي: غفورٌ لمن تاب وأناب إلى الله، رحيمٌ به أن يعاقبه بعد توبته. فله الحمد - جَلَّ جلالُه - على رحمته وغفرانه!

3- **الهدى المنهاجي**:

وينقسم إلى أربع رسالات، هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في أن كمال الإيمان والإخلاص هو في كمال الطاعة! وإنما العبد الصادق يكفيه أن يعلم أن هذا الأمر قد جاء عن الله، أو صح عن رسول الله؛ ليقول: سمعنا وأطعنا! وليبادر على الفور إلى الدخول في العمل، مجيبا ربه بنداء الطاعة: لبيك اللهم لبيك!

لا يَفْتَئِتُ على الله بقول، ولا يسبق الكتابَ والسنة برأي، ولا يستدرك على الشريعة بهوى! فإنما هو عبدٌ لا يُقَدِّمُ بين يدي مولاه وسيده شيئا من ذلك كله، إلا عبديتَه وفقرَه إليه تعالى! وإن ذلك لهو الدين القيم، وإن ذلك لهو الإخلاص الكامل!

- الرسالة الثانية:

في الكشف عن نافذة نور من أنوار مقام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، بما هو رسولُ الله رب العالمين إلى الناس أجمعين! وأنه صلى الله عليه وسلم أحبُّ الخلق إلى الله وأقربهم إليه! العبد الشكور، الشافع المشفَّع، وحامل لواء الحمد يوم القيامة! إمام الأنبياء والمرسلين وسيد الناس أجمعين! آتاه الله الكتاب الكامل، وأرسله بالرحمة والهدى والنور إلى العالمين كل العالمين! رفعه الله إلى أعلى مقام في الدنيا والآخرة، مقام ما أدركه نبيٌّ مُرْسَلٌ ولا مَلَكٌ مقرَّب! أحاطه الله بسياج التوقير والتعظيم، وجعله في جواره الأمين؛ حتى كان مجرد صوت يرتفع بحضرته - عليه الصلاة والسلام – غير مراع لمقام النبوة العظيم، كفيلا بأن يخسف بصاحبه في غيابات جهنم! ومن ثَم فإن حبه - صلى الله عليه وسلم - هو الباب إلى محبة الله ورضاه، والتعرف عليه جَلَّ جلالُه وعلاه!

فيا قلبي الجهول! ماذا تعرف عن رسول الله؟ ألاَ فابحث عن نبيك يا صاح! وتعرف عليه حق المعرفة! عسى أن تنال من محبته نورا تسلك به إلى الله! فمحمد هو سراج الأمة المشرق بالهدى في سمائها أبداً! وإنما الخاسر هو من لم يتلق

شعاع النور! ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً. وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً. وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً!))(الأحزاب: 45-47)

- الرسالة الثالثة:

في أن خضوع القلب لتوجيهات النبي - صلى الله عليه وسلم - والانقياد لسنته، ميزان دقيق من موازين الصلاح والتقوى في تقويم النفس وتهذيبها. وهو ضرب من الابتلاء في مسلك السير إلى الله تعالى، حيث تَعْرِضُ للعبد أهواء البدع، مما يزينه الشيطان على أنه عبادة مخصوصة أو سر من الأسرار! تلبيسا على جهال العباد، فيستدرجهم بذلك إلى مخالفة السنة والارتكاس في حمأة البدع والمنكرات؛ فتحبط أعمالهم وهم لا يشعرون! فلا مسلك دون مسلك رسول الله، كما لا صوت فوق صوت رسول الله!

- الرسالة الرابعة:

في أن الأدب مع أهل الفضل من العلماء الأتقياء والمربين الحكماء، الذين وقفوا حياتهم لخدمة الدين تعليماً ودعوةً، يقتضي التوقير والاحترام. سواء في مخاطبتهم أو في طرق أبوابهم ومراعاة أوقاتهم؛ لما في ذلك من مصحلة عامة للمسلمين. كما أن خدمة العالم الرباني الذي وهب أوقاته لله هي من خدمة الدين؛ لأنه لم يعد مجرد شخص جزئي من المسلمين، بل صار شخصا معنويا، تجتمع فيه كثير من مصالح الأمة! فالخادم له إنما هو خادم للأمة!

4- مسلك التخلق:

ومسلك الفوز في ابتلاءات هذه الكلمات العظيمة، راجع إلى مكابدة خُلقين اثنين بما يلزم لهما من أعمال:

أولهما: التعرف إلى الله وعلى مقامه العظيم؛ بمداومة النظر في كتابه تلاوةً وتدبراً، وخصوصا ما تعلق منه بآيات الخلق والتقدير، والرعاية والتدبير، والإحياء والإماتة، وسائر شؤون ربوبيته ومقتضيات إلهيته، وما تعلق بذلك كله من أسمائه الحسنى خاصة، فإنها مفتاح عظيم للتعرف إلى الله ومحبته! كما يكون ذلك بمداومة النظر في كتاب الكون ومشاهدة آيات الله فيه، والتفكر في جمال خلقه ودقة صنعه، وسَعَةِ مُلكه وعظمة سلطانه، ومشاهدة تجليات أسمائه الحسنى في مسيرة الكون كله أرضه وسمائه، وفي معارض تحولات الملكوت ما بين أزمنته وفصوله، ومنازل أفلاكه وكواكبه! فإن في ذلك ما يملأ القلب رغبا ورهبا، ويزيده تقربا إلى الله تعالى ومعرفة به.

والثاني: الاقتراب من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أكثر وأكثر، والتعرف إليه عن قرب، ومعاينة أحواله وشمائله معاينة روحية! فكثير منا يظن أنه يعرف رسوله - صلى الله عليه وسلم - وهو في واقع الأمر لا يعرف عنه شيئا!

فإنما تكون معرفة سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - معرفة حقيقية عندما يجد المؤمن محبته مشخصة في قلبه، يعيش مع أحواله وخصاله، لَيْلَهُ ونهارَه! وإنما يؤتَى المرء هذا المقام - بعد صدق الطلب وصفاء القصد - بإدمان مطالعة سيرته، والتحقق من صفاته وشمائله، وتتبع أخبار هديه في خاصة نفسه ومقام عبادته لربه، ومعاملته لأصحابه رضي الله عنهم، ومعاشرة كل أخلاقه والاقتراب منها من خلال كتب شمائله وسيرته؛ حتى تكون كلما ذكرته أو ذُكر عندك كأنك تراه! ويكون لك من محبته والشوق إليه ما يجعل لسنته في قلبك توقيرا وتعظيما!

فإن هذا وذاك كفيل - إن شاء الله - بترقية العبد إلى مقام الاستجابة لله، وتلقي رسالاتِ هُدَاهُ، في شأن طاعته جل علاه، وطاعة رسوله - صلى الله عليه وسلم - والتخلق بما يلزم لذلك من معاني العبدية الخالصة له تعالى، وبما يلزم من الأدب في حق رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام. وذلك هو مسلك النجاة لمن وفقه الله. جعلني الله وإياك من أهله!

المجلس الثاني
في مقام التلقي لموازين الأنباء

1- كلمات الابتلاء:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ{6} وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ{7} فَضْلاً مِّنَ الله وَنِعْمَةً وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ{8}

2- البيان العام:

هذه قاعدة من أعظم قواعد الاجتماع البشري في الإسلام! في مراعاتها سلام المجتمع وأمنه وسكينته. وفي الإخلال بها الخراب كل الخراب! ذلك أن كثيرا من الفتن والمفاسد إنما سببها عدم التثبت في نقل الأخبار، وعدم التريث في تلقي الأنباء، ثم التسرع في اعتماد مقتضياتها من الأحكام والتصرفات دون تمحيصها! فهذه القاعدة صمام أمان يحمي المجتمع الإسلامي من ضرر الإشاعات الكاذبة، ويقطع دابر القيل والقال! ويحمي الأسرة من الأقاويل الباطلة، ويحمي العلاقات الإنسانية من التفكك والانفصال، كما يحمي العقول والقلوب من تلقي كل ما ترمي به وسائل الإعلام اليوم من أنباء مضللة! مهما أوتيت تلك الوسائل من حنكة في إخراج أخبارها، ومن دقة في صناعة صورها! فكل هذا وذاك يعرضه المؤمن على هذه القاعدة النقدية الصارمة: التَّبَيُّن! وإن تسليطها على الأقاويل والإشاعات لأشبه ما يكون بما لعصا موسى من الأثر على التخييلات السحرية الباطلة! (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ!)(الشُّعَرَاء: 45/26)

وعلى هذا الأصل العظيم نشأ في الإسلام علم كامل، هو من أَجَلِّ العلوم وأدقها! ألا وهو علم أصول الحديث، بما يتضمنه من علم الرجال وعلم الجرح والتعديل، وغيرهما من علوم النقد الحديثي وقضاياه، فِيمَنْ تُقْبَلُ روايتُه ومن تُرَدُّ! وهذه ثقافة - في الحقيقة - ليست مقتصرة - من حيث الديانة - على علماء الحديث، بل هي أخلاق إسلامية عامة! وجب أن يتحلى بها المؤمن أنى كان! ولذلك كان الخطاب ههنا لعموم المؤمنين، بما لهذا النداء الذي ابْتُدِئَتْ به الآية من شمول واستغراق: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...)!

فالله جل جلاله يأمر المؤمنين - كل المؤمنين - بالتثبت في تَلَقِّي خبر الفاسق لِيُحْتَرَزَ منه! والفسقُ ههنا ليس مقصورا على المعنى الخُلقي فحسب؛ بل هو بمعناه اللغوي العام، أي بمعنى: الانحراف عن الحق مطلقا، ولو كان ذلك بطريق الخطأ والوهم، كما هو مفهوم من سبب نزول هذه الآيات. وهو متضمن لمعنى الانحراف الخلقي وانخرام العدالة من باب أولى وأحرى! فقد ذكر كثير من المفسرين أنها نزلت في (الوليد بن عقبة بن أبي معيط) حين بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على صدقات بني المصطلق بعد غزوتهم. فكانت له معهم قصة عجيبة! خلاصتها أن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي سيد بني المصطلق - رضي الله عنه - قال: قدمتُ على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعاني إلى الإسلام، فدخلتُ فيه وأقررتُ به، ودعاني إلى الزكاة فأقررتُ بها، وقلتُ: يا رسول الله ترسلُ إليَّ رسولاً إبَّانَ كذا وكذا؛ ليأتيك بما جمعتُ من الزكاة. فلما جمع الحارثُ الزكاة وبلَغ الإبَّانُ، احتبس عليه الرسولُ ولم يأته، وظن الحارث أنه قد وقعتْ عليه سَخْطَةٌ من الله تعالى ورسولِه، فَدَعَا قومَه، فقال لهم: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان وقَّتَ لي وقتاً يُرسل إليَّ رسولَه، ليقبض ما عندي من الزكاة، وليس من رسول الله صلى الله عليه وسلم الْخُلْفُ، ولا أرى حَبْسَ رَسُولِهِ إلا من سَخَطِهِ، فانطلِقُوا بنا نأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم! وكان الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد بعث إليه الوليدَ بن عقبة بن أبي معيط، فلما سار هذا حتى بلغ بعض الطريق رأى جمعهم؛ فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله! فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي! فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعث البَعْثَ إلى الحارث رضي الله عنه. وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البَعْثَ، قالوا: هذا الحارث! فلما غشيهم الحارثُ قال لهم: إلى من بُعثتم؟ قالوا: إليك! قال: ولِمَ؟ قالوا: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله! قال رضي الله عنه: لا والذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق! ما رأيته بَتَّةً ولا أتاني! فلما دخل الحارث على رسول الله قال له صلى الله عليه وسلم: "منعتَ الزكاة وأردت قتل رسولي؟" قال: لا والذي بعثك بالحق! ما رأيته ولا

أتاني! وما أقبلتُ إلا حين احتبس عليَّ رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وخشيتُ أن يكون ذلك سَخْطَةً من الله تعالى ورسولِه! قال: فنزلت: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا [إلى قوله:] وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)([176])

وهذا التوجيه الرباني العظيم متفرع عن توجيهِ مفتتح السورة، القاضي بعدم التقديم بين يدي الله ورسوله. وهو قاضٍ بعدم التسرع في إصدار الأحكام، بناء على أخبار لم تثبت حقائقها بدليل صحيح! فيكون من عواقب ذلك كله الندم على التصرفات الهوجاء! من الظلم للناس أو الاتهام لهم بغير حق! ما يكون سببا في الفتن والعداوات والاقتتال! ومما يؤدي إلى تمزيق نسيج المجتمع، وتفكيك وحدته وانسجامه! وهو من أعظم المفاسد في الإسلام! ولذلك وجب رد كل خبر أو إشاعة إلى مقاييس الوحي، وإلى موازين الشريعة، فما صح في منطقها قُبِلَ وإلا فلا!

ومن هنا أمَرَ اللهُ - جل جلاله - المؤمنين أن يذكروا أنَّ فيهم رسول الله، بما هو مبلغ عن الله! أي بما هو صلة بين السماء والأرض؛ تنبيها إلى أن صلاح الناس إنما يتم بالتقيد بمقاييس الرسالة في تلقي أخبارهم وأنبائهم، وهو قوله تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ! وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) أي اعلموا أن بين أظهركم رسولَ الله، فعظِّموه ووقِّروه، وأطيعوه! وأنَّ سُنَّتَهُ باقيةٌ فيكم إلى يوم الدين! فلا تقضوا في أي شيء من أموركم العامة والخاصة دون إذنه! واتبعوا ما أرشدكم إليه من الهدى، فإنما هو ناطق بالحق مسدَّد بالوحي. ثم اصبروا على ما أمركم به ولو خالف أهواءكم! فهو أعلم بمصالحكم. ولو أنه أطاعكم فيما تشتهون؛ لأدى ذلك إلى فساد كبير، وإلى إلزامكم ما لا تطيقون من الحرج والعَنَتِ! واللهُ - جَلَّ ثناؤه - رحيم بكم؛ فحبب إليكم اتباع النبي - صلى الله عليه وسلم - بما حبب إليكم من الإيمان وزينه في قلوبكم، وبما بَغَّضَ إليكم من الكفر، والفسوق وهو كبائر الذنوب، والعصيان وهو جميع الخطايا والآثام مهما دقت وصغرت. فكنتم بذلك من الراشدين، أي من الذين قد آتاهم الله رشدهم وهداهم. وأي رُشْدٍ يكون دون الإيمان بالله ورسوله؟ ثم أي ضلال أبعدُ من الكفر بهما والعياذ بالله؟ ولهذا قال بَعْدُ مباشرةً: (فَضْلاً مِّنَ الله وَنِعْمَةً!) بيانا منه تعالى أن الرُّشْدَ الإيماني هو النعمة الكبرى والفضل العظيم الذي يناله العبد من ربه. فمن أكرمه الله به فقد نال كل شيء! ومن حرمه إياه فقد خسر كل شيء!

وإن هذه الكلمات لمن العلوم الربانية الرفيعة، ومن الحِكَمِ الرحمانية الغالية، التي أنزلها الله في كتابه؛ هدًى لمن أكرمه الله تعالى بتلقي أنوارها، وكَشَفَ له

---

[176] أخرج القصة الإمام أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي رضي الله عنه. كما رواها أيضا ابن جرير الطبري عن أم سلمة رضي الله عنها.

الحجب عن إبصارها؛ فتخلق بها وصار من أهلها! ولذلك ختم الآية بقوله تعالى: (وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

3- **الهدى المنهاجي**: وينقسم إلى خمس رسالات، هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في أن الثقافة النقدية في التلقي والأداء، هي من مقتضيات إيمان المؤمن لا يكمل إيمانه إلا بها! وأن نقل أخبار الفساق مع العلم بأحوالهم يعتبر من خوارم المروءة ومن نواقص الأخلاق. كما أن التصديق بكل ما يُلْقَى على النفس من أخبار وإشاعات هو من أسوأ أنواع السفه! وأسوأ منه المشاركة في نشرها بين الناس!

- الرسالة الثانية:

في عدم التسليم لكل ما تلقيه وسائل الإعلام المرئية والمسموعة من أخبار وتحليلات! وكذلك عدم التصديق بكل ما تموج به شبكات الأنترنيت من إشاعات. فكثير من هذا وذاك هو عبارة عن صناعة إعلامية، يتم إخراجها بصورة توجه الوجدان الإسلامي توجيها مغرضا؛ ليتخذ مواقف غير سليمة من القضايا العالمية والإقليمية! أقل ما ينتج عنها قلب ميزان الأولويات في العمل والإصلاح، ناهيك عن استصدار الأحكام الخاطئة على الناس، وتَلَقِّي التصورات المنحرفة عن القضايا والمؤسسات!

فالإعلام اليوم هو سحر العصر! دوره هو كدور سحرة فرعون تماما: التخييل والتدجيل، وقلب الحقائق والتصورات؛ حتى ليخيل للرائي أنها الحقيقة تسعى! إنه يقوم على صناعة دقيقة، وتقنيات عالية، وفن رهيب! سواء في التصوير، أو الإخراج، أو العرض، أو التأخير، أو التقديم، أو التوقيت، أو التضخيم، أو التقزيم، أو الإعمال، أو الإهمال! حتى إنه قد يجعل بعض الحق هو كل الحق! كما يجعل بعض الباطل هو كل الباطل! بل يقلب الحقيقة قلبا، فيجعل الحق باطلا والباطل حقا! ويصور النقطة الصغيرة السوداء، الواقعة في البقعة الكبيرة البيضاء، فيعرضها معزولة عن بياضها؛ حتى ليخيل للناس أن الحادثة كلها سوداء! والعكس بالعكس أيضا! فالإعلام اليوم حرب يومية رهيبة، من دخلها بغير سلاح نقدي كان من الهالكين!

ذلك غالب حاله، وقليل منه الصدوق! فلا يَتلقى خبرَه وتحليلَه بارتياح كامل إلا جهول!

- الرسالة الثالثة:

في وجوب استشارة الشريعة في كل شيء، وعرض جميع المعلومات - مهما كانت مصادرها محترمة - على ميزانها. فلا عصمة إلا لرسول الله، ولا قداسة إلا لكتاب الله. وإن ذلك لهو من تمام مقام العبودية، ومن كمال منازل

التوحيد والإخلاص! وأن المؤمن المتصف بهذه الخصال محفوظ - بإذن الله - في كل أمره، مُسَدَّدٌ بنور الله في كل خطوه وتصرفه.

- الرسالة الرابعة:

في أن اعتماد الأخبار غير الثابتة وتصديق الإشاعات الرائجة، لإنجاز الأعمال واستصدار الأحكام وبناء التصورات، مؤد إلى ضرر كبير على النفس، في علاقتها بنفسها وفي علاقتها مع الآخرين! كما أنه مؤد بالجماعات الواقعة في إثمه إلى الدخول في مسالك الضيق والحرج! وإلزام الناس بما لم يلزمهم الله به! ولذلك كان على الدعاة خاصة أن يتصفوا بالحذر الشديد في التلقي للأخبار كما في البلاغ. وأما مخالفة ذلك فهو هلاك لهم ولمن تبعهم من مقلديهم! وربما أحدثوا بسبب ذلك من الفتن ما يحرق الأخضر واليابس! فيبوؤون بإثم لا تكاد تنقطع جريرته!

- الرسالة الخامسة:

في أن من تمام رشد المؤمن توظيفَ معطياته الإيمانية، ومقاييسه الشرعية، في نقد أخبار الكفرة والفساق وسائر العصاة! والتثبت في قبول أخبار أهل الغفلة من بعض المتدينين! وأن التحلي بتلك الأخلاق العالية هو من أكبر نعم الله التي أنعم بها على عباده المؤمنين. ولا رُشْدَ في الحقيقة لمن فاته ذلك، مهما أبدى للناس من دهاء وذكاء!

4- مسلك التخلق:

أما بلوغ هذا المقام الخلقي العالي فإنما يكون بتربية لطائف القلب، وتزكية بصائره الإيمانية، باتباع السنة والتقيد بمنهاجها؛ لاكتساب أخلاق الحِلِم والتأني. وكذلك بمجاهدة النفس للتخلص من نوازغ الأهواء، والتحكم في شهوة الكلام عند التعرض لفتن الأخبار والأنباء! فإن لعموم الأخبار - تَلَقِّياً وأدَاءً - لشهوات! من استجاب لها أوردته موارد الهلاك!

أما تقوية عزيمة النفس لضبط الخواطر واللسان، فيكون بالاجتهاد في إخلاص العبادة لله، وتمحيص مداخل الشيطان في كل الأعمال، تصفيةً لكل خَطْرَةٍ، وتفريداً للمعبود في كل خطوة؛ عسى أن ينال العبدُ بذلك محبة الله له، فيجعلَ له نورا يبصر به مسلك الهدى في الظلمات، وفرقانا يميز به الحق من الباطل، عند اختلاط الحق بالمتشابهات! إذ الحرص على مراجعة الشريعة في كل شيء، واستخارة الله تعالى قبل أي شيء، كل ذلك وما في معناه من الأسباب التي تُعَرِّضُ العبد لنعم الله وفضله، مما يجعله سبحانه في قلبه من البصائر والأنوار!

فمحبة العبد لحقائق الإيمان، وتعلق القلب بأعمال الإسلام، كل ذلك مؤذن بمحبة الله تعالى للعبد، وإكرامه بمقام الولاية، الذي هو قمة الفرقان الفاصل ما بين الحق والبهتان! كما هو نص الحديث القدسي الذي يرويه سيدنا محمد - صَلَّى الله

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن ربه، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ اللَّهَ تعالى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ! وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ!)([177]). فمن كان للهِ كان اللهُ له! ومن كان هذا شأنه فإنه لا يضل بنبأ ولا يشقى بعمل!

المجلس الثالث
في مقام التلقي لموازين العدل والإصلاح
وحقيقة الأخوة في الله

1- كلمات الابتلاء:

وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ الله فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ{9} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{10}.

2- البيان العام:

منهاج الاحتياط والتثبت كفيل بحفظ المجتمع من الفتن، ولكن الإنسان - فردا وجماعة - قد يغفل عن المنهاج؛ فيبتلى بنتائج غفلته خصاما وشنآنا، قد يصل إلى حد الاقتتال! ومن هنا جاء القرآن الكريم - بعد إيراد قواعد الوقاية - بتفصيل أساليب العلاج! فوصف خطوات السعي بالإصلاح بين المتقاتلين من المؤمنين. فقال تعالى: (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا!)

وقد أخرج الطبري بسنده – في سبب نزول هذه الآيات - عن أنس رضي الله عنه أنه قال : (قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: لو أتيتَ عبدَ الله بن أُبَيّ؟ [رأس المنافقين] فانطلق إليه وركب حماراً، وانطلق المسلمون، وهي أرض سبخة، فلما أتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال [أُبَيٌّ]: إليك عني! فوالله لقد آذاني نَتْنُ حمارك! فقال رجل من الأنصار: "والله لنتن حمار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أطيب ريحا منك!" قال: فغضب لعبدِ الله بنِ أُبَيّ رجلٌ من قومه، وغضب لكل واحد منهما أصحابُه! [من المسلمين] قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي

177 رواه البخاري.

والنعال! فبلغنا أنه نزلت فيهم: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما.." الآية)([178]).

وذكر لذلك روايات أخرى، منها ما رواه بسنده عن السُّدِّي (قال: كانت امرأة من الأنصار يقال لها "أم زيد" تحت رجل، فكان بينها وبين زوجها شيء [يعني: من الخصومة]، فرقَّاها إلى عُلِّيَّةٍ [أي حبسها بها]، فقال لهم: احفظوا! [يعني: لقومه] فبلغ ذلك قومَها فجاؤوا، وجاء قومُه، فاقتتلوا بالأيدي والنعال! فبلغ ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - فجاء ليصلح بينهم. فنزل القرآن: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا" الآية)([179]).

وقد سمى الله المقتتلين في الآية "مؤمنين" رغم حصول الاقتتال! وبهذا استدل أهل السنة والجماعة على أن المسلم لا يكفر بالمعصية وإن عظمت! وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوماً، ومعه على المنبر الحسن بن علي رضي الله عنهما، فجعل ينظر إليه مرة، وإلى الناس أخرى ويقول: "إن ابني هذا سيد، ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين!"([180]) فكان كما قال صلى الله عليه وسلم، حيث أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الواقعة بينهما منذ مقتل عثمان رضي الله عنه، وقطع الحسن - رضي الله عنه - بذلك دابر الفتن. فَسُمِّيَ ذلك العام بعام الجماعة.

ومن هنا يتبين أن واجب المؤمن عند وقوع الفتنة بين المسلمين: إما أن يسعى إلى الصلح بينهم، وإما أن يعتزل الطوائف كلها فذلك هو الأسلم له! ذلك أن الدم الإسلامي حرام! وهو نص الحديث النبوي الصحيح: (لاَ تَحَاسَدُوا، ولا تَنَاجَشُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِعْ بعضُكم على بيع بعض، وكُونُوا عبادَ الله إخواناً! المسلمُ أَخُو المسلمِ، لا يُسْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ ولا يحقره! التقوى ههنا - و أشار إلى صدره - بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم! كُلُّ المسلم على المسلم حرامٌ! دمُهُ ومالُه وعِرْضُه!)([181]) والقرآن الكريم - قبل ذلك - قد حذر من إهدار دم المسلم أشد التحذير، بحيث يود المسلم لو يخطئ في العفو خير له من أن يخطئ في العقوبة والانتقام! قال جل جلاله: (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً!)(النساء: 93) ومن هنا كان الصلح بين المتخاصمين من المسلمين واجبا شرعيا لا تبرأ ذمتهم منه حتى يحققوه! وكان الإصلاح واجبا على من شهد خصومتهم من إخوانهم، لا تبرأ ذمتهم منه حتى يحققوه!

---

[178] تفسير الطبري: 128/26. وهو وارد في الصحيحين مجملا.

[179] تفسير الطبري: 128/26.

[180] أخرجه البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه.

[181] رواه مسلم.

فإن كان للجماعة المؤمنة سلطان وجب على ذلك السلطان حمل المتخاصمين على الصلح حملا، فإذا تلكأت إحدى الطائفتين واستكبرت عن الصلح بغيا وعدوانا؛ وجب عليه قتالها حتى تفيء إلى أمر الله! بالدخول في السلم العام مع المؤمنين! حتى إذا وضعت الطائفة الباغية سلاحها واستسلمت، وجب آنئذ فصل الخصومة بين المتخاصمين على موازين العدل والقسط! لأن ذلك العدل هو وحده الذي يقطع دابر الخصومة، فلا تشتعل نار الفتنة من جديد. ومنع الظلم هو من أهم وظائف السلطان المسلم. وقد ثبت في الصحيح قول النبي صلى الله عليه وسلم: ("انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" قيل: يا رسول الله أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال صلى الله عليه وسلم: "تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه.")([182])

ثم قرر تعالى القاعدة الأصل في طبيعة الاجتماع البشري الإسلامي، وبيَّن تعالى بأسلوب الحصر والتوكيد أنه مجتمع الأخوة، بما لهذه العبارة من دلالة إيمانية، ومن معنى روحي عميق! وأن العلاقة التي يجب أن تسود بين المؤمنين – بما هم مؤمنون بالله واليوم الآخر – إنما هي الأخوة لا غير! وكأن من انخرم له شيء من عقدها قد انحرم له جزء من إيمانه! فقال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ!) فوجب أن يستمر منهاج الإصلاح على هذا الأساس الإيماني العظيم! إذ به تستمر الحياة الإيمانية المباركة، وتتنـزل على المؤمنين الرحمات، من سكينة وتعايش سلمي أخوي، قائم على أواصر المحبة والتواد والتعاطف والسلام!

وإن المسلمين اليوم رغم أنهم لا يستفيدون من هذه الآيات إلا قليلا، يجنون من بركاتها سلاما نفسيا واجتماعيا عجيبا! لا يعرفه إلا من شهد ما عليه المجتمع الغربي، من شقاء نفسي وانعزال نَكِد، مَزَّقَ كل فضيلة وقضى على كل رحمة! بما أُشْرِبَ من أنانيات تَكْفُرُ بالآخَر مهما كان! ولو كان أخاه أو أمه وأباه! ولقد صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ وصف مجتمع المؤمنين بما وصفه به من مُثُلٍ عليا وقيم راقية، لا تتحقق إلا في المؤمنين! فقال - عليه الصلاة والسلام - في حكمته البالغة: (مَثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهِمْ وتراحمهم وتعاطفهم مَثَلُ الجسد، إذا اشتكى منه عُضْوٌ تَدَاعَى له سائرُ الجسد بالسهر والحمى!)([183]) وإنما ذلك زهرة يانعة، وثمرة طيبة من ثمار الرحمة، المنـزلة من الله - جل جلالُه - بمقتضى التصالح الإيماني الكريم الواقع بين عباده، والمبني على جمال التقوى! وخضوع القلب إلى حكم الله! كما هو مقتضى قوله تعالى: (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ!)

3- الهدى المنهاجي:

---

[182] رواه البخاري عن أنس، ومتفق على مثله عن جابر.

[183] رواه مسلم.

وأما الهدى الوارد في هذه الآيات فيمكن تلقيه عبر الرسالات الست التالية:

ـ الرسالة الأولى:

أن الاقتتال بين المؤمنين خطأ شنيع! فالدم الإسلامي يجب حقنه وحفظه، مهما كانت طبيعة الظروف. وإنما المؤمن الصادق هو الذي لا تتلاعب به ريح الفتن والأهواء أنى هبت! وهو الذي يستعظم دم أخيه المسلم، ولا ينخدع بتأويلات باطلة واستدراجات شيطانية قاتلة! فلا يلطخ يده ولا لسانه ولا قلبه بدم مسلم!

ـ الرسالة الثانية:

في أن الإصلاح بين المؤمنين واجب كفائي، لا بد أن يقوم به بعض المسلمين، وإلا أَثِمَ جميعُهم! فحكمه قد تعلق به أمر صريح من القرآن الكريم، كما هو واضح في الآية موضوع المدارسة: (فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا!) ومن هنا فإن عدم بذل أي جهد للإصلاح هو ـ على من شهد التنازع والخصام، وتعين في حقه الإصلاح ـ زلة قبيحة وجبت التوبة منها والاستغفار!

ـ الرسالة الثالثة:

أن رفع المظالم واجب على السلطان باستعمال سلطانه، وعلى غيره من أهل العلم ومن لحق بهم الدعوة إلى ذلك. والسلطان المسلم هو المكلف وحده شرعا بمدافعة الطائفة الباغية بالقوة. ولا يجوز قتالها إلا بعد بذل جميع مساعي الإصلاح السلمي، واليأس من نجاعتها، وبعد الاستيقان من تعنت الطائفة الباغية، وإصرارها على إشهار الحرب على الأمة! ومن علامات البغي في الطوائف هو رفضها النزول عند مقتضيات الصلح بين المؤمنين، ورفضها الاحتكامَ إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ـ الرسالة الرابعة:

أن العدل دواء ناجع لكل شنآن، كما أن القسط يستدر محبة الله لعباده ونصرته لهم. ولذلك كان العدل من أصول الاجتماع العمراني في الإسلام. وقد تواترت الآيات والسنن بالأمر به في كل الميادين والمجالات، على الإطلاق والعموم. فهو عبادة من أرفع العبادات، كما أن تركه من أشد الكبائر في الدين! وقد صح حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يرويه عن ربه: (قال الله تعالى: يا عبادي! إني حَرَّمْتُ الظلم على نفسي وجعلته محرما بينكم؛ فلا تَظَالَمُوا!)([184])

ـ الرسالة الخامسة:

أن الأخوة مقام إيماني رفيع، واجب على كل مسلم أن يتحقق به تجاه كل المؤمنين! وأن يجاهد نفسه لإخراج ضغائنها وأحقادها تجاههم. فكل من شهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وخضع لمقتضياتها وجبت له الأخوة! قال تعالى: (فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ

[184] رواه مسلم.

يَعْلَمُونَ)(التوبة: 11). وهذا مقام لا يُنال إلا بمجاهدة حقيقية للنفس. ولذلك كان دعاء الصالحين: (وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)(الحشر: 10).

ولا شك أن تحقيق ذلك عمليا على المستوى الاجتماعي لا يكون إلا بالتنازل عن كثير من الحقوق تجاه المؤمنين، والصبر على حماقات بعضهم وجهالاتهم، ممن يثير بتصرفاته الهوجاء الحنقَ والغيظ والغضب فعلا! ومن لم يروض نفسه على استيعاب مثل هذا والصبر عليه؛ خسر ذلك المعنى الإيماني العظيم، ولم يذق من حلاوته شيئا! وليس عبثا أن مدح الله تعالى بذلك عباده المتقين من أهل مقام الإحسان، في قوله جل ثناؤه: (وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ!)(آل عمران: 133-134). وفي مثل هذا أيضا قال جل جلاله: (وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ! ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ! وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ!)(فصلت: 34-35).

- الرسالة السادسة:

في أن مسلك الاستدرار للرحمة وطلب الفرَج من الرحمن، عند اشداد الكرب على المستوى الاجتماعي والمعيشي، إنما ينفتح بابُه للعبد بتحقيق التراحم وتعميق التواد بينه وبين المؤمنين. فذلك من أسباب نزول الرحمة الإلهية بالأمة، كما في قوله تعالى: (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ!) وقد ثبت ضمان ذلك في الحديث النبوي الصحيح، من قوله صلى الله عليه وسلم: (الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى! ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء!)([185])

فمسلك الرحمة إنما هو الرحمة! وهو معنى عظيم في الدين والدعوة جميعا. فما من دعوة قامت على الرحمة إلا وكتب الله لها النجاح والقبول وبارك فيها، وما أخطأتْ ذلك دعوةٌ أو جماعة إلا فشلت وخسرت! وهذا مقام إيماني من الحكمة الربانية رفيع! مَنْ فاته فاته خير عظيم، بل يُخشى عليه أن يكون من الهالكين!

4- مسلك التخلق:

أما المسلك العملي للتخلق بمقام الأخوة الإيمانية فهو مُنْبَنٍ على شرطين أساسين هما:

- أولا: التخلص من الأنانيات! ومعالجة مرض تمجيد الذات، وداء تعظيم

---

[185] رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم، عن ابن عمرو. وصححه الألباني، حديث رقم : 3522 في صحيح الجامع.

النفس وتنـزيهها! وذلك بترويضها في خلواتها وجلواتها على مشاهدة عيوبها، واكتشاف نقائصها الكثيرة في حق الله. ثم معالجتها بمشاهدة مقامات أهل المنازل السابقين، من الصحابة والتابعين، والأئمة الصدِّيقين، وسائر الربانيين عبر التاريخ. وما كان لهم جميعا من سبق في مقامات الإيمان، وما اشتهروا به من كمال وزهد عال، ومن لوم شديد للنفس، ومحاسبة دائمة لها على دقائقها! فتجعل لنفسك برنامجا عمليا من جلسات التفكر والتدبر الفردي، موضوعه الرئيس: النظر في علل نفسك التي بين جنبيك؛ سيرا على هذا الطريق! ثم محاولة اكتشاف دوائها الشافي عند مناجاة الرحمن وتلاوة القرآن، خاصة لحظة التهجد به ليلا! فلعلك آنئذ تجد آيتَك التي تنقذ حياتك من مخالب نفسك الأمارة بالسوء!

- ثانيا: التعلق بالآخرة! والنظر الدائم إلى فناء الحياة الدنيا! ومعلوم لدى الصالحين أن الخلوات الفردية التفكرية - بليل أو نهار - من أعظم الوسائل المحققة لذلك! فانظر إلى الأيام كم سلخت من عمرك! وانظر إلى ما ضيعت من أعوام الشرود عن طريق الله، ثم انظر إلى نعمه سبحانه وحقوقه العظيمة على العباد! وإلى ضآلة ما أنجزت في طريقه تعالى من أعمال! انظر إليها عملا عملا! وتفحصها بدقة؛ أيُّ شيء منها خلص لله وحده حقا، ولم يثلمه تسميع ولا رياء!؟

فَوَا حَرَّ قَلْبَاهُ عليكِ يا نفسي الجاهلة المغرورة! كيف تمجدين ذاتك وتزكين أعمالك، وها أنت تنامين الليالي الطويلة الثقيلة، ميتة الإحساس، جامدة الشعور!؟ كيف؟ وهؤلاء المؤمنون الكُمَّلُ الذين شاهدوا حقائق الإيمان، قد أفزعتهم ذنوبهم؛ فقاموا لله مثنى وفرادى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ!)(السجدة: 16). فالبِدَارَ البِدَارَ قبلَ خَرابِ الدِّيَار!

المجلس الرابع
في مقام التلقي لحقوق الأخوة في الله
ولجمال التعارف الروحي في ذاته جل علاه

1- كلمات الابتلاء:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{11} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ{12} يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ الله أَتْقَاكُمْ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ{13}.

2- البيان العام:

هذه مداخل الشيطان الستة، وأسلحته الفتاكة! وهي مزالق المتكلمين بغير موازين، ومصارع الغافلين تحت أقدام إبليس اللعين! وإنها لمن أخطر أسباب خراب العلاقات الاجتماعية أنى كانت، من الأسرة إلى الجماعة! وهي سبب فشل الإنسان في مد جسور المحبة والتواصل مع المؤمنين. وكلها آفات لسانية وقلبية. وهي كما جاءت مرتبة في الآيات كالتالي: **السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب، والظن، والتجسس، والغيبة!**

والناظر في هذه الآفات الست يجد أنها تنقسم إلى قسمين: القسم الأول منها آفات ظاهرة تخرب الحياة الإيمانية والعلاقات الاجتماعية ظاهراً. وهي الثلاثة الأولى: (السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب). فهذه حرب معلنة على المؤمنين، تفسد الحياة، وتدمر العلاقات، وتؤجج نيران الفتن، وتهيء البيئة للاقتتال! والقسم الثاني هو الآفات الثلاث الباقية، أي: (الظن، والتجسس، والغيبة). وهن آفات خفية سرية، تعمل في غفلة من الناس، وتوقد الحرائق في حقول المحبة الخضراء! وهي لا تقل خطورة عن الأولى، بل هي من أهم أسباب اندلاع بوائقها!

وبيان ذلك مفصلا هو كما يلي:

لما بين الحق تعالى خطر اقتتال المؤمنين فيما بينهم، وبين سبحانه طرائق علاج جروحه، عرَّج على كشف الأسباب المؤدية إليه في البيئة الإسلامية، محذرا منها، وآمرا المؤمنين باجتنابها. وهي الآفات الاجتماعية الست المذكورة. فالآيات الواردة في هذا السياق، إنما هي للوقاية من خطر الشنآن والخصام والاقتتال بين المؤمنين، قبل الوقوع في جحيمه.

فنهَى - جل جلالُه – المؤمنين عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، واستصغارهم. وهذا حرام، بل هو كبيرة شنيعة! لأن الساخر المحتقر لغيره إنما يفعل ذلك؛ لِمَا توهم من العلو لشخصه ولما وجد من الكبرياء في نفسه! ومعلوم ما في الكبر من الوعيد الشديد([186])؛ لأنه ضرب من التأله والتجبر على الخلق! وتلك كلها أحاسيس تعمي صاحبها أن يرى للناس منازلهم! ولهذا قال الحق تعالى - بنوع من التعليل - في سياق النهي عن السخرية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ! وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ!)

ثم قال تعالى: (وَلاَ تَلْمِزُوا أنفُسَكُمْ) أي لاتلمزوا إخوانكم المؤمنين، فهم بمثابة

---

[186] قال صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرة من كبر! قيل : "إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا و نعله حسنة؟" قال : إن الله جميل يحب الجمال. الكبر: بطر الحق وغمط الناس!) رواه مسلم. وقد شُرح الغمط بالاحتقار!

أنفسكم؛ لأن مجتمع المؤمنين كالجسد الواحد. واللمز: الطعن على المؤمنين بالقول القادح تعريضا وتلميحا! وهو من أشنع الأخلاق وأسوئها! وقوله تعالى: (وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ) أي لاتتنادوا بالألقاب الساخرة! مما يطلقه بعضكم على بعض سخريةً وتنقيصا واستهزاءً! فالنبز طعن أيضا كاللمز. ولذلك قال تعالى بعدها مباشرةً: (بِيسَ الاِسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ) أي بئس ما كنتم تصنعون من التنادي بالأسماء الفاسقة والألقاب الشنيعة مما اعتدتم عليه في الجاهلية!

فذلك كله مما وجب على المؤمن أن يتبرأ منه ويتخلى عن بوائقه، من بعد ما أكرمه الله تعالى بالإيمان والتوبة والصلاح. ومن لم يتب من هذا الفعل الشنيع فأولئك هم الظالمون لأنفسهم، بما لطخوها من السيئات، والظالمون لغيرهم بما وقعوا فيه من الطعن في أعراضهم والحط من أقدارهم! وقد يكون أولئك المطعون فيهم ممن أحبهم الله وأعلى لهم الدرجات! وما يدريك؟ فربما طعنتَ على ولي حقيقي من أولياء الله؟ المحروسين بعين الله!؟ و(كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لاَ يُؤبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ!)([187])

فتلك إذن مشاحنات شنيعة يبوء بها اللسان، وينوء ببوائقها؛ سخريةً ولَمْزاً ونَبْزاً! لكنها جميعها ترجع إلى ما يقع بالنفس من أوهام وخواطر شيطانية، مما يَعْقِدُ القلوبَ على الإثم وظن السوء بالمؤمنين! ومن هنا يبدأ الخطر! ذلك أن الظن السيء إذا تشكل في قلب الإنسان جرأه على الطعن في الأعراض والحط من الأقدار! سخريةً ولمزاً ونبزاً! ولذلك فقد غاص الخطاب القرآني في أعماق النفس الإنسانية، منبها المؤمن إلى ضرورة التخلص مما ينعقد بقلبه من الظنون السيئة، وما يلقيه الشيطان إليه، من خواطر سوداء تجاه إخوانه المؤمنين! فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ!)

ثم نهى بعد ذلك عما قد يحصل من محاولة التحقق من تلك الظنون والأوهام؛ بالتجسس على المؤمنين، وهو محاولة التحقق الخفي والتتبع السري للعورات، لفضح ما قد صورته النفس الأمارة عن المؤمنين من عيوب خفيات! كما نهى عن إشاعة التصورات السيئة، والمواقف المنتقصة من أقدار الناس، سواء كان ذلك بحق أو بباطل! فلا يجوز تجريح مؤمن بغيبة أو بأي كلام جارح، مما لو اطلع عليه لغضب منه! وهو ما فسره النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح، الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: (قيل: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال صلى الله عليه وسلم: "ذكرك أخاك بما يكره!" قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال صلى الله عليه وسلم: "إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول

---

[187] رواه الترمذي والضياء عن أنس مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وصححه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم : 4573.

فقد بَهَتَّهُ!)([188]) ويلحق بالغيبة في المعنى السَّعْيُ بالنميمة بين الناس؛ لإفساد ذات بينهم! وهو ما ذمه القرآن بشدة في سياق آخر، وذلك قوله تعالى: (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ!)(القلم: 10-11).

وقد جعل الله تعالى الغيبة في بشاعتها - وما يلحق بها من آفات - كأكل لحم الإنسان وهو ميت! ومعلوم أن النفس الإنسانية تعاف مثل هذا وتستقذره! بل تعاف حتى مجرد تصوره خيالاً! فبين الله - جل جلاله - أن التجسس والغيبة في بشاعتهما وشناعتهما أشد عند الله من ذلك! فقال تعالى: (وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ!؟ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ!) ولذلك فقد حذَّر النبي - صلى الله عليه وسلم - من هذا وذاك أشد التحذير! فقد روى البراء بن عازب وأبو برزة الأسلمي - رضي الله عنهما - قالا: (خطبنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أسمع العَوَاتِقَ في بيوتها، أو قال: في خدورها، فقال: "يا معشر مَنْ آمن بلسانه ولم يدخل الإيمانُ قلبَه! لا تغتابوا المسلمين! ولا تتبعوا عوراتهم! فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع اللهُ عورتَه! ومن يتبع اللهُ عورتَه يفضحه في جوف بيته!")([189]) وعن أنَس بن مالك قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لما عُرج بي مررتُ بقوم لهم أظافر من نحاس يخمشون وجوهَهم وصدورَهم! قلتُ: من هولاء يا جبريل؟ قال: هولاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم!")([190]) ونحو هذا وذاك في السنة النبوية الصحيحة كثير!

وإنما تلك المصائب كلها وليدة الظن السيء الذي ألقاه الشيطان بالقلب! وهو ما وجب التعوذ بالله منه كلما وجده المؤمن في نفسه. والمقصود بالظن السيء: التهمة بالوهم، والتخون المتخرص للأهل وللناس، لأن بعض ذلك إنما يكون إثماً وظلماً! فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث! ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً!)([191])

ومن هنا أمر الله جل جلاله – في آخر السياق - المؤمنين بتقوى الله في ذلك كله! وإنما تكون التقوى ههنا بالحرص على تعظيم محارم الله من أعراض المسلمين، وصون شرفها وحفظ كرامتها! فقال تعالى: (وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ!) فوجب بمقتضى ذلك على من وقع في شيء من هذه الكبائر الخطيرة؛ أن

---

[188] رواه مسلم.

[189] رواه الأربعة عن البراء بن عازب، ورواه أحمد وأبو داود عن أبي برزة الأسلمي، كما رواه الترمذي عن ابن عمر. وصححه الألباني: حديث رقم : 7984 في صحيح الجامع.

[190] أخرجه أبو داود وأحمد. وصححه الألباني. حديث رقم : 5213 في صحيح الجامع.

[191] أخرجه البخاري.

يسارع إلى التوبة إلى الله قبل فوات الأوان! عسى أن ينجو برحمة الله، ويفوز بغفرانه جل ثناؤه!

ثم ختم تعالى السياق جميعه بقاعدة اجتماعية عظيمة! تعتبر أصلا من الأصول الكبرى لطبيعة العمران الاجتماعي في الإسلام، المبني على حقائق الإيمان! وهي قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ الله أَتْقَاكُمْ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ).

فهذا النداء الرباني العظيم، إعلام للبشرية جميعا أنها طينة واحدة، وأنها خِلْقَةٌ واحدة، وأنها جنس واحد! ذلك أنه تعالى قد خلق الناس جميعهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما "آدم" و"حواء"، وكل ما تناسل عنهما من ذكر وأنثى. ثم جعلهم شعوباً وقبائل، والشعب أعم من القبيلة. وبعد القبيلة تتفرع مراتب أُخر، كالفصائل والعشائر والأفخاذ والأسر، وغير ذلك. فجميع الناس في الشرف - بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام - سواء! وإنما يتفاضلون بالمقامات الدينية، من منازل الصلاح والتقوى. والأتقى: هو الأعرف بالله، والأعلم به تعالى، مقاماً وخشية! فذلك هو الأكرم على الله الأعز عنده جل علاه! وليس صاحب النسب الأصيل، ولا الحسب الأثيل، المجرد عن مكارم الدين! فاعتماد هذا وحده مجردا عن مقاصده الإيمانية عنصرية بغيضة، وجاهلية منتنة، أبطلها الإسلام! ولهذا ورد الخطاب الرباني بذلك - مباشرة بعد النهي عن غيبة المسلمين واحتقار بعضهم لبعض - منبهاً على تساوي الناس في البشرية!

وقوله تعالى: "لتعارفوا" أي ليحصل التعارف العمراني فيما بينكم؛ من أجل التعاون على البر والتقوى، وبناء الحضارة الإنسانية على عبادة الله وتوحيده، ومن أجل التعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحفظ حقوق الله، والحقوق العامة والخاصة. ولهذا شُرعت صلة الأرحام في الإسلام، وجعلها الله - جل جلاله - حقا من حقوقه العظمى! إذ بمعرفتها وبصلتها تتم تقوية النسيج الاجتماعي، الذي به يُحفظ الدين في المجتمع، وتحفظ قيم الأمة وأخلاقها، ويضمن استمرار شخصيتها في العالم. وإنما يكون ذلك كله بتمتين روابط الأنساب وحفظ أرحامها، أسرةً وقبيلةً وشعباً! فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (تَعَلَّمُوا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم! فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مَثْرَاةٌ في المال، مَنْسَأَةٌ في الأثَرِ!)([192]) وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أيضا: (اعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم! فإنه لا قُرْبَ بالرحم إذا قُطِعَتْ وإن كانت قريبة! ولا بُعْدَ بها إذا وُصِلَتْ وإن كانت

---

[192] أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وصححه الألباني، حديث رقم : 2965 في صحيح الجامع.

بعيدة!)[193]

ومن هنا كان تحريف مقاصد الارتباط بالنسب في الإسلام، إلى معاني التفاخر الجاهلي والتكاثر العنصري؛ ضربا من تحريف الدين، والخروج به عن منهاج رب العالمين، فيما جعله تعالى من مقاصد تعبدية في أمر خلق الناس أجمعين! ولذلك قال سبحانه في نهاية المطاف: (إن الله عليم خبير!) أي: إن الله جل جلاله عليم بطبائع معادنكم، وأصناف قلوبكم، وحقيقة أقداركم! خبير بخفايا أموركم، ومنازل إيمانكم، وبما تنطوي عليه سرائركم، وما تخفون من نقائصكم وعيوبكم! فما أجهل من يدعي ما لم يجعله الله فيه؛ إذ يشنع على غيره من المسلمين، وقد علم الله أنه ينطوي على أبشع مما شنع به على غيره! وأسوأ مما وقع فيه من الطعن في أعراضهم وأقدارهم، غيبةً وسخريةً واحتقاراً! فمن يحميه إذن من انتقام ربه المطلع عليه؟ وهو - جَلَّتْ عظمتُه - العليم الخبير؟

3- **الهدى المنهاجي**: وهو ينقسم إلى ست رسالات، هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في أن الكلمة مسؤولة! وأن اللسان سِنَان! وأنه من أخطر جوارح الإنسان، وأبلغها أثراً على رصيد الإيمان سلبا وإيجابا! وكثيرا ما يسهو المؤمن ويغفل عن هذه الحقيقة، وفي ذلك ما فيه من الهلاك والعياذ بالله! فكان لزاما على من يرغب في النجاة أن يجعل للسانه ميزانا يضبطه، وحَكَمَةً تُلجمه؛ حتى يتورع عن الخوض في محارم الله، ويمتنع عن النهش في أعراض المسلمين! فيكفي المؤمن - لعقد التوبة من آفات اللسان، وقمع جموحه الشيطاني - أن يجعل شعاره الدائم قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: (وهَلْ يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلا حَصَائِدُ ألسنتهم؟!)[194]

- الرسالة الثانية:

في أن أعراض المسلمين وسمعتهم من أعظم محارم الدين! وأن التعدي على حِمَاهَا هو من أخطر أنواع الظلم! ذلك أن الله جل جلاله جعلها من محارمه المحفوظة عنده! مُسَيَّجَةً بحدود شريعته، تحت ظل سلطانه! فصار كل من انتهكها على خطر عظيم! والكَيِّسُ الفَطِنُ هو من يُعَظِّمُ ما عَظَّمَهُ الله ويُوَقِّرُ ما وَقَّرَهُ الله!

- الرسالة الثالثة:

في أن باطن الإثم وأدران النفس الخفية، هي من أولويات التوبة والإصلاح، ومن أول شروط الانطلاق في السير إلى الله، لمن رام صادقا الوصول إلى رضى مولاه! ذلك أنه لا وصول لعبد ما تزال نفسه الأمارة متلطخة بأوساخ الناس، سخريةً منهم، أو لَمْزاً لهم ونَبْزاً، أو ظَنّاً بهم ظنَّ سوء، أو غيبةً وتجسساً! فالسير

---

193 رواه الطيالسي والحاكم، وصححه الألباني، حديث رقم : 1051، في صحيح الجامع.

194 جزء حديث رواه أحمد وأصحاب السنن إلا أبا داود، وقال الترمذي: حسن صحيح.

إلى الله عروج بالروح، وتحليق بها في فضاءات المعرفة بالله، والتبتل إليه جل ثناؤه وعلاه! والقلب المثقل بالأوساخ لا قدرة له على الانطلاق ولا على بدء المسير، بله أن يكون ممن يُحَلِّقُ أو يطير!

فيا قلبي المغرور متى تتخلص من جهلك العظيم بحق الله، وبشروط السير إلى جمال رضاه! وإلى متى وأنت تلعب بك الأماني الشيطانية، والتسويفات الشهوانية؟ فواحسرة على قلب مَرَّغَ لسانَه في أوحال التراب، وعَمِيَ عن لهيب الحساب!

- الرسالة الرابعة:

في أن الاندماج في المجتمع، وعدم الانعزال عنه، والصبر على ابتلاءاته، قصد الإسهام في إصلاح عمرانه الإنساني، وبناء نسيجه الإيماني، وتعميق وجدانه الروحاني، من أعظم منازل الإيمان وأشرفها. ولقد جعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لصاحب هذه المجاهدات درجة أعلى من غيره، كما في الحديث الصحيح من قوله عليه الصلاة والسلام: (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم!)([195]) فذلك من أهم حِكَمِ الخلق الإلهي وغاياته، كما هو مقتضى الآيات موضوع التدارس: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا).

- الرسالة الخامسة:

في أن من مقاصد الاجتماع البشري في الإسلام أن تذوب المصالح الشخصية في خدمة المصالح الجماعية للأمة، حتى تصير الجماعة كالنفس الواحدة، ويصير كل عضو فيها بمثابة الأخ الوفي لكل الأعضاء. وليحذر المؤمن من أن تتضخم ذاته في نفسه، أو أن تتعاظم "أناه" في ذاته؛ حتى يقع في شَرَكِ عبادة نفسه وتَأْلِيهِهَا! ثم ليحذر من أن يفرغ تلك الوثنية الخفية في تعظيم جماعته الصغيرة وطائفته الجزئية، من حزب، أو جماعة، أو طريقة، حتى لا يرى في الأمة سواها، فتصير حاجبة له عن الله، بدل أن تكون له سفينة تقله إلى رضى مولاه! فالحكمة كل الحكمة في تذويب "الأنا" وقتل كبريائها في خدمة كل المسلمين ومحبتهم، وبذل كامل الشفقة لهم، وخفض جناح الرحمة لصالحهم ومسيئهم؛ عسى الله أن يتوب عنا وعنهم.

- الرسالة السادسة:

في أن التعارف الروحي هو غاية الخلق الرباني للبشرية. فالدين من حيث هو نصوص حقائق مطلقة وقواعد ثابتة. لكنه من حيث هو عمل إنساني، وشعور وجداني، تجربةٌ بشرية، تشرق وتخبو، وتتكدر وتصفو، وتزيد وتنقص! والتجربة الإيمانية – وإن اتحدت في الأصول والثوابت – فهي تتميز في الأحوال

---

[195] رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد، والترمذي، وابن ماجه، عن ابن عمر. وصححه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم : 6651.

والتجليات، وتتعدد في المكاسب والمواهب، وتختلف في ذلك كله باختلاف أصحابها، واختلاف مؤهلاتهم وقابلياتهم. ومن هنا كان للتعارف في الله فوائد عظيمة! حيث يتم تداول الحِكَم الإيمانية، والإشراقات النورانية المتلقاة في طريق الحق، من أجل توطيد الألفة في الله، والأنس بجماله جل علاه، وتكثير سواد السائرين إليه تعالى، وتثبيت أقدامهم في طريق الحق، خاصة في زمان اختلط فيه الحق بالباطل!

فالتعارف الاجتماعي ليس غاية في نفسه، بل هو وسيلة للتعارف الروحاني، الذي هو الغاية الحقيقية من جعل الناس شعوبا وقبائل! كما دلت عليه تتمة السياق: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ الله أَتْقَاكُمْ!) وليس ببعيد عن هذا قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح: (الأرواحُ جنودٌ مُجَنَّدَةٌ، فما تَعَارَفَ منها اِئْتَلَفَ، وما تَنَاكَرَ منها اخْتَلَفَ!)([196]) فابحث عمن تَجَنَّدَ منها في صف الله، وانخرط في طريق السير إلى نيل رضاه، وتعرف إلى مجالسهم ومساربهم، تقطفْ من ثمار الحكمة، ومن أنوار المعرفة به سبحانه، ما ترتقي به نحو مراتب التقوى ومنازل الكرامة عنده، جَلَّ ذِكْرُهُ وثناؤه.

4- مسلك التخلق:

وأما مسالك التخلق بحِكَمِ هذه الكلمات العظيمة فهي كما يلي:

فأما مقام التحكم في اللسان فلا بد للفوز في ابتلاءاته من التحقق بالمجاهدات التالية:

- أولا: التدرب على طول الصمت إلا لحاجة شرعية. وذلك بجعل بصر الإرادة في حالة يقظة أبدا، قائما على طرف اللسان سرمدا، للتحقق من كل كلمة تنازعه ليتلفظ بها، فإما أن تكون صادرة عن حق، ثم مناسبة للمقام؛ فلك أن تأذن له بها، وإلا فإلجام اللسان عنها أولى، وإخناس شهوة الكلام عن باطلها أحرى، فتجعل لسانك بذلك خادما لجمال صمتك، ورافعا لمقامه المتعبد بسكونه، فلا يتحرك حتى تنضج ثمرة الكلام.

- ثانيا: اتهام النفس وإدامة النظر في خفاياها، تهذيبا وتشذيبا، والنظر المنكسر إلى ذنوبها والبكاء على خطاياها. ومن كان هذا شأنه خجل من كلامه! فأنى لمذنب أن يتكلم بغير عبارات التوبة والاستغفار؟!

- ثالثا: المبادرة إلى التصدق بشيء - مهما قل - كلما وجد المرء نفسه قد زل، وانزلقت قدمه في وحل الغيبة، أو السخرية بالمؤمنين، أو ما يلحق بهذا أو ذاك من أصناف الأذى. وألا يبيت على شيء من ذلك - مهما صغر – دون أن يُحْدِثَ له توبةً، ويتقرب إلى ربه بصدقةٍ، إتْبَاعاً سريعاً. وهو مقتضى قول رسول الله صلى

---

[196] رواه البخاري عن عائشة، ورواه مسلم وأحمد وأبو داود عن أبي هريرة، كما رواه الطبراني عن ابن مسعود.

الله عليه وسلم: (اتق الله حيثما كنتَ، **وأتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا!** وخَالِقِ الناسَ بِخُلُقٍ حسن!)([197])

وأما مسلك تربية النفس وترويضها على تذويب أنانيتها في خدمة المؤمنين، فهو راجع إلى التعلق بالله جل ثناؤه، وعقد العزم على السير إليه تعالى رَغَباً ورَهَباً، عبر منازل التقوى والورع. فمن تعلق قلبه بالله على هذا الوِزَان، حَمَلَهُ حادي الشوق إلى المكارم الإيمانية، ورزقه الله بصيرة التعرف إلى خيار المؤمنين، وكان ممن يُقَدِّرُ الناسَ على حسب ما ينطوون عليه من حقائق الإيمان ومعاني الروح! ثم صارت المحبة في الله شعاره، ووسيلته في ربط صلته بالناس، محسنهم ومسيئهم؛ طلبا للصلاح ورغبة في الإصلاح. وعرف ما معنى زيارة أخ له في الله، أو التعرف إليه. ذلك أن المؤمن قد يكون له من كنوز الحقائق الإيمانية حِكَمٌ ينطق بها، أو أحوال ربانية تفيض مواجيدُه بها، أو مقامات إيمانية يصدر سلوكه عنها، وتتحقق مجاهداته بها، فيتزود منه أخوه المتعرف عليه بركات وفيرة، وأنوارا كثيرة، تُبَصِّرُهُ بما خفي عليه من أسرار الطريق إلى الله**!** وكفى بذلك علما عظيما تشد إليه الرِّحَالُ! هذا، وإن التعرف على الأتقياء الأكرمين عند الله، نعمةٌ لا يعرف قَدْرَهاَ إلا من ذاقها، وشاهد أنوارها وجمالها!

المجلس الخامس

في مقام التلقي لمفهوم الإيمان الحق، وفرق ما بينه وبين الإسلام العام!

1- كلمات الابتلاء:

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ{14} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ{15} قُلْ أَتُعَلِّمُونَ الله بِدِينِكُمْ وَالله يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَالله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{16} يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{17} إِنَّ الله يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالله بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{18}.

2- البيان العام:

بعد نقض كل القيم الاجتماعية الجاهلية، من طعن في المؤمنين سخرية ونبزا وغيبة، وما انطوى عليه ذلك كله من فخر بالأنساب والأحساب، ثم بعد جعل قيمة

---

[197] رواه أبو داود، وأحمد، والترمذي، والحاكم، والبيهقي، عن أبي ذر. كما رواه أحمد والترمذي، والبيهقي أيضا عن معاذ. ثم رواه ابن عساكر عن أنس. وحسنه الإمام الترمذي، كما حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، حديث رقم : 97.

الإيمان وحدها هي المعيار لأكرمية الإنسان، على حسب ما بلغه من مقامات التقوى الورع، استأنف السياق القرآني نقد المفهوم الخاطئ للإيمان وتصحيح دلالته، بيانا للسائرين إلى الله، الصادقين في طلب رضاه. فجعل يبين الفروق الدقيقة بين حقيقة الإسلام الشكلي الذي لا يعدو المظاهر العامة، ولا يعبر عن إيمان حقيقي بالله واليوم الآخر، إيمان حي ينبض به القلب رَغَباً ورَهَباً! وبَيْنَ الإسلام الحق الذي يصدق التعبير عنه بالإيمان الكامل! وهو ما حصل فيه إسلام القلب لله رب العالمين، عن معرفة به تعالى وعلم؛ فسجدت مواجيد صاحبه خاشعة لجلال الله وعظمة سلطانه، وتبعتها الجوارح مسلمة له جل عُلاه!

وللعلماء في بيان الفرق بين الإسلام والإيمان كلام لطيف، مبني على نصوص من الكتاب والسنة، من مثل ما ورد في هذه الآيات موضوع المدارسة، وما ورد في حديث جبريل عليه السلام، في محاورته مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، عندما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، فأجابه عن الأول ببيان أركان الإسلام الخمسة، مِنْ نطق بالشهادتين، وإقام للصلاة، وإيتاء للزكاة، وصوم لرمضان، وحج لبيت الله الحرام. وأجابه عن الثاني ببيان أركان الإيمان الستة، من إيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره حلوه مره([198]). فكان الإسلام بهذا المعنى هو خضوع الجوارح، والاستجابة للدين بأداء الأعمال الظاهرة. بينما الإيمان هو التصديق بما جاء عن الله ورسوله من أمور الاعتقادات.

إلا أن الغالب أن يردا متحدين في الدلالة، فيحيل أحدهما على الآخر لزوما. فلا يكون من فرق بينهما إلا فيما يسبق إلى الذهن منهما، على أن يتبعه الآخر تضمنا.

وأما هذه الآيات من سورة الحجرات فلها مقام دلالي آخر، هو أكثر دقة وأشد بيانا! ذلك أن الله - جل جلاله - ولو أنه تعالى أقر الأعراب على أنهم قد أسلموا؛ إلا أنه تعالى نفى عنهم الإيمان! ولم يقرهم على ادعائه البتة! ذلك أن معنى الإيمان – في هذا السياق، زيادة على التصديق بأركان الإيمان الستة - إنما هو الخضوع الكامل لله قلبا وقالبا! حيث يحقق المؤمن معنى كونه عبداً لله، لا يملك من أمر نفسه شيئا! فالمتحقق بهذا المقام هو المؤمن الكامل، وهو العبد الصادق. والإيمان بهذا المعنى توهج قلبي بحقائق الإيمان، القائمة على المعرفة بالله والعلم به تعالى، والقيام بما ينبغي لمقامه العظيم، خشيةً ورهبة! بما يجعل مواجيد القلب تتقد شوقا إلى رضى مولاه، فتبادر إلى الاستجابة الخاضعة الطائعة قولا وعملا!

فهذا الإيمان إسلامٌ أيضا، أي أنه أعمالٌ، لكنها أعمالٌ أعمقُ دلالةً؛ لأنها

[198] الحديث مشهور، رواه بتفصيله الإمام مسلم.

تضرب بجذورها في أعماق القلب، وترتوي من حوض المعرفة بالله. فتنطلق أقدامها سائرة إلى الله، مسوقة بحادي الخوف والرجاء، ومشوقة بنداء المحبة لله! فكل إيمان إسلام، وليس كل إسلام إيمانا بهذا المعنى الخاص للإيمان! بل هذا مقام المؤمنين الكُمَّل، الذين قَدَّمُوا مهجهم وأرواحهم وأموالهم بين يدي الله، ولم يحتفظوا لأنفسهم ولا لحظوظهم من ذلك بشيء البتة! كما هو مقتضى قوله تعالى بعدُ: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ!) وتلك هي حقيقة العبودية الكاملة ومعنى الإخلاص التام! وهو مقام أعلى من معنى الإسلام العام، ومن معنى الإيمان العام أيضا، الدال على مجرد التصديق المجمل بالأركان! بل هذا مقام العبدية الكاملة لله، وهو المنفي عن الأعراب في هذا السياق بقوله تعالى: (قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا)!

وقد ذهب الإمام البخاري - رحمه الله - إلى أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية منافقون! بينما ذهب آخرون - منهم ابن كثير رحمه الله - إلى أنهم ليسوا بمنافقين، بل هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم بعد. وإنما الإشكال هنا أنهم أساؤوا الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ بما مَنُّوا عليه من إيمانهم! فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه؛ فأدبهم الله جل جلاله في هذه الآيات؛ ببيان أن ما حققوه إنما هو مجمل الإيمان، لا الإيمان الكامل الذي هو الإيمان الحق! ولذلك قال ابن كثير رحمه الله: (ولو كانوا منافقين لَعُنِّفُوا وفُضِحُوا! وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: "قل لم تؤمنوا! ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم!"، أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد!)[199]

وما ذهب إليه رحمه الله هو الراجح فعلا؛ بدلالة ما بعده من السياق، وهو قوله تعالى: (وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) فقد أخبر سبحانه بأنه لن ينقصهم من أجورهم شيئا بشرط طاعة الله ورسوله. ويزيده تأكيدا ما جاء بعدُ في السياق نفسه من قوله تعالى: (بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ!) فأقر لهم بالإيمان العام، الذي يخرجون به من حد الكفر والنفاق العقدي. وأما قوله تعالى: (إن الله غفور رحيم) فهو فتح لباب التوبة في وجه هؤلاء الأعراب، مما وقعوا فيه من سوء الأدب مع الله ورسوله، فضلا منه تعالى ورحمة. وهو تعالى "غفور رحيم" أبداً لمن تاب إليه وأناب، واستغفره من مثل هذا السفه الدال على الجهل بالله.

وقد رُوِيَ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال في سبب نزول هذه الآيات: (جاءت بنو أسد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: يا رسول الله أسلمنا! وقاتلتك العرب ولم نقاتلك! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ

[199] ن. تفسير ابن كثير لهذه الآية وما رد به على الإمام البخاري، رحمة الله عليهما.

فِقْهَهُمْ قليلٌ! وإنَّ الشيطان ينطق على ألسنتهم!"، ونزلت هذه الآية: "يمنون عليك أن أسلموا..." الآية)([200]).

وقوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ!) أي إنما المؤمنون الكُمَّل هم الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يشكوا ولم يتزلزلوا، بل ثبتوا على الحق، ورسخت أقدامهم في تربته، وارتوت أشواقهم من كوثره، فبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم، مجاهدةً وجهاداً في طاعة الله وطلب رضوانه وحده دون سواه، توحيدا وتفريدا! لا سمعةً ولا رياءً! بل إخلاصا كاملا لله! ولذلك قال: (أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ!) أي في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون. لا كهؤلاء الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة، فادعوا ما لم يتحققوا به بعد!

فإنما الإيمان المطلوب شرعا يقين وجداني عميق، تفيض مواجيده بالأعمال الخالصة مجاهدةً في الله وجهادا. والإيمان العام قد تكون له تجليات عملية نعم، لكنها ليست قاطعة بحقيقته! لأن الظاهر قد يكون على خلاف الباطن، وقد يكون على وفاقه، والوفاق قد يكون بمطابقة أو بغير بمطابقة، أي قد يكون رصيد العبد من الإيمان أقل بكثير مما يدعيه! ولذلك قال تعالى بعد مباشرة: (قُلْ أَتُعَلِّمُونَ الله بِدِينِكُمْ؟ وَالله يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَالله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ!) وهذا سؤالُ إنكارٍ على هؤلاء، وتعجيب منهم ومن جهلهم بالله! بمعنى: هل أنتم تخبرون الله - جل جلاله - بما تبطنون من الإيمان في قلوبكم؟ وهو سبحانه لايخفى عليه شيء في السماوات والأرض، ولا مثقال ذرة! كيف؟ (وَالله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)! سبحانه جل علاه!

ثم قال تعالى بعد ذلك مخاطبا رسوله الكريم، ومؤدبا لطائفة الأعراب مرة أخرى، مبينا فساد مقالتهم، ومناقضتها لأدب العبودية، ومخالفتها لمقام الإيمان الحق: (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم! بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) فالمن بالشيء – في المعاملات البشرية - هو عطاءٌ له مصحوبا بالتعالي والافتخار والشعور بالكبرياء! على عادة ما كان للعرب في جاهليتهم من كرم تفاخري! حيث كانوا يفعلونه طلبا للصيت والشهرة بين القبائل، ورغبة في سماع الامتداح! فجعل هؤلاء الأعرابُ دخولَهم في الإسلام على ذلك الوزان! وجعلوا يمنون به على رسول الله صلى الله عليه وسلم! وهو أمر مخالف لطبيعة هذا الدين، ولجوهر الإيمان القائم على الذلة والعبودية، والخضوع الكامل لله! إذ المَنُّ يُخفي من حظوظِ النفسِ وعُجْبِهَا ومشاهدةِ أنانيتها؛ ما يناقض

[200] ن. الطبري وابن كثير في تفسيرهما للآية. وقد أخرج الحديث أيضا الإمام الطبراني في الأوسط، وأبو يعلى في مسنده، والبزار.

فناءَها التام في طاعة لله، الذي هو محض الإيمان! ولذلك نزل القرآن بهذا اللوم الشديد: (قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم! بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ!) فإنما المنتفع بالإيمان – إن صدق فيه - هو صاحبُه! والمنة إنما هي لله أوَّلاً وآخِراً لو كانوا يعلمون!

ثم ختم الحق تبارك وتعالى السورة بآية كلية، تربط آخر السورة بأولها، وتشد النطاق على موضوعها، - الدائر حول أدب التعامل مع الله ورسوله ومع المؤمنين - وهي آية تتعلق بصفة عظيمة من صفات الله تعالى، مما يقتضي العلمُ بها الخضوعَ التامَّ لله الواحد القهار، وخوفَ مَقَامِهِ العظيم! والتزامَ آداب السير إليه تعالى. وهي عِلْمُهُ سبحانه جميعَ أمور الغيب مما في السماوات والأرض، وما تضمنه من سائر أعمال بني آدم الظاهرة والباطنة، قال جل جلاله: (إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالله بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).

وعِلْمُ الغيب - بدلالته القرآنية العميقة - هو من شؤون الربوبية الخاصة بالله رب العالمين. وهو مما ينبغي للمؤمن أن يتخذه مسلكا إيمانيا، يتعرف من خلاله إلى ربه؛ حتى لا يقع في الجهل به تعالى، ولا يرتكب من سوء الأدب معه جل جلاله؛ ما قد يحبط عمله أو يبطل سعيه، والعياذ بالله.

3- الهدى المنهاجي:

وهو ينقسم إلى خمس رسالات، هي كالتالي:

- الرسالة الأولى:

في أن القلب هو التربة الأساس لغرس بذرة الإيمان، فوجب تخصيبه وإعداده لذلك، تماما كما يُعِدُّ الفلاح الأرض بالحرث والتسميد؛ لحسن تلقي البذور وتجويد الإنبات. فكمال الإيمان إنما يحصل للمؤمن بتزكية القلب، وتهييئه تخليةً وتحليةً وتغذيته بالأعمال الصالحة، والأوراد الصافية، حتى تحصل له مشاهدة حقائق الإيمان يقينا، ويحصل له الثبات الراسخ على أركانه جميعها، والتخلق الكامل بمقتضياتها كلها. ومن هنا وجبت مراجعة أحوال القلب باستمرار لضمان سلامته المعنوية، وأهليته الروحية لتلقي رسالات القرآن وحقائق الإيمان.

- الرسالة الثانية:

في أن الإيمان المحض إنما هو فناء النفس في طاعة الله، وأن مشاهدة "الأنا" في غير موقع الفقر إليه تعالى غرور وجهل بالله. ولذلك كان مسلك الذلة لله والخضوع له رغبة ورهبة؛ بما يشعر المؤمن بالافتقار الدائم إليه تعالى؛ هو طريق العارفين به سبحانه جل علاه، المتحققين بكمال الإيمان وبمقامه العالي الرفيع! فغاية الإيمان وحقيقته إذن هي جعل الإنسان في مقام العبدية الكاملة لله، تحققا بمعانيها وتخلقا بأدبها. وإنما يكون ذلك بذبح شهوات النفس على عتبة

العبودية لله الواحد القهار، والتوجه إليه سبحانه بالطاعة في كل ما أمر خوفا وطمعا، ورد الفضل كله في هذا وذاك إلى الله! فمن رأى لنفسه فضيلة في طريق التعبد المحض فإنه لم يذق معنى الإيمان الحق، الذي تجلت به هذه الآيات المباركات من كتاب الله! ولم يبرح بعدُ أشكالَ الرسوم العامة للإسلام؛ إلى التحليق في فضاءاتها الواسعة والترقي بمعارجها العالية! فإنما يحصل غنى القلب بمشاهدة فقره، ويتحقق كماله بإبصار نقصه وضعفه!

- الرسالة الثالثة:

في أن الجهاد بالمال والنفس مصداق الإيمان الحق وبرهانه! لأن الجهاد ثمرة عزيزة من ثمار المجاهدة. وعلامة على انتصار النفس اللوامة على النفس الأمارة! ودلالة على هيمنة الدواء على الأدواء! واستيلاء خاطر الحق على خواطر الأهواء! فالجهاد بذل وتضحية بأعز ما يشح به ابن آدم ويحرص عليه: ماله ونفسه! فإذا بلغ العبد من منازل التخلق بمقامات الإيمان أن فني عن مثل هذه الحظوظ، فتلك علامة على وصوله إلى مقام الإيمان الخالص! فليحمد الله على توفيق الله! وإلا فدونه طريق طويل من المجاهدات!

- الرسالة الرابعة:

في أن للطريق إلى الله أدبا خاصا، مَنْ جهله عوقب بالحرمان من الوصول! فليس الدين مجرد أعمال، بل هو أعمال وآداب! وكثيرا ما تتوقف صحة الأعمال وقبولها على تلك الآداب! وهذه تبدأ من عالم الوجدان والشعور إلى عالم الألفاظ والتعبير. إلا أن كثيرا من المسلمين أهملوا تلك الآداب، واستصغروا شأنها في الدين! مع أنه ما كان للعبد الحق إلا أن يتأدب بين يدي سيده ومولاه! وقد جاءت سورة الحجرات جامعة لكثير منها، مُجَلِّيَةً لحقائقها ومكانتها عند الله جل جلاله؛ فوجب تلقيها عنه تعالى كما تلقاها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فضربوا المثل الأعلى في التحقق بها، سيرا إلى الله جل ثناؤه؛ فكانوا بذلك أفضل الخلق في هذه الأمة إلى يوم القيامة!

وإن كلمة واحدة من سوء الأدب مع الله قد تحرق رصيد العبد الإيماني كله! كما أن كلمة واحدة من الأدب الرفيع تجاه مقامه العظيم - جل علاه - قد ترفعه إلى مقام الصِّدِّيقِين! ولا أدل على ذلك من حديث سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذْ قال: (إنَّ العبدَ ليتكلم بالكلمة من رِضْوَانِ الله لاَ يُلْقِي لها بالاً، يرفعه الله بها درجات! وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سَخَطِ الله لاَ يُلْقِي لها بالاً يَهْوِي بها في جهنم!)([201]) وله رواية أخرى أكثر تفصيلا عن بلال بن الحارث المزني - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من

[201] رواه البخاري.

رضوان الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله تعالى له بها رضوانَه إلى يوم يلقاه! وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَطِ الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت؛ يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه!)([202])

- الرسالة الخامسة:

في أن الإيمان بالغيب والتوكل على الله بمقتضاه، وتغذية القلب بحقائقه الكبرى، دواءٌ ناجع لكل ضعف أو كلل، في طريق السير إلى الله، وترياق لعلل النفس وتقويتها على تزكية لطائفها، وترويضها على نبذ أنانيتها، وعلى ذبح حظوظها في طاعة الله. فالغيب هو البحر الذي يضخ حقائق الإيمان موجا يتدفق على صدر المؤمن. ولذلك امتدت شواطئه الفسيحة على عرض القرآن العظيم كله! فوجب على المؤمن التعرض لموجه المتدفق أبداً باللآلئ والمرجان! وتلقي حقائقه التي تغذي القلب بجمال الأنس بالله، وكمال اليقين فيه جل علاه.

4- مسلك التخلق:

أما مسلك التخلق بهذه المقامات الإيمانية الرفيعة، وتحقيق النجاح في ابتلاءاتها الرسالية العظيمة؛ بما يُفني "الأنا" في طاعة الله، ويحلي العبد بأدب حب الله، حتى لا يقوم إلا لله وبه! فهو راجع إلى مجاهدة النفس - في خلواتها وجلواتها - وتغذيتها بمداومة الأوراد التفكرية التالية:

- أولا: مشاهدةُ نِعَمِ الله العظيمة على العبد! ومطالعة تجلياتها المادية والمعنوية، خَلْقاً ورزقا ورعاية وهداية! بما يقتضي غرق العبد في العجز التام عن مشاهدة "أناه" الواهمة الكاذبة! والخجل من النظر إلى عمله الصالح الضئيل جدا، فيما ينبغي لله من حقوق إزاء نعمه العظيمة! بَلْهَ النظر إلى سيئاته وذنونه الكثيرة!

- ثانيا: التحقق تفكراً وتدبراً من معنى كون المسلم "عبدا لله"! وهل العبد إلا شخص مملوكٌ، فاقدٌ لكل معاني المِلْكِيَّة، في نفسه وماله وولده! فكل ذلك ملكٌ تام لسيده! فلا حظ له في أي شيء منه ولا مقدار قِطْمِير! وإنما شأن العبد الوقوف بين يدي مولاه على عتبة الخدمة! وبمجرد شعوره بأنه قد صار يملك شيئا فقد استزله الشيطان! ويكون آنئذ قد خان سيده، وتعدى على سلطانه العظيم؛ فانخرمت بذلك حقيقة عبديته الخالصة! فإنما الملك شأن السيد. وما العبد إلا مملوك لمولاه! والله - جل جلاله - بما هو مالك الملك، ورب العالمين سبحانه؛ هو الذي يقوم بكل شؤون عبده، خلقا ورزقا ورعاية وتقديرا. فمن أدرك ذلك بقلبه يقينا وصل! ومن ثَمَّ كان

---

[202] رواه مالك، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال صحيح الإسناد. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. ثم حسنه الألباني في صحيح الترغيب، بينما صححه في السلسلة الصحيحة.

في مداومة هذه المشاهدات تغذية عظيمة للروح، وتنشيط لها في طريق التخلق والتحقق بمقام العبدية الكاملة، ومنزلة الإيمان الخالص!

- ثالثا: مشاهدة أدب الأنبياء والصِّدِّقِين الكُمَّلِ، وملاحظة سِيَرِهِمْ مع الله! وذلك بالإكثار من مطالعة تراجمهم، بدءاً بسيرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسِيَرِ أصحابه الكرام، ومَنْ لحق بهم من خيار التابعين والعلماء الربانيين. ففي مشاهدة أحوالهم تغذيةٌ للقلب عظيمة، وتقوية لأجنحة الروح على التحليق نحو أبراج منازلهم العالية! ذلك أن القلب كلما نظر إلى القمم العالية اشتاق إلى التحليق بفضاءاتها!

خاتمة حسنى

وبعد، ماذا أنت فاعل يا قلبي الكليل بين يدي هذه المعارج العالية الرفيعة؟ وكيف أنت متصرف إزاء هذه الرسالات القوية البليغة؟ كيف؟ وقد قامت عليك الحجة وبلغ البيان!؟ قد سَبَقَ الْمُفَرِّدُون! وبَلَغَ الصِّدِّيقُون! وأنت يا قلبي – واحسرتاه! - ما تزال تلهث متعثرا، لا تنهض لك عزيمةٌ ولا يستقيم لك سَيْرٌ! تَصْرِفُكَ الشهواتُ والأهواء عن مواصلة الطريق! وفرصة الاستئناف على وشك الانتهاء! والملائكة تستعد لطي الصحف!

أزِفَتِ الآزِفَةُ يا صَاحِ وتَقَارَبَ الزمان! فالبِدَارَ البِدَارَ قبل فوات الأوان!

فأما هذه السورة، فإذا خرجتَ من امتحاناتها فائزاً بعهدين اثنين، فقد فزت بأهم مقاصدها، وتخلقت بغاية رسالاتها، ونلت أعلى مقاماتها!

فأما العهد الأول: فهو عهد الأدب مع الله ذلةً وافتقاراً.

وأما العهد الثاني: فهو عهد الصمت ومراقبة اللسان!

فذانك موثقان عظيمان بينك وبين ربك، يُصَدِّقُهما العملُ أو يكذبهما!

وتلك هي الخاتمة الكلية التي ختم الله بها السورة إذ قال جل جلاله: (وَالله بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ!)

فيا سيدي! ها أنا ذا قادم إليك، لا أحمل سوى فقري وحاجتي الشديدة إليك! قد أرهقتني ذنوبي، وأثقلتني خطاياي! وورَّثتني الآثامُ هَمّاً يملأني بالندم والأسى! فاللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي! أنت ربي وأنا عبدك، ولا حول ولا قوة إلا بك! فاغفر لي وتب عليَّ! إنك أنت التواب الرحيم!

ــــــــــــانتهى.